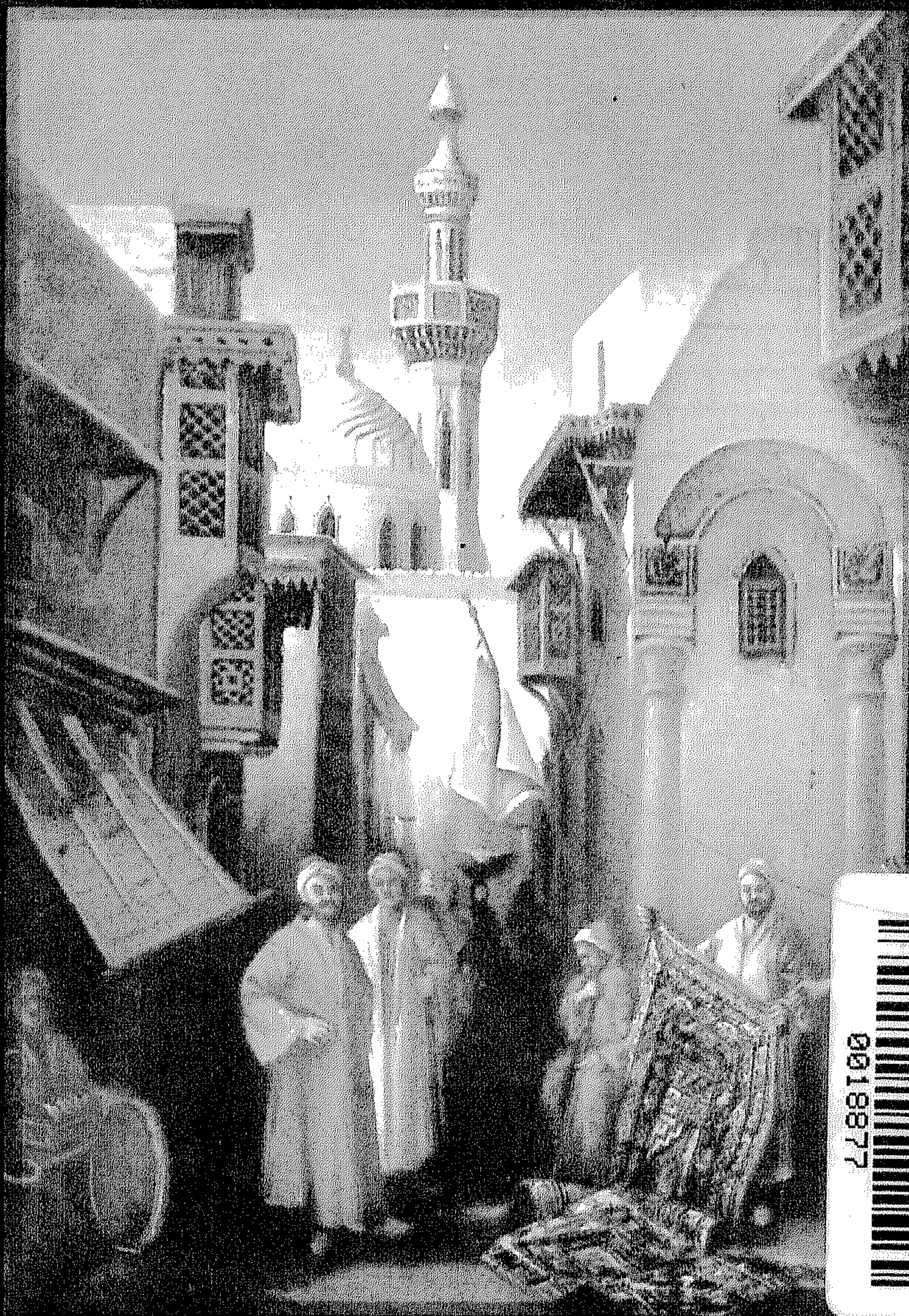


د. حَسَّان حَلَّاق



مكتبة المهتدين الإسلامية



د. حسان حلاق

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب
في
العصور الوسطى

الأندلس - صقلية - الشام



صورة الغلاف: بائع السجاد لسيد رابع .
لوحة زيتية أصلية قياس ٥٠ x ٣٥
(الدار الوطنية للطباعة والنشر والتوزيع)



العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب

الاهداء

الى اساتذتي في الحضارة العربية والإسلامية:

**الاستاذة الدكتورة زاهية قدورة
الاستاذ الدكتور احمد مختار العبادي
الاستاذ الدكتور السيد عبد العزيز سالم
الاستاذ الدكتور عفيف الترك
كلمة محبة ووفاء وتقدير**

فهرس الموضوعات

الاهداء	:	٥
فهرس الموضوعات :		٨ - ٧
مقدمة	:	١٠ - ٩

القسم الأول:

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في الأندلس

الفصل الأول:	:	مقدمة في العلاقات الحضارية الاسلامية
المسيحية في الأندلس	٢٥ - ١٣
الفصل الثاني	:	التبادل الحضاري بين الشام والأندلس ٣٨ - ٢٧
الفصل الثالث	:	التبادل الحضاري بين العراق والأندلس ... ٤٩ - ٣٩
الفصل الرابع	:	التبادل الحضاري بين الحجاز والأندلس .. ٥٦ - ٥١
الفصل الخامس	:	التبادل الحضاري بين مصر والأندلس ٦٦ - ٥٧
الفصل السادس	:	السفارات الاسلامية - المسيحية في الأندلس ٧٤ - ٦٧
الفصل السابع	:	السفارات الاسلامية - المسيحية بين الأندلس وبيزنطة ٨٣ - ٧٥
الفصل الثامن	:	التبادل الحضاري بين الأندلس والغرب ... ٩٠ - ٨٥
الفصل التاسع	:	طليطلة : من مراكز التبادل الحضاري الإسلامي - المسيحي ٩٩ - ٩١

القسم الثاني

العلاقات الاسلامية - المسيحية في صقلية

الفصل الأول	:	مقدمة في تاريخ صقلية	١١١ - ١١٧
الفصل الثاني	:	العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين في العهد النورماني	١١٩ - ١٣٢
الفصل الثالث	:	العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والألمانية	١٣٣ - ١٤٨
الفصل الرابع	:	بالرمو عاصمة صقلية	١٤٩ - ١٥٥
الخرائط والصور	:	١٥٧ - ١٦٤

القسم الثالث

العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في بلاد الشام

الفصل الأول	:	مقدمة في الحروب الصليبية وأسبابها	١٦٧ - ١٨٧
الفصل الثاني	:	العلاقات الاجتماعية	١٨٩ - ٢٠٣
الفصل الثالث	:	العلاقات الاقتصادية	٢٠٥ - ٢٢٣
الفصل الرابع	:	المؤثرات الثقافية والطبية	٢٢٥ - ٢٣٩
الفصل الخامس	:	المؤثرات المعمارية العسكرية والمدنية	٢٤١ - ٢٥١
الفصل السادس	:	المفاوضات السياسية والسلمية بين المسلمين والافرنج	٢٥٣ - ٢٧١
الخرائط والصور	:	٢٧٣ - ٢٨٥
فهارس الاعلام والأماكن والملاحم العامة والمصطلحات	:	٢٨٧ - ٣٢٦
مصادر البحث	:	٣٢٧ - ٣٣٦

الملاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى

مقدمة

لا يقصد بالملاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى العلاقات الحربية والعسكرية فحسب التي سبق أن تمت دراستها في مجالات أخرى، ولكن المقصود بالملاقات في هذه الدراسة العلاقات الحضارية من علمية وثقافية واقتصادية واجتماعية وسياسية أيضاً بين شعوب المشرق العربي وشعوب المغرب من المسلمين والأوروبيين معاً وهي العلاقات التي يجب أن تدرس بعناية ودقة نظراً لأهميتها الحضارية ونظراً لأهمية التمازج الحضاري بين الشرق والغرب وبين الاسلام والمسيحية منذ العصور الوسطى عبر المعابر الحضارية.

ولقد كان لانطلاقة المسلمين من شبه الجزيرة العربية الى بلاد الشام ومن ثم إلى إسبانيا وبعض بلدان أوروبا وجزيرة صقلية، الأثر البارز في نقل الحضارة الاسلامية إلى البلدان الأوروبية وكان لانطلاقة الحملات الصليبية باتجاه الشرق الأثر الحضاري البارز بالإضافة إلى الآثار والنتائج الحربية والعسكرية.

والحقيقة فإن الاسبان استطاعوا إخراج المسلمين من الأندلس، واستطاع الافرنج الصقلية إخراج المسلمين من صقلية، كما استطاع المسلمون إخراج الصليبيين من الشام، غير أن النتائج الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والإدارية والسياسية استمرت ولقرون عديدة في المجتمعات الأوروبية والعربية على حد سواء. ثم إن إخراج المسلمين من الأندلس وصقلية لا يعني إخراج ثقافتهم وعلومهم، بل على العكس فقد استمر الاسبان والصقليون في الاستفادة من هذه الثقافات والعلوم. كما أن الصليبيين عندما خرجوا من الشام - أو أثناء

وجودهم - استفادوا كثيراً من المسلمين ، ونقلوا معهم من الشرق إلى أوروبا الكثير من علوم المسلمين ومن التراث الاسلامي والعربي .

ولا بد من الإشارة إلى أن للحضارة الاسلامية العربية فضلاً كبيراً في نقل العلوم وتطورها في بلدان أوروبا عبر المعابر الثلاثة: الأندلس، صقلية، بلاد الشام، ومعابر حضارية أخرى كالبندقية وجنوى وبيزا وقبرص ورودوس وسواها في وقت كانت فيه أوروبا تعاني من وطأة التخلف العلمي والحضاري، وفي وقت كانت لا تزال فيه تحيا حياة الركود والانحطاط .

د . حسان حلاق

بيروت

٣ جمادى الأولى ١٤٠٦ هـ - ١٣ ك ٢ (يناير) ١٩٨٦

القسم الأول
العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب
في الأندلس

الفصل الأول

مقدمة في العلاقات الحضارية
الإسلامية - المسيحية في الأندلس

الفصل الأول

مقدمة في العلاقات الحضارية الاسلامية - المسيحية في الأندلس

تقع بلاد الأندلس (اسبانيا) في شبه الجزيرة الايبيرية، وايبيرية نسبة الى أمة قديمة يقال لها «الايبير» (Ibere) وهي أقدم أمة سكنت وعمرت بلاد اسبانيا والبرتغال. أما لفظة «الأندلس»، فهي مشتقة من اسم «الفاندالس» أو «الوندال» وهم من الشعوب الذين سكنوا نهر «الاور» (Oder) ونهر «الفيستول» (Vistule) في شرقي ألمانيا. وهؤلاء «الفاندالس» زحفوا سنة ٤١١ ق.م. من الشمال إلى الجنوب حتى بلغوا مضيق جبل طارق، ثم وصلوا إلى أفريقية (المغرب العربي)، وقد أطلق أهل أفريقية والمغرب على اسبانيا التي استقر فيها «الفاندالس» اسم «فانداليسيا» (Vandalicia) نسبة لاسم «الفاندالس». ولما جاء العرب إلى هذه البلاد وافتتحوها عرّبوا الاسم وأطلقوا عليها اسم «أندلس». واعتبر العرب أن «الأندلس» هي جميع الجزيرة الايبيرية. ويذكر الرحالة العرب، بأن عدد المدن الأندلسية في فترة الحكم العربي الاسلامي بلغ حوالي أربعين مدينة عربية، كانت تضم ما يقارب خمسة عشر مليوناً من السكان في عهد عبدالرحمن الناصر (الثالث). وكانت قرطبة وحدها تضم مليوني نسمة. وهذه البلاد تقسم جغرافياً إلى قسمين: الأندلس العليا وهي شمالي الوادي الكبير، والأندلس السفلى وهي جنوبي الوادي الكبير. ويجري في هذا الوادي أكبر نهر في الأندلس بعد نهر «ابرة».

أما سكان اسبانيا، فهم في الأصل خليط من الفاندال والكلتين والايبيرين والفينيقيين القرطاجيين، وعناصر اغريقية يونانية ورومانية وجرمانية ويهودية. كما

استقر فيها القوط الذين سيطروا على اسبانيا فترة من الزمن ثم جاءت العناصر الاسلامية والعربية فسيطرت على بلاد الأندلس في اطار عناصر متعددة ومتمايزة، استطاع العرب خلال حكمهم ان يمزجوها في بوتقة الحضارة العربية والاسلامية، فهذه العناصر « تأسلمت » أو « تعربت » أو كما يقال « تأندلست ».

وكان فتح المسلمين لاسبانيا في أوائل القرن الثامن للميلاد نتيجة مخطط سياسي وعسكري اتفق عليه زمن الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك في دمشق، بالاتفاق مع قائده في المغرب موسى بن نصير. وبدأت أولى المعارك بعدة غارات استكشافية على جنوب اسبانيا، ثم تكررت في شهر رمضان سنة (٩١ هـ - ٧١٠ م) على يد طريف بن مالك. ثم بدأت مرحلة غزو اسبانيا بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير براً وبحراً^(١). وقد اجتاز الجبل الذي عرف باسمه « جبل طارق » المعروف سابقاً باسم (Mons Calpe)^(٢) وهي تسمية فينيقية تعني « الجبل المجوف » سنة ٩٢ هـ. وقد أرسل موسى أعداداً من جنوده لمساعدة طارق، وبذلك أصبح عدد الجنود المسلمين في اسبانيا ما يقارب اثني عشر ألفاً. وبهذا يقول صاحب « أخبار مجموعة »: « وكان موسى مذ وجه طارقاً أخذ في عمل السفن حتى صارت معه سفن كثيرة، فحمل اليه خمسة آلاف فتوافى المسلمون بالأندلس عند طارق اثنا عشر ألفاً ».

وكانت المعركة الفاصلة بين المسلمين والاسبان هي معركة « كورة شدونة » (من ٢٨ رمضان إلى ٥ شوال سنة ٩٢ هـ - ١٩ - ٢٦ تموز - يوليه) ٧١١ م) وانتهت بانتصار المسلمين على ملك اسبانيا القوطي رودريك (لذريق) (Rodrigo). ثم تكررت المعارك بين المسلمين والاسبان في مختلف المناطق الاسبانية مثال: ليون وقشتالة (Castilla) (منطقة القلاع) حتى انتهى الأمر إلى قيام حكم

(١) انظر:

Dozy; Histoire des Musulmans d'Espagne, T. I, pp. 274-275.

Lévi-Provençal; Histoire de l'Espagne Musulmane, T. I, p. 18.

(٢)

إسلامي في اسبانيا . ولقد قسم الحكم الاسلامي في الأندلس إلى العصور التالية (١) :

١ - عصر الولاة: وهو أزهى العصور الأندلسية، وكانت الأندلس خلاله إمارة أموية مستقلة سياسياً عن الخلافة العباسية في بغداد والمشرق، ويمتد هذا العصر من عهد عبد الرحمن الأول بن معاوية بن هشام بن عبد الملك إلى عهد عبد الله بن محمد (من ١٣٨ - ٣١٦ هـ، ٧٥٦ - ٩٢٩ م).

وقد أصبحت الأندلس إمارة مستقلة روحياً وسياسياً عن الخلافة العباسية من عهد عبد الرحمن الناصر لدين الله (الثالث) إلى عهد هشام الثاني المؤيد لحكم المستنصر (من ٣٠٠ - ٤٢٢ هـ، ٩١٢ - ١٠٣١ م).

٣ - عصر ملوك الطوائف: يبدأ هذا العصر بسقوط الدولة الأموية في الأندلس وتفكك الدولة إلى دويلات سياسية وطائفية متنازعة. وينتهي بدخول المرابطين من المغرب إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وانتصارهم على الاسبان في معركة الزلاقة سنة ١٠٨٦ م. ويمتد هذا العصر من (٤٢٢ - ٤٧٩ هـ، ١٠٣١ - ١٠٨٦ م).

٤ - عصر المغاربة: وفيه تحولت الأندلس إلى ولاية تابعة للمغرب في عصري المرابطين والموحدين . وكانت عاصمتهم مدينة مراكش في جنوب المغرب. وانتهى هذا العصر بهزيمة دولة الموحدين أمام الجيوش المسيحية الأوروبية المتحالفة في موقعة العقاب سنة ٦٠٩ هـ - ١٢١٢ م ويمتد هذا العصر من (٤٧٩ - ٦١٢ هـ، ١٠٨٦ - ١٢١٤ م).

٥ - عصر مملكة غرناطة (عصر بني الأحمر): وهو آخر عهد إسلامي في الأندلس ويمتد من ١٢٣١ م إلى ١٤٩٢ م وهي السنة التي سقطت فيها غرناطة بأيدي الاسبان.

(١) للمزيد من التفاصيل انظر ر. دوزي: تاريخ مسلمي اسبانيا، ج ١، ص ١٥٤ - ١٦٧. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٦٦ - ١١٦.

لقد بقي المسلمون في بلاد الأندلس من عام ٧١١ م إلى عام ١٤٩٢ م أي حوالي (٧٨٠) عاماً . وقد استطاع المسلمون خلال هذه الفترة الطويلة أن يؤثروا ويتأثروا بالبيئة الاسبانية في الغرب وبالبيئة العربية في الشرق في كافة الأصعدة الحضارية . ولم يكن الفتح العربي لاسبانيا مجرد احتلال عسكري ، بل كان حدثاً حضارياً امتزجت خلاله الحضارات والشعوب المتعددة مع الحضارة الإسلامية ومع العرب . وأدى هذا التمازج الحضاري إلى ولادة وتبلور الحضارة الأندلسية .

وكان المسلمون قد اختلطوا بالعناصر الاسبانية والرومانية والقوطية وسواها ، ونشأ من جراء ذلك طبقة اجتماعية جديدة من « المولدين » و « المستعربين » . ومن اعتنق الدين الإسلامي من الاسبان فقد سَمُوا باسم « المسالمة »^(١) . وقد اختلطت بهذه العناصر الرقيق من الصقالبة الذين جلبوا من أوروبا منذ صغرهم ، ثم ربوا تربية عسكرية إسلامية وانخرطوا في وظائف القصر والجيش حتى صاروا قوة لها نفوذها في الدولة الأموية . وكانت هذه العناصر مجتمعة قد بدأت تتأثر بعضها ببعض الآخر في مختلف المجالات العسكرية والسياسية والثقافية . ومن الأهمية بمكان القول بأن العرب تعايشوا مع الاسبان منذ بدء الفتح ، وقد اختلطت دماء المسلمين بدماء المسيحيين بواسطة المصاهرة والزواج ، خاصة وأن أكثر القادة والجنود من المسلمين لم يصحبوا معهم زوجاتهم . ولهذا فقد أقبلوا على الزواج بعد استقرار الفتوحات من الاسبانيات . وكان أول من تزوج اسبانية عبد العزيز بن موسى بن نصير ، الذي تزوج من ابنة « اخلونا » (Egllona) أرملة لذريق آخر ملوك القوط . وقد أسلمت بعد زواجها وتكنت بأمر عاصم ، ثم أقامت مع زوجها في اشبيلية .

بالإضافة إلى ذلك فقد ظهر جيل من أولاد المسلمين الذين تزوجوا من اسبانيات . وكانت الدماء الاسبانية تجري في عروق بعض خلفاء بني أمية في

(١) انظر حول هذا الموضوع :

Lévi-Provençal; l'Espagne Musulmane, p. 32, 106;

Histoire de l'Espagne Musulmane, T. I, p. 73.

الأندلس، وفي مقدمة هؤلاء الخليفة عبد الرحمن الناصر، فقد كانت جدته الأميرة « انيجا » (Iniga) ابنة « فرتون غرسييس » (Fortun Garces) ملك بنبلونة. وقد يفسر ذلك ما ذكره المؤرخون في وصف الخليفة الناصر من أنه كان أبيض الوجه أزرق العينين^(١).

ويذكر المستشرق « ليفي بروفنسال » (Lévi Provençal) بأن الاسلام لم يحل دون إقامة علاقات ازدادت توثقاً مع الزمن بين المسيحيين والمسلمين، سواء في الداخل أو الخارج. وكانت طليطلة - عاصمة القوط القديمة - قد احتفظت بين أسوارها بعدد كبير من المسيحيين الذين رفضوا في البدء الإذعان للحكم الأموي. وأضاف بروفنسال: « غير أن العناصر غير الاسلامية من المسيحيين واليهود « تعربت » أو بعبارة أصح « تاندلست » فقد طبعتهم الحضارة الاسبانية الاسلامية العربية بطابع قوي جداً. وبالرغم من أن هذه العناصر بقيت وفية لدينها الأول (المسيحي واليهودي) غير أن الأمر انتهى بهؤلاء إلى نظام إسلامي متحرر، ارتضوا أن يعيشوا في ظلّه كرعايا لدولة إسلامية ».

وكانت البلاد الاسبانية في الوقت الذي سيطر عليها المسلمون لا تختلف كثيراً عن بقية بلدان غربي أوروبا من حيث انتشار الجهل والتقهقر العلمي والاجتماعي بسبب طول فترة النزاعات الداخلية والفتن بين المذاهب الدينية المسيحية. ومما يدل على هذه النزاعات أن بعض أمراء اسبانيا ورئيس أساقفة أشبيلية ساعدوا المسلمين على فتح اسبانيا، وما أن استقر المسلمون حتى بدأوا بتنشيط الحياة الاقتصادية والاجتماعية والعلمية، وأصبحت مدن الأندلس من أغنى وأهم المدن الأوروبية لاسيما قرطبة^(٢).

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ج ١، ص ٣٠. لطفي عبد البديع: الإسلام في اسبانيا، ص ٢٤ - ٢٥، د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، ص ١٧-١٨.

(٢) د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص ٤٩.

والحقيقة فإن الأندلسيين لم يدخروا وسعاً في تحصيل العلوم الشرقية الإسلامية، التي وفدت اليهم بواسطة العلماء المشرقيين الذين جاؤوا مع أو بعد الحملات العسكرية أو بواسطة استدعاء الخلفاء والأمراء لعلماء مشرقين إلى الأندلس. وقد بلغت الحضارة الإسلامية ذروتها في الأندلس في النصف الثاني من القرن العاشر للميلاد، بعد أن أصبحت قرطبة - حاضرة الخلافة الأموية - من أعظم مدن العالم المتحضر، وفيها ما يزيد على مائة ألف منزل ويقطنها حوالي مليون نسمة، علماً أن سكانها كانوا يتجولون في شوارعها بعد غروب الشمس في ضوء المصابيح العامة التي كان ينيرها موظفون مختصون، في حين كانت شرطة العسس (الليل) مسؤولة عن حماية الممتلكات والسكان، بينما ظلت مدينة لندن سبعة قرون بعد ذلك ولم يوجد مصباح عام واحد يضيء شوارعها. وبينما كانت صحيفة «كولونيا» (Columbia) الألمانية في عددها الصادر في ٢٨ آذار (مارس) ١٨١٩ تعتبر وتصف إضاءة الشوارع بمصابيح الغاز بأنه شر مستطير من البشر يهدد الظلام الإلهي، كانت شوارع قرطبة عام ٩٥٠ م تزدهان بشانين ألف متجر وتضاء ليلاً بمصابيح تثبت على جدران المنازل، كما مورست فيها أعمال النظافة عن طريق عربات القمامة التي تجرها الثيران. وبعد مضي قرنين من الزمن اتخذت باريس سنة ١١٨٥ م من قرطبة مثلاً وقدوة لها، فرصعت شوارعها ونظفتها، وقد نقل زوار الأندلس من الأوروبيين إعجابهم بالحضارة الأندلسية، فنقلوا مظاهرها ومعالمها إلى منازلهم وشوارعهم ومدنهم^(١).

ومما ساعد على التطور الحضاري في البلاد الأندلسية سياسة التسامح الإسلامية التي اتبعتها المسلمون تجاه العناصر غير الإسلامية من مسيحيين ويهود، فأقبل المستعربون الأسبان على تلقي العلوم وتعلم اللغة العربية، كما تتلمذ بعض من اليهود والمسيحيين على العلماء المسلمين، فأصبح المستعربون رسلاً جدداً للحضارة الإسلامية، نتيجة اتقانهم اللغتين العربية واللاتينية معاً، فاستطاعوا نقل العلوم

(١) د. سعيد عاشور: المرجع السابق، ص ٥٠ هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبا، ص ٤٩٩.

العربية والاسلامية إلى الاسبان والأوروبيين، وأصبح إقبال الغربيين على تعلم العلوم العربية من الأمور اللافتة للنظر، مما دعا الكاتب المتعصب «الفارو» (Alvaro) الذي عاش في القرن التاسع الميلادي للقول:

«إن أخواني المسيحيين يدرسون كتب فقهاء المسلمين وفلاسفتهم لا لتفنيدها بل لتعلم أسلوب عربي بليغ، واسفاه أنني لا أجد اليوم علمانياً يقبل على قراءة الكتب الدينية أو الانجيل، بل إن الشباب المسيحي الذين يمتازون بمواهبهم الفائقة أصبحوا لا يعرفون علماً ولا أدباً ولا لغة إلا العربية. ذلك أنهم يقبلون على كتب العرب في فهم وشغف، ويجمعون منها مكتبات ضخمة تكلفهم الأموال الطائلة في الوقت الذي يحتقرون الكتب المسيحية وينبذونها...»^(١).

ومما قاله ألفارو أيضاً: «... لقد نسي المسيحيون حتى لغتهم ولن تجد بين الألف منهم واحداً يستطيع كتابة خطاب باللغة اللاتينية، بينما نجد بينهم عدداً كبيراً لا يحصى يتكلم العربية بطلاقة ويقرض الشعر أحسن من العرب أنفسهم»^(٢). علماً بأن المسلمين حرصوا بدورهم على إتقان اللغة اللاتينية لا سيما لغة جيرانهم القشتاليين والأراجونيين. ويروى لسان الدين بن الخطيب بأن العالم محمد بن لب الكناني المالقي، كان يطوف بالبلاد الاسبانية. ويناقش قساوستها في أصول الديانتين الاسلامية والمسيحية. وكان العالم الغرناطي محمد الرقوتي زمن الملك الاسباني الفونسو العاشر في القرن الثالث عشر الميلادي يتقن اللاتينية، فكان يعلم المسيحيين واليهود في مدرسة مرسية. كما كان العالم الغرناطي عبد الله بن سهل في القرن الثالث عشر الميلادي يتقن اللاتينية وله شهرة واسعة في العلوم الرياضية لدرجة أن المسيحيين في شتى نواحي اسبانيا كانوا يرحلون الى داره في

(١) جروينباوم: حضارة الإسلام، ص ٨١-٨٢. انظر ايضاً: د. سعيد عاشور، المرجع السابق،

ص ٥١-٥٢، زيفريد هونكه، المرجع السابق، ص ٥٢٩.

(٢) زيفريد هونكه: المرجع السابق، ص ٥٢٩.

مدينة بياسه (Baeza) لمجادلته والاستفادة من علمه^(١).

كما استفادت اسبانيا وغربي أوروبا من الطب العربي المشرقي الذي شهد تطوراً بارزاً في المشرق. ثم انتقل بواسطة الاطباء والمؤلفات إلى الأندلس، وبرز من المسلمين داخل الأندلس الكثير من الاطباء، وكان في مقدمتهم بنو زهر، وهي العائلة التي انجبت عدداً كبيراً من الاطباء المشهورين خلال ستة أجيال متعاقبة. وبنو زهر قطنوا إشبيلية القاعدة الأندلسية الشهيرة. وأهم طبيب في بني زهر الشيخ محمد بن مروان بن زهر المتوفى سنة ١٠٣١ م عن عمر يناهز ٨٦ عاماً، ومنهم عبد الملك بن محمد ابي مروان الذي مارس الطب في القيروان في تونس وفي القاهرة، ومات في الأندلس سنة ١٠٧٨ م. وكان أبو العلاء بن زهر ثالث سلالة الاطباء الإشبيليين المتحدرين من القبيلة العربية أيتاد، وقد عاش في قصر المعتمد. أما حفيده ابو بكر محمد بن زهر، فكان أيضاً من أشهر أطباء عصره، فذاع صيته في المشرق والمغرب وقد استفادت أوروبا كثيراً من علومه الطبية. ويذكر في هذا المجال بأن الملك سانشو (Sancho) ملك ليون الذي قدم إلى قرطبة لأسباب سياسية ومثل بين يدي الأمير عبد الرحمن الثالث، طلب من الأمير بعد انتهاء مباحثاتها السماح لطبيب البلاط القرطبي بالكشف عليه وفحصه إثر مرض عضال أصابه من جراء السمّة المفرطة. وبالفعل فقد استطاع طبيب الأمير عبد الرحمن معرفة مرض سانشو ومداواته، وكان هذا الطبيب حسداي بن شبروط اليهودي.

ومن المؤثرات العلمية الإسلامية في الأندلس، انتقال علم الرياضيات إلى الغرب بواسطة المسلمين. فمن المعروف ان قرطبة لم تكن عاصمة سياسية للخلافة فحسب، بل كانت على غرار بغداد عاصمة للبحث العلمي، فعالم الرياضيات «غبررت» الذي أصبح فيما بعد البابا سلفستروس الثاني (٩٩٩ - ١٠٠٣) قضى ثلاثة أعوام (٩٦٧ - ٩٧٠ م) في الأندلس واحتك بالعلماء المسلمين واستفاد من

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والأندلس، ص ٩٩ هامش ٢. تحقيق د. أحمد مختار العبادي.

علومهم، وتعمق هناك في درس الرياضيات والفلسفة والفقهاء^(١). ولما عاد « غربت » إلى رومية كان علمه العربي الذي تعلمه في الأندلس غريباً على قومه حتى لقبوه بالساحر . ومن بين علماء الغرب الذين تعلموا اللغة العربية للإطلاع على مؤلفات العرب في الفلك والرياضة « روبرت ريتيننسيس » (Robertus Retenensis) و « هرمانوس دلماتا » (Hermanus Delmata) . واستجابة لطلب بطرس المبجل (Petrus Venerabilis) (١٠٩٤ - ١١٥٧) رئيس دير كلوني، قام هذان العالمان بترجمة القرآن الكريم إلى اللغة اللاتينية، وقد أنجزا هذه الترجمة في سنة ١١٤٣^(٢).

هذا وقد عرفت أوروبا الأرقام الهندية بواسطة العرب، لذا يقال لها في أوروبا إلى الآن « الأرقام العربية » ولفظوا الصفر كما يلفظه العرب، فأصبح في الانجليزية صفر (Cipher) وفي الألمانية تسفر (Ziffer) وفي الأفرنسية شيفر (Chiffre) وفي الإيطالية شيفرا (Cifra). كما نقل المسلمون إلى أوروبا الكسر العشري الذي استخدموه في عملياتهم الحسابية.

ومن بين علماء الرياضيات في الأندلس مسلمة المجريطي (المريدي) إمام علماء الرياضيات في الأندلس (المتوفى ٣٩٨ هـ - ١٠٠٧ م) ومن تلامذته ابن السمح (ت ١٠٣٤ م) وابن الصفاء والكرماني وأمية بن أبي الصلت. ومن العلماء المسلمين البارزين في الأندلس في علم الرياضيات والذين أثروا في أوروبا أبو الحسن علي بن محمد علي القلصادي المولود بمدينة بسطة في الأندلس (٨٢٥ هـ - ٨٩١ هـ) ومن كتبه « كشف الأسرار عن علم الغبار » وهو يعتبر أول من استعمل الرموز والإشارات الجبرية، واقتبسته أوروبا عنه^(٣).

(١) د. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، ص ٧٣.
(٢) د. جمال الدين الشيال، المرجع السابق، ص ٢٢ - ٢٣. للمزيد من التفاصيل حول التمازج الحضاري والترجمات بين المسلمين والغرب انظر المرجع نفسه، ص ١٨ - ٢٤.
(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: د. علي الدفاع: تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، ص ٢٠١...

والواقع فإن هناك الكثير من المؤثرات العلمية والطبية والفيزيائية والكيمائية العزبية في بلاد الأندلس وأوروبا . وقد أقام العرب الكثير من المراصد الفلكية في غرناطة وطليلة وقرطبة واشبيلية . ومن بين علماء الفلك والجغرافية والرياضيات في الأندلس كل من :

- مسلمة المريطي : عالم الرياضيات والعالم الجغرافي الذي قام بعمل اختصر فيه جداول البناني واستفاد كثيراً من هذا المختصر فيما بعد ، واضعوا جداول الفونس الملكية (الازياج ، التقاويم) ، ومن بين كتب المريطي : رسالة الاصطرلاب ، ثمار علم العدد ، تعديل الكواكب .

- الزرقالي : ويعرف باسم « الزرقل » عاش في النصف الثاني من القرن الحادي عشر الميلادي (تقريباً ١٠٢٩ - ١٠٨٨ م) وهو صاحب (زيج طليلة) وصانع الاصطرلاب .

- جابر بن أفلح الإشبيلي : المتوفى بين ١١٤٠ - ١١٥٠ م وهو صاحب مؤلف (الفلك) و(الهيئة أو اصلاح المجسطي) .

وهناك علماء آخرون مما لا يتسع المجال لذكرهم ومنهم ابن رشد وابن باجة والبطروجي من علماء الفلك والجغرافية والعلوم الأخرى المتنوعة ، الذين أثروا بعلومهم البلدان الأوروبية عبر الأندلس^(١) . غير أننا نستطيع ان نذكر مجموعة من هؤلاء العلماء وهم على سبيل المثال :

- في الطب : احمد بن اياس القرطبي ، ابو عبد الله محمد بن عبدون العدري القرطبي ، ابو القاسم الزهراوي ، ابن وافد ، خلف بن عباس ، ابن البيطار ، ابن زهر...^(٢) .

- في الأدب : ابن عبد ربه ، ابن زيدون ، ابن عمار ، ابن عباد ، ابن عبدون ،

(١) نفيس احد : الفكر الجغرافي في التراث الاسلامي ، ص ١٩٢ - ١٩٥ .

(٢) للمزيد من التفصيلات انظر : د . علي الدفاع : اعلام العرب والمسلمين في الطب ، ص ١٧٧ - ١٨٧ .

ابن حديس ، الفتح بن خاقان ، ابن بسام ، ابن سهل ...

- في التاريخ: عبد الملك بن حبيب ، محمد بن موسى الرزي ، ابن القوطية القرطبي ، ابن الفرضي ، ابن حيان ، الحميدي ، ابن بشكوال ، ابن الآبار ، ابن سعيد المغربي ، لسان الدين بن الخطيب ، ابن خلدون ، ابو حامد الغرناطي الأندلسي ، ابن جبير البلنسي ...

- في الجغرافية: أبو عبيد البكري ، الإدريسي ، المازني ، ابن سعيد ...

- في علوم الدين: ابن مخلد ، ابن عبد البر ، الباجي ، الشاطبي ...

- في الفلسفة: ابن مسرة ، ابن حزم ، الطرطوشي ، ابن طنيل ، ابن رشد ، ابن ميمون ، ابن عربي ، ابن سبعين ، ابن باجة ..

- في علوم اللغة: ابو علي القالي ، الزبيدي ، ابن سيده ، ابن عصفور ، ابن مالك ، ابن إدريس الفرائي ، ابو حيان .

ولا بد من الإشارة إلى أن هؤلاء العلماء لم يكتبوا بالضرورة في علم واحد ، ولهذا لا يمكن تصنيفهم في علم واحد من العلوم ، لأن الواحد منهم ، قد يكون كتب في التاريخ والجغرافية معاً ، وفي الرياضيات والطب والكيمياء ، وفي الفلسفة والسياسة والأدب . ومن يطلع على كتب التصانيف مثال : الفهرست لابن النديم وجذوة المقتبس للحميدي وتراجم علماء الأندلس لابن الزبير وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي وكتاب القضاة بقرطبة للخشي وتاريخ قضاة الأندلس للتباهي وطبقات الفقهاء لمحمد بن خالد الأندلسي وسوى ذلك من مصنفات ، يرى مئات من العلماء والأطباء والأدباء والقضاة وأهل العلم في الأندلس والمغرب والمشرق على السواء .

هذا وقد حدث نوع من المؤثرات والتمازج الحضاري بين المشرق والمغرب من خلال الأندلس يمكن دراسة بعض ملامحها ومظاهرها^(١) .

(١) للمزيد من التفاصيل حول واقع الأندلس ووصف مدنها واحوالها انظر : ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٠٤ - ١١٢ .

الفصل الثاني

التبادل الحضاري بين الشام والأندلس

الفصل الثاني

التبادل الحضاري بين الشام والأندلس

خضعت الأندلس للمسلمين في خلافة الوليد بن عبد الملك، وظلت ولاية تابعة لدمشق إلى أن استقل بها الأمير الأموي عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك (صقر قريش) مؤسس الدولة الأموية في الأندلس. وهو أول من أسس ووضع جذور الحضارة الإسلامية الشامية في الأندلس، وقد حرص منذ قيام دولته في الأندلس على تجديد ما زال من حضارة بني أمية في المشرق، وعلى نقل النظم الإدارية المعروفة في المشرق الإسلامي في العهد الأموي، وطبقها في الأندلس تطبيقاً مشابهاً وعملياً، لأن العرب الأوائل نقلوا معهم أنظمتهم وعاداتهم وتقاليدهم. ويذكر ابن القوطية في كتابه «تاريخ افتتاح الأندلس» أنه منذ عهد هشام بن عبد الملك نزل الشاميون في كور الأندلس «وتفريقهم على قرطبة، إذ كانت لا تحملهم، فانزل أهل دمشق بالبيرة، وأهل الأردن بربة، وأهل مصر بباجة، وقطيعاً منهم بتدمير»^(١).

وكان من الطبيعي أن تتأثر الدولة الناشئة بالحضارة الشامية والتقاليد والأنظمة الشامية، فالحياة الأدبية في الأندلس كانت صدى لحياة الشام الأدبية، فالشعر الأندلسي مثلاً كان شعراً كلاسيكياً يحاكي شعر الفرزدق والأخطل وجريز. ويقول المستشرق كارل بروكلمان «تاريخ الشعوب الإسلامية» بأن الشعر في الأندلس كالشعر في الشام، وأول ما دار على محور العصبية القبلية التقليدي فهو

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٤٤.

في معظمه مدح وهجاء . وفي بلاط الأمويين تفتحت - تحت تأثير الفن البغدادي -
براعم المديح المثلث بالاطراء الغريب المستهجن ، ولكن المزاج الأندلسي استطاع
أن ينفخ في قوالب الشعر البدوي العتيقة روحاً جديدة^(١) .

أما أهم شعراء الأندلس فبينهم على سبيل المثال القاضي والوالي والأمير وابناء
الامارة ومنهم: أبي الخطار بن ضرار الكلبي ، الصميل بن حاتم وعبد الرحمن
الداخل وابنه سليمان وحفيده الحكم الربضي ، والقاضي الشاعر معاوية بن طليح
الحضرمي الحمصي (قاضي حمص سابقاً وقاضي الأندلس في عهد عبد الرحمن
الداخل) وسواهم . ومما ذكره الأمير عبد الرحمن الداخل متشوقاً إلى بلاده الشام
مبدياً حنينه إليها^(٢) :

أقـر من بعضي السلام لبعضي	أيها الراكب الميمم أرضي
وفؤادي ومالكه بأرض	ان جسمي كما علمت بأرض
وطوى البين عن جفوني غمضي	قدّر البين بيننا فافترقنا
فعسى باجتماعنا سوف يقضي	قد قضى الله بالفراق علينا

ولما نقل عبد الرحمن الداخل اشجار النخيل من الشام وزرعها في الأندلس أثار
منظر النخيل في نفسه الحنين للشام مجدداً فقال شعراً بالمناسبة :

تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل	تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
وطول ابتعادي عن بني وعن اهلي	فقلت : شبيهي في التغرب والنوى
فمثلك في الاقصاء والمنتأى مثلي	نشأت بأرض انت فيها غريبة
يسخّ ويستمرى السماكين بالسوبل	سقتك غواصي المزن في المنتأى الذي

وفي الوقت الذي بدأ الشعر العربي يؤثر في البيئة الاسبانية المسيحية كانت اللغة
العربية ومصطلحاتها قد سادت الأندلس ، ولقد اندفع سكان اسبانيا وأساقفتها

(١) كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص ٣٠٠ .

(٢) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٨ - ٩ .

لدراسة العربية، وكانت كلما مرت السنون ضاعت اللغة الاسبانية بشكل اكثر - كما فصلنا سابقاً - بحيث ترجمت فيما بعد بيانات البابا وقرارات المؤتمرات والمجامع المسيحية في القرن التاسع الميلادي إلى اللغة العربية، للأسبان المسيحيين في الاندلس الذين لم يعودوا يفهمون اللاتينية.

والحقيقة أن الامير عبد الرحمن الداخل حاول أن يجعل من عاصمته قرطبة^(١) صورة من دمشق من حيث منازلها البيضاء ذات الأحواش الداخلية (Patios) وفي أشجارها وحدائقها. وكان يرسل رسلاً إلى بلاد الشام خصيصاً لجلب أشجار النخيل والفاكهة واشتال (شتلات) الأشجار المثمرة مثل التين والرمان والعنب وهي أثمار لا تزال معروفة إلى الآن في اسبانيا. وبالقرب من قرطبة زرع الأمير عبد الرحمن أول شجرة نخيل في الأندلس في حديقة قصره الذي بناه على نظام قصور أجداده في الشام لا سيما جده الخليفة هشام بن عبد الملك. وقد بنى قصوره خارج مدينة قرطبة على غرار القصور الأموية التي أنشأها هشام خارج دمشق بين تدمر ودمشق ومن قصور عبد الرحمن قصر الرصافة (La Ruzafa)^(٢). وهو قصر صيفي شمالي غربي قرطبة، وهو شبيه برصافة جده هشام الذي بناه خارج دمشق سنة ١١٠ هـ.

وأحاط عبد الرحمن قصره بأشجار النخيل والتين والرمان. كما أنشأ عبد الرحمن قصرًا آخر هو قصر دمشق، الذي اتخذ مقرأً لراحته وأفراحه، وقلد به قصور بني أمية في المشرق وكان يعرف أيضاً باسم «منية الرصافة» أي «قصر

(١) انظر وصف المقدسي لقرطبة في: احسن التقاسيم لمعرفة الاقاليم، ص ٢٣٣ - ٢٣٦. انظر أيضاً: Lévi-Provençal; l'Espagne Musulmane, p. 199.

(٢) د. احمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٢٩. د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس، ص ٢٠٧. للمزيد من التفصيلات حول العمارة العربية في اسبانيا انظر: د. الطاهر احمد مكّي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، ص ١٥-٨٨، ١١٠-١١٦، ١٥٣-١٨٥.

الرصافة». ومن أشهر فواكه هذا القصر - المنية الرمان السفري الذي ينسب إلى سفر ابن عبيد الكلاعي من جند الأردن الذي زرعه في كورة رية فأثمر واينع^(١). ونظراً للتشابه بين قصور بني أمية في المشرق وقصر الدمشق في الأندلس، فقد أحبه بنو أمية وقال ابن عمار الشاعر فيه:

كل قصر بعد الدمشق يذم فيه طاب الجنى ولذ المشم
منظر رائق وماء نير وثرى عاطر وقصر اشم

أما المسجد الجامع في قرطبة الذي أقامه عبد الرحمن الداخل عام ١٦٩ هـ، فتظهر فيه أيضاً المؤثرات الشامية الإسلامية، في زخارفه المعمارية ونظام سقفه وعقوده (البوائك) (Arcades) أو (Arqueria). وهذه العقود تزيد من ارتفاع السقف وتجعله ارتفاعاً مناسباً مع اتساع مساحة المسجد، وكذلك نجد هذا التأثير في الممر الذي يصل المسجد بقصر الأمانة وهو المعروف باسم (السباط). كما أن مئذنة مسجد قرطبة تماثل مآذن مساجد الشام لا سيما مساجد دمشق والقدس. وكان الأمير عبد الرحمن قد استعان بالبنائين والمهندسين الشاميين في بناء قصوره ومساجده ومقصوراته. وكان هذا التشابه في الفن المعماري بين الأندلس والشام ليس إلا وليد الوجود الشامي في الأندلس، ومحاولة من أمراء بني أمية الأندلسيين التشبه ببلادهم الأصلية. وهكذا طعم عبد الرحمن حضارة الأندلس بالطابع الشامي، وإليه يرجع الفضل في غرس بذور نهضة علمية زاهرة بقرطبة^(٢).

هذا وقد تمتع فن البناء العربي وفن النقوش العربية (Arabesqua) بمميزاته البسيطة وأشكاله الهندسية البديعة. وقد ظل هذا الفن على قوته يشكل ما وجد من فنون في إسبانيا والبلاد المفتوحة، ويؤثر على الفن الجرمانى والفن الأوروبي إلى عصر النهضة. وبلغ تأثير الغرب الأوروبي بالفن المعماري الإسلامى والنقوش

(١) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٠٨.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم، المرجع نفسه، ص ٢٠٩.

العربية أن تأثر المهندس الأوروبي تأثراً بالغاً بحيث أنه نقل الآيات القرآنية معجماً بخطوطها الجميلة التي رآها على جدران المساجد ، فنقلها ووضعها على جدران الكنائس دون أن يدري معانيها ، مما يشير إلى تأثر المهندس الأوروبي بهذه الفنون والخطوط التي كتبت بأسلوب فني راق وجميل^(١) . كما تأثر الغرب بالفن المعماري الإسلامي في تزيينه للسقوف والأقبية والأركان والعمد المستديرة . وقد أخذ الغرب عن العرب الأقواس المدببة العالية واطلقوا عليه اسم « الطراز القوطي » ، وانتقل هذا الطراز الإسلامي إلى أوروبا عبر المهندسين المسلمين والمسيحيين . كما ساهم في نشره كهنة اسبانيا لا سيما رئيس الدير « هوغو فون كلوني » الذي سبق له أن زار كنيسة « مونت كاسينو » سنة ١٠٨٣ م وشاهد أقواسها العالية المدببة التي بناها « دسيدرئوس » (Desiderius) بمساعدة المهندسين المسلمين ، فأعجب ببنائها وأمر بنقل طرازها إلى كلوني جنوب البرانس في الجزء المسيحي من اسبانيه . ومن الآثار المعمارية الإسلامية الخالدة في اسبانيا التي لا تزال آثارها ماثلة إلى الآن قصر الحمراء ومسجد قرطبة الذي يضم ١٤٠٠ عود من أقواس الدائرة ، وقد تحول إلى كنيسة ، ويوجد في إشبيلية « الجيرالدا » (Giralda) التي كانت برجاً لرصد النجوم والأفلاك . ويذكر الأديب والمؤرخ الرحالة أمين الريحاني الذي زار اسبانيا سنة ١٩١٧ من أن مدرسة إشبيلية أخذت الكثير عن الفن الشامي ، وأشار إلى بروز الأثر السوري في فن الرسم والتصوير والعمارة الأندلسية ، لا سيما في القصور والأبراج والأسوار . وعلى هذا فإن المؤثرات الشامية لم تنتقل إلى الأندلس فحسب ، وإنما بعد أن تطورت وتأندلت انتقلت إلى الغرب الأوروبي والممالك المسيحية .

وعلى صعيد المؤثرات الشامية والتشابه بين الشام والأندلس ، فقد تبين بأن موقع مدينتي غرناطة وقرطبة^(٢) يشبه إلى حد كبير موقع مدينتي دمشق وبغداد ،

(١) د . سعيد عاشور : المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، ص ١٩٢-١٩٣ .

(٢) للمزيد من التفاصيل حول قرطبة وحضارتها ودورها العلمي انظر : د . السيد عبد العزيز سالم : =

فدمشق تقع على الضفة اليسرى لنهر بردى ، وقرطبة تقع على الضفة اليسرى لنهر الوادي الكبير ، ويطل على دمشق جبل قاسيون ، بينما يطل على قرطبة جبل الشارات ، هذا بالإضافة إلى التشابه بين البلدين في بيوتها وأسلوب الحياة فيهما . ومن هنا قول الجغرافيين العرب بأن الأندلس « شامية في هوائها وشامية في حياتها »^(١) وبهذا يقول المقري (نفع الطيب) نقلاً عن أبي عبيد البكري واصفاً الأندلس : « الأندلس شامية في طبيعتها وهوائها ، يمنية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، اهوازية في عظم جباياتها ، صينية في معادن جواهرها ، عدنية في منافع سواحلها ، فيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة .. » ويذكر الأمير شبيب أرسلان في كتابه « الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية » . ج ١ ، نقلاً عن الشقندي : « غرناطة ، دمشق بلاد الأندلس ومسرح الأبصار ومطمح الأنفس ، ولم تخل من أشرف أمثال وعلماء اكابر وشعراء أفاضل ... وغرناطة من أحسن بلاد الأندلس وتسمى بدمشق الأندلس ، لأنها أشبه شيء بها ، ويشقها نهر حدرة ، ويطل عليها الجبل المسمى بشلير ... ونزل بها أهل دمشق لما جاءوا إلى الأندلس لأجل الشبه المذكور »^(٢) .

ويذكر الرحالة المغربي ابن بطوطة في كتابه الموسوم « تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » ج ٢ ، الذي زار الأندلس « إثر موت طاغية الروم ادفونس » كما يسميه ، فوصف مدينة مالقة ومزروعاتها بقوله : « .. فوصلنا إلى مدينة مالقة ، إحدى قواعد الأندلس وبلادها الحسان ، جامعة بين مرافق البر والبحر ، كثيرة الخيرات والفواكه ، رأيت العنب يباع في أسواقها بحساب ثمانية أرطال بدرهم صغير ، ورماتها المرسى الياقوتي لا نظير له في الدنيا . وأما التين والزيتون فيجلبان منها ومن اهوازها إلى بلاد المشرق والمغرب . وبمالقة يصنع

= تاريخ المسلمين وآثارهم في الاندلس ، ص ٢٩٢ - ٣١٥ . بالإضافة إلى أن للدكتور سالم كتاباً متخصصاً في تاريخ قرطبة تحت عنوان « قرطبة حاضرة الخلافة في الاندلس » .

(١) د . احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٢) الأمير شبيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج ١ ، ص ٢١٤ - ٢١٥ .

الفخار المذهب العجيب.. ومسجدها كبير الساحة شهير البركة.. فيه اشجار النارنج البعيدة.. ثم سافرت منها إلى مدينة بلش... بها مسجد غريب، وفيها الأعناب والفواكه والتين». ثم وصف غرناطة التي زارها في زمن السلطان ابو الحجاج يوسف « والبساتين والجنان والرياض والقصور والكروم محدقة بها من كل جهة »^(١). ويذكر لسان الدين الخطيب في معرض وصفه لمدينة مالقة زراعاتها وصناعاتها مشيراً إلى استخدام المدينة الصناعات الشامية واستخدام اليمن للصناعات المالقية مما يشير إلى التبادل التجاري بين المشرق والأندلس بقوله: «... والفواكه غير المقطوعة ولا الممنوعة، حيث الآواني تلقى لها يد الغلب، صنائع حلب، والحلل التي تلح صنعاء فيها بالطلب...»^(٢).

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس، فقد كانت في الفترة الأولى متأثرة بالحياة الدينية السائدة في الشام، فقد كان في الأندلس الكثير من فقهاء وقضاة الشام، منهم فقيه أهل الشام صالح الخضر، وشيخ العرب الشاميين القاضي مصعب ابن عمران الحمداني والقاضي معاوية بن طليح وسواهم الكثير. وقد اعتنق الأندلسيون في البدء مذهب الامام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي أمام الشام المتوفى سنة ١٥٧ هـ. وكان الامام الأوزاعي من المجاهدين المرابطين في مدينة بيروت ضد البيزنطيين. ولهذا اهتم مذهبه بالتشريعات الحربية وأحكام الحرب والجهاد. وهذه التشريعات كانت تناسب وضع الأندلسيين في الفترة الأولى من حياتهم القائمة على الحرب والجهاد. إضافة إلى انه من الطبيعي ان ينقل امراء بني

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار، ج ٢، ص ٧٦٧-٧٦٨. ومن الملاحظ ان لسان الدين بن الخطيب (٧١٣ - ٧٧٦ هـ - ١٣١٣ - ١٣٧٤ م) وزير ملوك بني الأحمر يذكر في مشاهداته في بلاد المغرب والأندلس الكثير من الزراعات والصناعات الموجودة سواء في بلاد الشام أو في الاندلس، ص ٧٦ - ٩١ وصفحات متفرقة. تحقيق د. احمد مختار العبادي.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس، ص ٧٧.

امية المذهب الديني الذي اقاموا عليه احكامهم في بلادهم الأصلية . ولهذا اعتنقوا في الأندلس مذهب الامام الأوزاعي الذي كان في الوقت نفسه مذهب اهل الشام . ويذكر ابن حزم بأن أول من نقل مذهب الإمام الأوزاعي إلى الأندلس هو الفقيه صعصعة بن سلام الشامي سنة ١٥٠ هـ^(١) . ويذكر الحميدي في كتابه « جذوة المقتبس » بهذا الخصوص قوله : « صعصعة بن سلام اندلسي فقيه من أصحاب الأوزاعي ، وهو أول من أدخل الأندلس مذهب الأوزاعي ، مات سنة اثنين وتسعين ومائة ... أن صعصعة بن سلام دمشقي .. قدم مصر وروى عن الأوزاعي . ويروى عنه من اهل مصر فيما علمت موسى بن ربيعة الجمحي .. » ، ويضيف الحميدي في موقع آخر بأن الفقيه الأندلسي زهير بن مالك البلوي أبو كنانة كان « يفتي بقول الأوزاعي » وكان معاصراً لعبد الملك بن حبيب السلمي ، وقد مات زهير قبل سنة ٢٥٠ هـ ، بعد موت عبد الملك .

وشهدت الأندلس الكثير من الفقهاء الشاميين والأندلسيين الذين رحلوا إلى الشام ، منهم ابو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المتوفى سنة ٢٨٦ هـ ، مولى عبد الرحمن بن معاوية ، وكان من الرواة المكثرين والأئمة المشهورين ، رحل إلى المشرق وطوّف البلاد في طلب العلم . ومن الذين قصدهم عبد الرحمن بن ابراهيم قاضي دمشق المعروف بدحيم . كما رحل إلى المغرب والمدينة المنورة ، وقصد الكثير من العلماء ، ولما عاد إلى الأندلس حدث فيها وأصبح له تلامذة كثر^(٢) .

كما شهدت الأندلس الكثير من الأدباء القادمين من الشام والمشرق ، وكان الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم شغوفاً بالبيان مؤثراً لأهل الأدب ، وقد قرّب إليه الأدباء والشعراء ومنهم أدباء الشام . وكان أبو اليسر الشاعر المعروف بالرياضي قد وصل من الشام قاصداً الأندلس ، حيث أُلّف فيها كتاباً على لسان ابن الشيخ في الشام ، وأقام فترة في بلاط ابن الحكم الذي أكرمه . ثم توجه الرياضي

(١) د . أحمد مختار العبادي : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٣٠ .

(٢) الحميدي ، المصدر السابق ، ص ٩٣ - ٩٤ .

بعد ذلك إلى مصر ناقلاً معه أيضاً ملامح من الحضارة الأندلسية. وقد شهدت الفترة وفود جماعات من العلماء من الشام إلى الأندلس لنشر العلم والدين، كما ذهب الأندلسيون إلى المشرق للتعلم والتزود.

وكان الحكم بن عبد الرحمن الثالث الملقب بالمستنصر بالله « جامعاً للعلوم محباً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان... ».

ويذكر انه بعد وفاة وغياب الرعيل الأول لا سيما عبد الرحمن الداخل المتوفى ١٧٢ هـ - ٧٨٨ م (وهو في الستين من عمره)، تبين بأن المؤثرات الشامية بدأت تقلص في الأندلس، لا سيما وأن الأجيال الطالعة الجديدة لم يسبق لها أن رأت الشام أو ارتبطت بها كما ارتبط بها الجيل الأول. وزاد من تقلص المؤثرات الشامية في الأندلس الصراع بين أبناء عبد الرحمن لا سيما بين ابنه الأكبر سليمان وابنه الأوسط هشام. فقد كان سليمان شامياً ومن مواليد الشام، وعينه والده حاكماً على طليطلة (Toledo)، بينما كان هشام اسبانياً ومن جارية اسبانية، كما نشأ في تلك البيئة الأسبانية، وعينه والده حاكماً على مدينة ماردة (Merida)، وبينما كان سليمان يمثل الحزب الشامي، كان هشام يمثل الحزب الأندلسي^(١). وقد جرت معارك بين الأخوين انتهت بانتصار هشام وهزيمة سليمان الذي نفي إلى المغرب سنة ١٧٤ هـ. وكان معنى ذلك هزيمة الحزب الشامي. غير أنه بالرغم من هذا الواقع، إلا أن الخليفة هشام استمر معتمداً على الشاميين بصورة أساسية، ولما أراد محاربة البربر، ارسل لقتالهم (٢٧) ألفاً من الشاميين وانضم إليهم ثلاثة آلاف من المصريين.

ويذكر بأن الأجيال اللاحقة من الشاميين تأقلمت بالبيئة الأندلسية، وزاد من بعدها عن المؤثرات الشامية الخلافات بين الحكام المسلمين العباسيين وبين أباطرة القسطنطينية، واضطراب الأوضاع في المشرق. ويذكر ليفي بروفنسال في كتابه

(١) د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣١.

(Islam D'occlident) مصوراً هذا الواقع بقوله: « وقد ساعد الزمان وبعد المكان على زيادة العداء المعهود بين الأمويين بإسبانيا، وبين خلفاء بغداد، بحيث بدأ الشام يفقد في نظرهم صفة « الفردوس المفقود » بعد أن صاروا يحكمون أرضاً لها المميزات نفسها والثراء والخصوبة والطبيعة التي لا تقل عن الشام تنوعاً وانسجاماً... ».

الفصل الثالث

التبادل الحضاري بين العراق والأندلس

الفصل الثالث

التبادل الحضاري بين العراق والأندلس

بدأت المؤثرات العراقية في الأندلس تظهر بوضوح منذ أيام الخليفة العباسي ابو جعفر المنصور الذي أسس مدينة بغداد سنة ١٤٥ - ١٤٩ هـ ، وجعلها عاصمة لدولته ومقرّاً لخلافته ، وأصبحت بغداد مدينة حضارية عالمية امتزجت فيها مختلف الثقافات وسكنتها عناصر من مختلف الأجناس والأقوام كالفرس والهنود والروم والصينيين . وكانت هذه العناصر قد بدأت بالمساهمة في إيجاد حضارة متمازجة ، فساهمت في الترجمات والمؤلفات والعلوم الفارسية والهندية والسريانية والأغريقية والمصرية ، فجرى تعريب أحكام سقراط وأفلاطون وأرسطو ، كما ترجمت من العربية إلى اللاتينية الكثير من المؤلفات العلمية وتم تعريب كتب الرياضيات اليونانية وتصحيحها والإضافة إليها وتعريب القصص الهندية والفارسية مثال : قصة السندباد الهندية ، وكليلة ودمنة (من الهندية إلى الفارسية) الذي ترجمه ابن المقفع من الفارسية إلى العربية في زمن ابي جعفر المنصور . وتم تعريب كتاب « هزار افسانه » أي « ألف خرافة » وهو المعروف باسم ألف ليلة وليلة^(١) . . . وقد أشار المقدسي واصفاً العراق بقوله : « هذا اقليم الظرفا ، ومنبع العلم ، لطيف الما ، عجيب الهوا ، ومختار الخلفا ، اخرج أبا حنيفة فقيه الفقها ، وسفيان سيد القرا ، ومنه كان أبو عبيدة ، والفرا ، وابو عمر صاحب المقرأ . . . »^(٢) .

(١) د . احد مختار العبادي : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٣٦ . د . سعيد عاشور : المدنية

الاسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، ص ٥٢ .

(٢) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، ص ١١٣ .

وقد ارتبط هذا التطور العلمي بتطور صناعة الورق وتجليد الكتب ونسخها وتصحيحها مما ساعد على انتشار الحضارة العراقية المتمازجة والمتفاعلة مع سواها من الحضارات. وقد أصبحت بغداد - كما قيل - كعبة علمية يحج إليها طلاب العلم من مختلف مناطق العالم الإسلامي، وكانت الأندلس إحدى مناطق هذا العالم، فشهد العراق موجات أندلسية لتلقي العلم والفقه والمعرفة. وقد أثر الأمير عبد الرحمن الثاني (الأوسط) (٢٠٧ - ٢٣٨ هـ) الابتعاد عن سياسة من سبقه من الأمراء الأمويين، وهي السياسة القائمة على الابتعاد عن العراق، فبدأ بالأخذ من الحضارة العراقية، ثم بدأ نفسه بتقليد الخليفة العباسي في مظهره وملبسه، كما فتح أبواب الأندلس للتجار العراقيين، فامتلأت أسواق الأندلس بالبضاعة والصناعات العراقية.

ولقد استمر هذا التقليد إلى عهد عبد الرحمن الثالث، الذي رغم معارضته لدعوة الفاطميين في المشرق، غير أنه خلع على نفسه تبعاً للتقليد المشرقي والعراقي لقب «الناصر لدين الله». كما اقتدى بخلفاء بني العباس، فانشأ جيشاً من الأجانب، وبينما اعتمد خلفاء بغداد في انشاء جيوشهم على العناصر التركية، نجد الأمويين في الأندلس يعتمدون على الصقالبة السلاف.

وفي عهد عبد الرحمن الثاني شهدت قرطبة مؤثرات فنية وأدبية عراقية، ومما ساعد على ذلك ان الأمير عبد الرحمن كان محباً للعلم والعلماء فأحسن استقبالهم وأكرم ضيافتهم وقد نقل علماء وفقهاء العراق معهم الكثير من المؤثرات الأدبية والعلمية العراقية، اختلطت بالمؤثرات الشامية والحجازية والمصرية. ومن قضاته المقربين سعيد بن محمد بن بشير، ومحمد بن شراحيل المعافري، وأبو عمر بن بشير، وفرج بن كنانة الشذوني، ويحيى بن معمر اللاهمني الاشبيلي، وكان أخص الناس بعبد الرحمن من أهل الأدب عبيد الله بن قرلمان بن بدر الداخلى^(١). ويذكر صاحب أخبار مجموعة بأن عبد الرحمن «كان له حظ من أدب وفقه وحفظ للقرآن

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٧٥.

ورواية للحديث...»^(١) وحكى بعض نقلة الأخبار انه لم يصل احد إلى روايته « مشافهته ». غير أنه أصبح فيما بعد متأثراً ببعض الأمراء في المشرق والأندلس، فقليل بأنه أمر مرة لجارية من جواريه بعقد ثمنه عشرة آلاف دينار، وعمل عبد الرحمن الثاني على اقتناء الكتب النادرة، فأرسل العلماء الأندلسيين إلى العراق وبعض بلدان المشرق لهذه الغاية، وبين مبعوثيه عباس بن ناصح الجزيري، الذي أتاه بكتاب « السند هند ». واعتبر عباس بن ناصح أول من أدخل هذا الكتاب إلى الأندلس وعرف أهلها به. ومن فقهاء الموصل الذين وصلوا إلى إشبيلية ابراهيم بن بكر الموصلي الذي حدث بها عن أبي الفتح محمد بن الحسين بن احمد بن الحسين الأزدي الموصلي بكتابه « الضعفاء والمتروكين » وأصبح له تلامذة كثر من الفقهاء منهم اسماعيل بن عبد الرحمن بن علي المعروف باسم أبي محمد القرشي العامري المتوفى بعد سنة ٤٠٠ هـ. وسواه، كما أن بني حجاج بإشبيلية تأثروا بالمؤثرات العراقية، فقد استضاف الامير ابراهيم بن حجاج العالم النحوي أبو محمد العذري البغدادي والمغنية البغدادية قمر اضافة الى العالم العذوي الحجازي.

وكان الحكم الثاني (المستنصر بالله) محباً أيضاً للعلوم متأثراً بعلماء بغداد، فقد طلب كتاب الأغاني لأبي فرج الأصفهاني ودفع فيه ألف دينار. فأرسل إليه أبو الفرج نسخة مخطوطة من الكتاب قبل نشره في بغداد. كما طلب الحكم من أبي الفرج تأليف كتاب عن سلالة الأمويين، فألف له كتاباً في أنساب بني أمية.

أما المنصور بن أبي عامر، فقد استقدم بدوره من بغداد الشاعر سعيد البغدادي وعهد إليه بالكتابة عن جامع الزاهرة. كما ان اللغوي الأديب أبو العلاء صاعد بن الحسن الربيعي - الذي جاء من الموصل منذ أيام هشام بن الحكم - أقام في بلاط المنصور بن أبي عامر في حوالي سنة ٣٨٠ هـ. وكان عالماً باللغة والآداب والأخبار والشعر. وقد ألف للمنصور كتاب « الفصوص » على نحو كتاب

(١) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الاندلس، وذكر أمرائها، ص ١٢٢.

« النواذر » لأبي عالي القالي، كما أُلّف له عدة كتب أخرى .

ومن وصل الأندلس وحدث فيها أبو الفتوح ثابت بن محمد بن الجرجاني العدوي الذي قدم الأندلس سنة ٤٠٦ هـ ، وهو إلى كونه قائداً عسكرياً عند غزو المسلمين لسردينية، فهو أيضاً « كان أماماً في العربية متمكناً في علم الأدب، مذكوراً في التقدم في علم المنطق . دخل بغداد وأقام فيها في الطلب، وأمل بالأندلس في شرح كتاب « الجمل » لأبي القاسم عبد الرحمن بن اسحاق الزجاجي . ومن فقهاء الأندلس الذين رحلوا إلى العراق طلباً للعلم والتزود . عبد الله بن محمد بن محمد بن عبد المؤمن الفقيه الأندلسي الذي رحل إلى العراق وسمع على فقهاء منهم: ابن داسة واحد بن مالك ومحمد بن عثمان بن ثابت الصيدلاني وسواهم . وقد عاد إلى الأندلس وحدث فيها . ومن فقهاء الأندلس الذين توجهوا للعراق عبد الله بن محمد بن قاسم القلعي الذي عاد إلى الأندلس وحدث فيها^(١) . كما وصل من العراق إلى قرطبة العالم الفقيه علي بن سعيد بن حزم بن غالب (٣٨٤ - ٤٥٠ هـ) الذي نظم شعراً عن علمه وعن حنينه للعراق بقوله: ^(٢)

أنا الشمس في جو العلوم منيرة	ولكن عيي ان مطلعني الغرب
ولو انني من جانب الشرق طالع	لجد على ما ضاع من ذكرى النهب
ولي نحو اكتاف العراق صباية	ولا غروان يستوحش الصب
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم	فحينئذ يبدو التأسف والكرب

أما فيما يختص بالحياة الدينية في الأندلس^(٣)، فقد تأثرت في بعض فتراتها بالمؤثرات الدينية السائدة في العراق . فبالرغم من ان البعض يعتبر أن انتشار المذهب المالكي في الأندلس هو من المؤثرات الحجازية، غير أن المذهب المالكي

(١) الحميدي، المصدر السابق، ص ١٨٤ - ٢٤٠ .

(٢) الحميدي، المصدر السابق، ص ٣١٩ - ٣١٠ .

(٣) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص ٦٧ - ٦٨ ، ٩١ - ٩٢ .

الذي انتشر في العراق أيضاً ، نقله بعض الفقهاء إلى الأندلس عبر العراق وليس عبر الحجاز والمدينة فحسب . ومن فقهاء ورواة الحديث الأندلسيين الذين زاروا بغداد ونقلوا معهم مذهب الامام مالك ، الفقهاء : يحيى بن يحيى الليثي ، وفرغوس ابن العباس ، وسعيد بن أبي هند ، وعيسى بن دينار ، وسواهم . . . ، وقد نقل هؤلاء بعد عودتهم فضل مالك وسعة علمه وجلال قدره علماً أن بعض فقهاء الأندلس زاروا العراق ودرسوا وأطلعوا على مذهب الإمام حنبل والمذهب الحنفي مذهب العباسيين في بغداد ، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً في الأندلس بسبب الخلافات بين الأمويين والعباسيين . ومن الذين زاروا العراق أبو عبد الله محمد بن الملك بن أيمن بن فرج (المتوفى ٣٣٠ هـ) الذي رحل إلى العراق ، وكما يقول الحميدي « جذوة المقتبس » وسمع بها أبا عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل وطبقته ، وحدث بالمشرق والأندلس وصنف السنن » ومنهم أبو عبد الله محمد بن عبد السلام ابن ثعلبة بن الحسن بن كليب الخشني (المتوفى ٢٨٦ هـ) الذي عاد من العراق وبلاد المشرق إلى الأندلس ، وحدث زمناً طويلاً وانتشر علمه ، ومن شيوخه الذين سمع منهم بالمشرق محمد بن يحيى بن أبي عمر العدني ، ومحمد بن المثنى ، ومحمد بن بشار بن دار وسلمة بن شيب ، وأبو إبراهيم اسماعيل بن يحيى المزني صاحب الشافعي ومحمد بن المغيرة ومحمد بن وهب . وقال الحميدي : « قال لي بعض المشايخ : انه سمع الإمام أبا عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل . . . » ، ومن رحل إلى العراق طلباً للعلم والتفقه أبو عبد الله محمد بن مطرف وهو فقيه فاضل ومشهور .

ومن العراقيين الذين وصلوا الأندلس ، الرحالة التاجر الموصلي ابن حوقل الذي زار الأندلس ومدنها ، ووصفها لنا في كتابه « صورة الأرض » معتبراً ان بعض مدنها وصناعاتها مشابهة للمدن والصناعات العراقية ، ومما قاله عن مدينة قرطبة : « أعظم مدينة بالأندلس قرطبة ، وليس بجميع المغرب لها شبيه ، ولا بالجزيرة والشام ومصر ما يدانيها في كثرة أهل ، وسعة رقعة وفسحة أسواق ، ونظافة مجال ، وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق . ويزعم قوم من سافرتها الواصلين إلى مدينة السلام انها كأحد جانبي بغداد . . . وقرطبة وإن لم تك كأحد

جاني بغداد فهي قريبة من ذلك ولاحقة به ..» ، وحول بعض الصناعات الأندلسية المماثلة للصناعات العراقية قال ابن حوقل : « .. ويعمل عندهم من الخز السكب والسفيق ما يزيد ما استعمل منه للسلطان على ما بالعراق ، ويكون منه المشمع فيمنع المطر أن يصل إلى لابس^(١) » . وتشير المصادر إلى أن عهد عبدالرحمن الثالث (الناصر لدين الله) قد حفل بالمؤثرات الصناعية العراقية ، كما استجلب من العراق التحف الفنية والحلي والجواهر .

أما من الناحية الفنية ، فقد اشتهرت بغداد بالموسيقى والغناء ، ووفد منها إلى الأندلس الكثير من المغنيات . وبدأت الموسيقى العراقية تنتشر في مدن ومناطق الأندلس ، بالإضافة إلى الموسيقى المدنية . وفي أوائل عهد الأمير عبد الرحمن الثاني وصل إلى قرطبة مغن عراقي كردي فارسي الأصل اسمه زرياب (أبو الحسن علي ابن نافع) (زرياب طائر أسود حسن التغريد) . وكان زرياب أسود اللون حسن الصوت ، وهو تلميذ للموسيقى العراقي الكبير اسحق الموصلي . وقد ترك زرياب العراق في عهد الخليفة هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣ هـ) مضطراً بعد خلاف مع أستاذه . واستغرقت رحلة زرياب إلى الأندلس ثلاث عشرة سنة أي من سنة ١٩٣ إلى ٢٠٧ هـ^(٢) .

هذا ونقل زرياب إلى الأندلس المقومات الموسيقية العراقية ، وطغى بذلك على مدرسة الحجاز الموسيقية ، وقد علّم الأندلسيين طرقاً موسيقية جديدة في كيفية التأليف والأداء وكيفية الإبتداء والإنتهاء ، وجعل المضرب من قوادم النسر بدلاً من الخشب مما ساعد على نقاء الصوت ، وأضاف وترّاً خامساً للمعود . وبما ذكره الحميدي عن زرياب وموقعه في الأندلس : « وزرياب عندهم كان يجري مجرى الموصلي في الغناء . وله طرائق أخذت عنه وأصوات استفيدت منه ، وألفت الكتب بها ، وعلا عند الملوك بضاعته وإحسانه فيها علواً مفرطاً ، وشهر شهرة ضرب بها

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١٠٧ - ١٠٩ .

(٢) د . احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٣٧ - ٣٨ .

المثل في ذلك». ونظراً لأهمية زرياب الفنية فقد ألف أبو الحسن أسلم بن أحمد بن السعيد كتاباً هاماً في أغاني زرياب وقيل فيه: «وأسلم هذا من بيت جليل وهو صاحب الكتاب المشهور في أغاني زرياب» وأصبح زرياب في الأندلس والمشرق مضرب الأمثال، فلما استمع ابن عبد ربه صاحب «العقد الفريد» الى صوت جميل يغني قال شعراً: (١).

يا من يضمن بصوت الطائر الغرد ما كنت احسب هذا البخل في احد
لو كان زرياب حياً ثم اسمعه لذاب من حسد أو مات من كمد
والأمر اللافت للنظر ان موسيقى زرياب لا يزال أثرها ماثلاً الى الآن في
الموسيقى الاسبانية والمغربية والجزائرية والتونسية والليبية. وقد بلغ اهتمام الأمير
عبد الرحمن الثاني بموسيقى زرياب أن أنشأ له خصيصاً مدرسة لتعليم فن الموسيقى
والغناء واستخدام الآلات الموسيقية. وكان الطلبة الأندلسيون في مدرسة زرياب
يعزفون بإتقان على العود والقيثار (القيثارة). ثم قاد العرب الغرب الى الموسيقى
متعددة الأصوات (المهارموني) بالعزف على أكثر من وتر. ثم ازدادت الموسيقى
العربية انتشاراً بواسطة المستعربين والنساء الأندلسيات والمغنين الرحالة
(التروبادور) (Troubadours)، وبدأ أثرها يظهر بوضوح في الموسيقى اللاتينية
لا سيما في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وهناك رأي يشير إلى أن كلمة
«تروبادور» ذاتها المستعملة في الأسبانية مشتقة من الكلمتين العربيتين «دور
طرب». والتروبادور «في الأصل نظام غنائي شعري على النسق العربي، وضعه
الشاعر الغنائي العربي ابن قزمان الذي أصبح شاعر البلاط الكبير في بطليوس، ثم
قسا عليه الدهر، فأصبح مغنياً متجولاً يصحب قرداً ويسير في الشوارع يستجدي
الناس. كما انتقل فن الغناء العربي في الأندلس الى صقلية بواسطة الملك ولیم التاسع
وفريدريك الثاني، حيث وجدت في بلاطهما الكثير من المغنيات والشاعرات
الأندلسيات. أضف الى ذلك أن فريدريك نفسه كان قد تزوج من اميرة اسبانية

(١) انظر: الحميدي، المصدر السابق، ص ١٠١ - ١٠٢، ١٤٦.

من ارغون، وقد نقلت معها وصيقاتها وفرسانها الذين نقلوا معهم مميزات الحضارة الأندلسية.

والواقع فإن أثر زرياب وزوجته وبناته لم يقتصر على الموسيقى والغناء، وإنما كان أثرهم واضحاً أيضاً في الحياة الاجتماعية الأندلسية. فقد قامت عائلة زرياب بتعليم الأندلسيات أسلوب تنظيم المظهر الخارجي للنساء وكيفية ترتيب الألبسة، والأوقات المناسبة لارتداء أنواع منها، أو ارتداء ألبسة وفق الألوان والأشكال في فصول معينة من السنة وفي وقت معين من اليوم. وقد عرفت هذه المراسم واللباقات (التيكيت) باسم «مراسم زرياب». من جهة ثانية فقد نظم زرياب أسلوب تقديم الأطعمة وعمل على إضافة مأكولات جديدة نقلها من العراق، كما أدخل إلى الأندلس أنواعاً من الخضراوات لم تكن شائعة فيها وحرص هو وعائلته على تعليم الفتيات والوصيفات الأندلسيات أسلوب الجلوس على طاولة الطعام وتراتبية تقديم الأطعمة... واقتداء بزوجه وبناته تعلمت النساء أناقة الملبس فأصبحن يلبسن الثياب فاتحة الألوان في الربيع، والملابس البيضاء في الصيف والمعاطف والقبعات من الفرو في الشتاء. وفيما بعد شوهد الأسبان المسيحيون يلبسون الزي العربي الأنقى. وكان عبد الله بن قاسم أسقف إشبيلية ومطران طليطلة والوليد قاضي المسيحيين في قرطبة لا يحملان أسماء عربية فحسب، ولكن يلبسان الزي العربي ويتلوان كسواهما من المسيحيين الإنجيل باللغة العربية. وكان الأسقف يوحنا هو الذي قام بترجمة الإنجيل إلى العربية.

ويذكر بأن عبد الرحمن الثاني قد أعجب بالأزياء العراقية، فبدأ يلبس الثوب العراقي والغفارة العراقية (كوفية وغطاء للرأس)^(١). كما يشار إلى أن منصب الوزير استحدث في الأندلس تأثراً بالأنظمة العباسية في العراق. وكان عبد الرحمن هو أول من رتب مسألة مجيء ودخول الوزراء إلى القصر والتكلم في الرأي حسب ما هو معمول به في بغداد «وكان له وزراء لم يكن للخلفاء قبله ولا بعده

(١) ابن القوطية: المصدر السابق، ص ٧٦.

مثلهم». ويذكر ابن القوطية بأن زرياب حل من عبد الرحمن بن الحكم بكل محل، وكان أهلاً لذلك في أدبه وروايته وتقدمه في الصناعة التي كانت بيده. ومن إخباره أنه غناه يوماً صوتاً استحسنته فقال: «يؤمر الخزان أن يدفعوا إليه ثلاثين ألف دينار فأتاهم صاحب الرسائل بالعهد... فقال لصاحب الرسائل: نحن وإن كنا خزّان الأمير، - أبقاه الله - فنحن خزّان المسلمين، نجبي أموالهم وننفقها في مصالحهم، لا والله ما ينفذ هذا، ولا منّا من يرضى أن يرى هذا في صحيفته غداً، أن نأخذ ثلاثين ألفاً من أموال المسلمين وندفعها إلى مغن في صوت غناه. يدفع إليه الأمير - أبقاه الله - ذلك مما عنده، فأنصرف صاحب الرسائل وأعلم الأمير بما قاله له الخزان. فتعجب زرياب من عدم الطاعة. فقال عبد الرحمن: «هذه الطاعة. ولأولينهم الوزارة على هذا الأمر، وصدقوا فيما قالوا، ثم أمر بدفعه إلى زرياب مما عنده»^(١).

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الاندلس، ص ٨٣ - ٨٤.

الفصل الرابع

التبادل الحضاري بين الحجاز والأندلس

الفصل الرابع

التبادل الحضاري بين الحجاز والأندلس

كان الحجاز في القرن الثاني الهجري مركزاً ثقافياً للعلوم الدينية والفنية والموسيقية، ويكفي الاطلاع على كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني لتكوين فكرة حقيقية عن مدى الإزدهار الفني الذي بلغته مكة والمدينة في تلك الفترة. ففيها ظهرت المدارس الموسيقية الأولى في الإسلام، ثم انتقلت مؤثراتها وخصائصها إلى الأندلس بواسطة المغنين والمغنيات والجواري، الذين نقلوا أيضاً العادات والتقاليد الحجازية.

ومن بين مغنيات المدينة التي وفدت إلى الأندلس «عجفاء» التي أثارت إعجاب الأندلسيين بغنائها في عهد هشام، والثنائي الغنائي علون وزرقون اللذين وفدا في عهد هشام أيضاً. وقد بنى الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام قصرًا خاصًا للمغنيات أطلق عليه اسم «دار المدنيات» نسبة إلى المدينة. وكان بعض الفتيات القادمات من الحجاز لا تهتم إلا بقراءة القرآن الكريم، ونشد المدايح والموشحات الدينية والشعر المتزن الملتزم. وقد ذكر الحميدي بأن رجلاً مشرقياً يدعى الشيباني دعا مرة قاضي قرطبة محمد بن اسحق بن السليم (أبو بكر) وقال له: «عندي جارية مدنية لم يسمع بأطيب من صوتها، فإن أذنت اسمعتك عشرًا من كتاب الله عز وجل وأبياتًا. فقال: إفعل، وأمر الجارية، فقرأت ثم أنشدت، فأستحسن ذلك القاضي وعجب منه».

أما من الناحية الدينية^(١)، فقد ظهر أثر المدينة المنورة واضحاً في الأندلس،

(١) انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٦، ٢٨٤.

ومن بين المؤثرات الهامة دخول مذهب الإمام مالك بن أنس إلى الأندلس. والإمام مالك عاش في المدينة وتوفي فيها سنة ١٧٩ هـ. وألّف كتاباً في الفقه والحديث معاً أسماه «الموطأ» (أي السهل الواضح)، وقد ذاعت اجتهاداته في مختلف الأمصار الإسلامية. وانتشر مذهبه في الأندلس في عهد الأمير هشام، وكان أول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمن بن زياد اللخمي المعروف باسم «شبطون» المتوفى سنة ١٩٣ هـ. ومما ساعد على انتشار هذا المذهب في الأندلس الخلافات السياسية بين العباسيين اتباع المذهب الحنفي وبين الأمويين الذين اعتنقوا المذهب المالكي - بعد أن تخلّوا عن مذهب الإمام الأوزاعي - لأن الإمام مالك كان معادياً للحكم العباسي. وقد ساعد الفقهاء الأندلسيين على نقل مذهبه إلى الأندلس بعد أن قاموا بزيارات علمية إلى المدينة وبلدان المشرق الإسلامي. ولعل وجود عناصر عسكرية كثيرة من الحجازيين من الذين وصلوا الأندلس بقيادة موسى بن نصير، ثم وجود تشابه في طبيعة الحجازيين والأندلسيين وبساطة حياتهم، كانت من جملة الأسباب التي أدت إلى انتشار واعتناق الأندلسيين للمذهب المالكي.

ويذكر ابن القوطية، أنه في أيام عبد الرحمن بن معاوية دخل «الغازي بن قيس» الأندلس بالموطأ عن مالك بن أنس - رحمه الله - وبقراءة نافع بن أبي نعيم. وفي أيامه دخل أبو موسى الهواري عالم الأندلس، وكان قد جمع علم العرب إلى علم الدين، وكانت رحلتها من المشرق إلى الأندلس بعد دخول عبد الرحمن بن معاوية إليها. وأضاف ابن القوطية، بأن زياد بن عبد الرحمن اللخمي رحل إلى المدينة المنورة واجتمع هناك بالإمام مالك بن أنس الذي سأله عن هشام، فأخبره عن مذهبهم وحسن سيرته فقال مالك: «ليت الله زَيْنَ سَمْتًا بمثل هذا». ومن اجتمع بمالك القاضي الأندلس في عهد هشام القاضي محمد بن بشير الذي رحل إلى المشرق وحج البيت، «وسمع من مالك بن أنس سماعاً يسيراً»^(١).

(١) ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص ٥٦، ٦٢، ٦٤.

هذا وقد حل المذهب المالكي محل مذهب الإمام الأوزاعي باستثناء بعض المسائل التي تمسك بها الأندلسيون كإجازة غرس الأشجار في صحون المساجد . وفي عهد « المرابطين » في القرن الثاني عشر الميلادي ، انتشر المذهب المالكي في دولتهم . وكان انتشاره في المغرب الإسلامي (شمال إفريقيا) منذ القرن التاسع الميلادي ، بينما كان عام ٤٤٠ هـ - ١٠٤٨ م هو عام الانتصار الكامل للمذهب المالكي في المغرب . وكانت وحدة المذهب التي حظي بها الفقهاء المغاربة في جميع أنحاء البلاد قد أضفى على ممارساتهم وحدة في الأحكام والأعمال . ويقول المؤرخ عبد الرحمن المراكشي في هذا المجال « لم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع ، أعني فروع مذهب مالك ، فنفعت في ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها... » ، على أن عصر المرابطين شهد في زمن علي بن يوسف تاشفين حادثة مؤسفة تدل على أن فقهاء دولته لم يعد يهمهم سوى اعتناق آرائهم ونبذ ما يناقضهم . ففي عام ٥٠٣ هـ - ١١٠٩ م وبأمر من علي بن يوسف تاشفين قام نفر بإحراق مؤلفات الغزالي المشهورة « أحياء علوم الدين » التي أثارت حفيظة ونقمة فقهاء المغرب ، لأنها فضحت نزعات الفقهاء في دراساتهم الفقهية وحرصهم على الدنيا ، وطمعهم في الحصول على المناصب الرفيعة وحسدتهم للعلماء الزهاد .

من جهة أخرى فقد ظهرت في الأندلس مؤثرات مشرقية دينية أخرى ، ففي طليطلة ظهر مذهب الخوارج . وقال ابن القوطية انه « ظهرت بالجزيرة خارجية تشبه مذاهبهم مذاهب الخوارج أيام ثورتهم على علي ومعاوية رضي الله عنهما ، ومن بعدها . فكتب عباس بن ناصح إلى الحكم شعراً يغري بهم ويحض على إنكار ما أحدثوه... »^(١) وبالفعل فقد أجهز الحكم بن هشام عليهم وأعمل بهم السيف والقتل . ثم عمد الحكم إلى تقريب الفقهاء المالكيين وفي مقدمتهم طالوت بن عبد الجبار المعافري « وهو أحد من روى عن مالك ونظرائه من أهل العلم » .

(١) ابن القوطية : المصدر السابق ، ص ٦٧ .

ومن الملاحظ أن الأثر الحجازي واضح في الأندلس أكثر من بقية المؤثرات، وذلك نظراً لكثرة الفقهاء والتلامذة الأندلسيين الذين وفدوا إلى مكة والمدينة، وانتقال الفقهاء الحجازيين إلى الأندلس أيضاً. ومن الفقهاء المكيين الذين دخلوا الأندلس حاملاً معه المؤثرات المكية والمشرقية محمد بن عبد الواحد بن الزبير الزبيري المولود في مكة سنة ٣٥٧ هـ. وقد مر ببغداد والشام ومصر وسمع بها، ثم دخل الأندلس وحدث بها. ومن الفقهاء الأندلسيين الذين وفدوا إلى الحجاز والمشرق ثم عادوا إلى الأندلس وحدثوا فيها: أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن اسد الجهني البزاز الذي تفقه في الأندلس ثم رحل إلى المشرق وسمع الفقه على بعض الفقهاء مثال: أبو بكر أحمد بن محمد بن أبي الموت المكي، وأحمد بن محمد بن اشتة الأصبهاني صاحب كتاب (المحبر) في القراءات. ومن الفقهاء الأندلسيين الذين رحلوا إلى الحجاز والعراق عبد الله بن إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن جعفر الأموي وهو من كبار أصحاب الحديث والفقه، وقد سمع على فقهاء المشرق، ثم عاد إلى الأندلس محدثاً. كما أن الفقيه أبا محمد عبد الله بن الوليد بن سعد بن بكر الأنصاري وهو فقيه محدث زاهد، قد وصل من الأندلس إلى مكة قبل سنة ٣٨٠ هـ، وسمع فيها كثيراً، وأقام فيها مدة ثم انتقل إلى مصر وبيت المقدس حيث توفي فيه. ومنهم الفقيه الأندلسي عبد الملك بن زيادة الله أبي مضر بن علي السعدي التميمي الذي رحل أكثر من مرة إلى الحجاز ومصر، وكان من أهل الحديث والأدب، وإماماً في اللغة والشعر ومن بيت جلالة ورياسة وله رواية وسماع بالأندلس. عاد إلى الأندلس وتوفي في قرطبة بعد سنة ٤٥٠ هـ. وكان شعره على طريقة العرب. كما أن الفقيه عبد الملك بن سليمان الخولاني سافر إلى مكة ومصر، ثم عاد وتوفي في ميورقة في الأندلس قبل سنة ٤٤٠ هـ.

الفصل الخامس

التبادل الحضاري بين مصر والأندلس

الفصل الخامس

التبادل الحضاري بين مصر والأندلس

انتقلت المؤثرات العربية المصرية الى بلاد الأندلس بواسطة الجنود والرحالة والفقهاء والمغنين والمغنيات والمهنيين وسواهم. ومن المعروف أنه وجد في الأندلس الكثير من المصريين الذين شاركوا في فتح الأندلس بقيادة بلج بن بشر، كما أن القائد كلثوم بن عياض القشيري قد أرسل من مصر في زمن الخليفة هشام بن عبد الملك الى الأندلس وأفريقية ثلاثة آلاف مقاتل لمقاتلة البربر، ثم اتبعهم بثلاثين ألف من أهل الديوان (من الشاميين) واعداد أخرى تبعتهم فيما بعد^(١). ولذا فإن المؤثرات الاجتماعية والثقافية والدينية انتقلت من مصر الى الأندلس بصورة أو بأخرى. وكانت المؤثرات الإسلامية بوجه عام ظاهرة في العادات والتقاليد الأوروبية. فبعد تشدد الحاكم بأمر الله في مصر في منع النساء من الخروج من المنازل، وبعد أن كانت عادة التزام النساء المسلمات أدباً شرعياً، صارت هذه العادة أسلوب الأشراف والكبراء في اسبانيا. واستمرت هذه الظاهرة الى فترة متأخرة، وبتأثير الأسبان كانت لا تُرى امرأة قط في شوارع ايطاليا حوالي منتصف القرن السابع عشر الميلادي^(٢).

كما ان المؤثرات الصناعية والفنية المصرية بدت واضحة في الصناعة الأندلسية

(١) انظر: مؤلف مجهول: اخبار مجموعة، ص ٣٦.

(٢) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري (او عصر النهضة في الاسلام)، ج-٢، ص ١٧٦.

والفن الأندلسي ، فقد انتقل الى الأندلس بعض الصناعات المصرية ، الذين أدخلوا معهم بعض الصناعات المصرية وبينها صناعة السجاد والمنسوجات والمطرزات والنحاسيات . كما نقل المصريون معهم لهجتهم وألفاظهم وعاداتهم وتقاليدهم العربية التي « تمصّرت » فأثروا وتأثروا بالأندلسيين . ومن العادات المصرية السيئة التي انتشرت في الأندلس شرب وأكل « حشيشة الكيف » . فالرحالة الغرناطي ابن سعيد المغربي الذي زار مصر في القرن السابع الهجري ، عاب على المصريين أكلهم الحشيشة وتباهي بأن بلاده نظيفة من هذه الآفة ، ولكن بعد قرن من كلام ابن سعيد (أي في القرن الثامن الهجري) نجد نصوصاً كثيرة تشير الى انتشار الحشيشة في غرناطة في عهد السلطان محمد السادس ، الذي أصبح بدوره من المدمنين^(١) . ومن المرجح أن المصريين هم الذين نقلوا معهم هذه المادة الى الأندلس . ويبدو أن المؤثرات والتبادل التجاري كان واقعاً بين مصر والأندلس . وبذلك يقول ابن حوقل الذي زار الأندلس سنة ٣٣٧ هـ ، زمن عبد الرحمن بن محمد « وبالأندلس غير طراز يرد إلى مصر متاعه وربما حمل منه شيء إلى أقاصي خراسان وغيرها . ومن مشهور جهازهم الرقيق من الجواري والغلمان من سبي أفرنجة . . . فأما إرديتهم المعمولة ببجاجة فتحمل إلى مصر ومكة واليمن وغيرها »^(٢) كما أشار المقدسي إلى الضرائب المفروضة على صناعة الألبسة والقش والزيت المنقولة بواسطة السفن سواء الى الغرب أو بلاد الشام^(٣) .

بالإضافة الى ذلك فإن المؤثرات المعمارية المصرية انتقلت الى الأندلس ، بواسطة المهندسين والعمال الاسكندرانيين ، وقد ظهر الأثر الاسكندراني المعماري واضحاً في العمارة الأندلسية لا سيما في مدينة مدريد (مجريط) . وقد تميزت مدينة مجريط بكثرة المجاري (ومن هنا اشتق اسمها) على غرار مدينة الاسكندرية .

(١) انظر : د . احمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٤٢ .

(٢) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٢١٣ .

ويشير المقرئ بأن أحد المشرفين على بناء مدينة الزهراء التي بناها الخليفة عبد الرحمن الناصر في قرطبة كان مصرياً من أهل الاسكندرية واسمه علي بن جعفر .

هذا وقد استقدم خلفاء بني أمية في الأندلس المغنين والمغنيات من المشرق ومن هؤلاء عبد الواحد الاسكندراني الذي كان مغنياً وأديباً ، ولهذا فقد قرّبه عبد الرحمن بن الحكم وولاه أخيراً الوزارة وأمور المدينة . كما استقدم عبد الرحمن الثالث سنة ٣٤٤ هـ ، من الاسكندرية عدداً من أهل الغناء والطرب والموسيقى . واستقدم من المشرق آخرين منهم ومن العلماء والفقهاء بينهم أبو علي اسماعيل بن القاسم القالي العالم اللغوي سنة ٣٣٠ هـ ، الذي استمر مكرماً زمن الحكم المستنصر والذي ألف له كتاب « الآمالي » ، وكان الحكم كسابقه محباً للعلم ، فهو الذي طلب كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصفهاني ودفع فيه ألف دينار .

ويذكر بأن الخليفة الحكم الثاني (المستنصر بالله) قد استجلب من مصر وبغداد وبلاد المشرق عيون التأليف والمصنفات العربية في مختلف العلوم ، وقد بلغت مكتبته الآلاف من الكتب ، وقيل إنه اجتمع في خزانه كتبه ما يقارب أربعمئة ألف مجلد ، ليس هذا فحسب بل عمل على نشر العلم والمعرفة ، فابتنى في قرطبة سبعاً وعشرين مدرسة وادخل إليها الطلاب الفقراء مجاناً . وكان الأساتذة في هذه المدارس من المصريين والشاميين والعراقيين . كما قرّب الحكم إليه محمد بن يوسف (أبو عبد الله) التاريخي الورّاق الذي ألف له كتاباً ضخماً في « مسالك افريقية وممالكها » وألف في أخبار ملوكها وحروبهم . وألف له كتباً في تاريخ تهرت (تاهرت) ووهران وتنس وسجلماسة ونكور والبصرة .

ومن بين المؤرخين المصريين الذين اهتموا بأخبار الأندلس المؤرخ عبد الله بن لهيعة الذي كان يلاحق القادمين من الأندلس ، فيسألهم ليدون مشاهداتهم ومعارفهم ، غير أن كتاباته ضاعت وورد بذكرها في مصادر أخرى . أما أقدم كتاب وصل إلينا عن تاريخ المغرب والأندلس ، فهو الذي كتبه المؤرخ المصري

عبد الرحمن بن عبد الحكم (١٨٧ - ٢٥٧ هـ) وعنوانه «فتوح مصر والأندلس». وقد انتشر هذا الكتاب في الأندلس وأخذ عنه الكثير من المؤرخين الأندلسيين أمثال ابن الفرضي وابن خير والحميدي وسواهم. وكان ابن عبد الحكم ابن الفقيه عبد الله المتوفى ٢١٤ هـ، الذي كان إماماً للمالكية في مصر، بينما كان ابن عبد الحكم عالماً بالتاريخ فقيهاً صديقاً للإمام الشافعي. وقد تضمن كتابه معلومات هامة عن تاريخ مصر والاقباط وبني إسرائيل وذكر ملوك مصر والروم والفرس وبناء الاسكندرية والفسطاط، ومعلومات هامة عن بلاد الأندلس وأفريقية والمغرب والنوبة. والأمر اللافت للنظر أن الأندلسيين تأثروا بمنهج عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم في التاريخ لا سيما تأريخ بلادهم، بحيث يمكن القول إن أقدم كتاب كتبه الأندلسيون عن تاريخ بلادهم هو تاريخ عبد الملك بن حبيب الألبيري الذي عاش في القرن الثالث الهجري ودرس في مصر فترة طويلة، ونقل في كتابه كل ما سمعه من روايات عن شيوخه المصريين، ثم عاد إلى قرطبة حيث كان يعقد حلقات دروسه في مسجد جامع، فحدث فيه وكان له سماع^(١). وكان للمدرسة التاريخية الأندلسية آثار واضحة في الكتابات التاريخية الأوروبية. وكان أول مؤرخ للأندلس الإسلامية عبد الملك بن حبيب (١٧٩ - ٢٣٨ هـ، ٧٦٦ - ٨٥٣ - ٨٥٤ م)^(٢).

أما فيما يختص بالناحية الدينية والفقهية، فقد ساد في مصر المذهب المالكي بعد أن انتقل من المدينة وانتشر في مصر، والبعض من الفقهاء نقله معه إلى الأندلس. وبالرغم من أن الإمام الليث بن سعد كان مصرياً من بلدة قلقشندة من أعمال القليوبية، وكان يعيش في مصر، غير أن المصريين فضلوا مالك عليه، وقد علق على ذلك الإمام الشافعي المتوفى سنة ٢١٤ هـ في مصر بقوله: «الليث بن سعد أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به»، غير أن الأندلسيين الذين

(١) للمزيد من التفاصيل انظر كتاب ابن الحكم: فتوح مصر والمغرب والأندلس.

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص ٢٨-٤٤.

درسوا في مصر على الإمام الليث بن سعد ، فقد نقلوا مذهبه إلى الأندلس ، حيث ظلت بعض تعاليمه وأحكامه معمولاً بها إلى جانب المذهب المالكي حتى أواخر الحكم الإسلامي في الأندلس . كما انتقل إلى الأندلس أيضاً مذهب الامام محمد بن ادريس الشافعي بواسطة الفقيه يقي بن مخلد في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني ، ولكن لم يقدر له الانتشار كثيراً بسبب معارضة المالكية وبعض الأمراء لأحكامه . ولما تحدث المقدسي عن اقليم مصر وشرح فيه بعض المذاهب الدينية قال : « ... إن أكثر فقهاءهم مالكيون » ^(١) . ولما تحدث عن الأندلس قال : « ... أما في الأندلس فمذهب مالك وقراءة نافع وهم يقولون لا نعرف الا كتاب الله ، وموطأ مالك ... » ^(٢) .

والحقيقة فإن المؤثرات المذهبية في مصر قد انتقلت إلى الأندلس بواسطة التبادل الحضاري والعلمي والرحلات القائمة بين البلدين ، وبواسطة بعض الفقهاء والتلامذة الذين وفدوا من الأندلس والمغرب ، والذين تلقوا علومهم على فقهاء مصريين أمثال : عبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن وهب وأشهب بن عبد العزيز ونصر بن مرزوق المصري الذي أخذ عنه محمد بن فطيس بن واصل الغافقي الألبيري . كما أن الفقيه الأندلسي محمد بن الفرغ بن عبد الولي الأنصاري الطليطلي درس الفقه - بالإضافة إلى مكة والقيروان - في مصر على فقهاء أمثال أبي محمد ابن النحاس ، وأبي القاسم يحيى بن علي بن محمد بن ابراهيم .

ويذكر الحميدي ^(٣) الكثير من الفقهاء الأندلسيين الذين تتلمذوا في مصر ، أو فقهاء من مصر رحلوا إلى الأندلس ومن الفقهاء الذين رحلوا إلى مصر : محمد بن هارون بن عبد الرحمن بن عبد الفضل بن عميرة العتقي ، وهو من فقهاء الأندلس ، رحل إلى مصر وسمع من الفقيه أبي يزيد يوسف بن يزيد بن كامل بن

(١) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ص ٢٠٢ .

(٢) المقدسي ، المصدر نفسه ، ص ٣٣٦ .

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص ٩٥ .

حكيم القراطيبي ثم عاد الى الأندلس وحدث فيها ، ثم توفي سنة ٣٠٦ هـ ، كما أن أبا العباس أحمد بن محمد الحاج بن يحيى الأشبيلي ، كان فقيهاً ومحدثاً مكثراً . رحل إلى مصر وسكن فيها وحدث فيها طويلاً ثم توفي في الفسطاط سنة ٤١٥ هـ . وقد أشار الى علمه القاضي المصري أبي الحسن علي بن الحسن بن الحسين الفقيه المصري المعروف بابن الخلعي . ومن فقهاء الأندلس الذين رحلوا الى مصر وبغداد ومكة أحمد بن عبد الله بن محمد بن علي أبو عمر الفقيه المعروف بابن الباجي المتوفى حوالي سنة ٤٠٠ هـ ، وقال أحد الفقهاء فيه : « كان أبو عمر الباجي أمام عصره وفقه زمانه جمع الحديث والرأي والبيت الحسن والهوى والفضل . ولم أرَ بقرطبة ولا غيرها من كور الأندلس رجلاً يقاس به في علمه بأصول الدين وفروعه . كان يذاكر بالفقه ويذاكر بالحديث .. رحل متأخراً للحج فكتب بمصر عن أبي بكر أحمد بن محمد بن اسماعيل المعروف بابن المهندس ... » .

هذا وقد رحل أيضاً إلى مصر الفقيه الأندلسي ابراهيم بن موسى بن جميل (أبو اسحاق مولى بني أمية) ، وسمع فيها محمد بن عبد الله بن عبد الحكم (شقيق المؤرخ المصري عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم) كما رحل الى العراق وسمع من فقهاءها ، ثم عاد الى مصر فحدث فيها ، ثم مات سنة ٣٠٠ هـ ، كما أن الفقيه العالم أبا العباس القمري الوليد بن بكر بن مخلد بن أبي زياد ، رحل من سرقسطة الى طرابلس الغرب ، ثم استقر فترة في مصر فدرس على فقهاءها . ثم تابع رحلته الى الشام والعراق وخراسان ، طلباً للعلم ما لبث أن توفي سنة ٣٩٢ هـ .

وعن التبادل الأدبي والمؤثرات الشعرية بين مصر والأندلس ، فقد سافر الكثير من الأدباء والشعراء في رحلات متبادلة بين البلدين ، ومنهم على سبيل المثال لا الحصر : الشاعر الأندلسي محمد بن هاني الذي رحل الى مصر ، والتقى هناك بشعرائها وأدبائها . والشاعر والأديب الأندلسي سعيد بن أحمد بن خالد الذي رحل أيضاً إلى مصر والتقى بعلمائها وشعرائها وأدبائها . وقد طلب بعض الشعراء المصريين استنشاد الشعر لأهل الأندلس ، فأنشد شعراً جليلاً . فقال أحد شعراء مصر : « لا يخفى أشعاركم إلى جانب أشعارنا ، كما لا يخفى البدر في سواد الليل »

قال الشاعر سعيد: « وأين لأهل الأندلس بمثل قول الحسن بن هاني؟ وأنشده أبيات يحيى بن حكم الغزال... » فلما سمعها المصري طرب واهتز وقال: لله در الحسن. فلما أكثر قال له: الشعر والله ليحيى بن حكم الأندلسي، وإنما أردت تجربة نقدك، والنقض عليك. فرد ذلك وأنكره حتى صحّ ذلك عنده، فخجل وأظهر التعجب، ولم يراجع بعد في اشعار أهل الأندلس قال: وكان كثيراً ما يستنشدني لهم^(١).

من جهة ثانية لا بد من الإشارة بأن مصر شهدت تمازجاً سكانياً مع الأندلسيين في بعض الحقب التاريخية. ففي القرن التاسع الميلادي، وبعد أن تم قمع الفتنة في قرطبة سنة ٨٠٥ م وفي طليطلة سنة ٨٠٧ م، وبعد اضطرابات قرطبة سنة ٨١٤ م، اضطر بعض السكان الأندلسيين إلى الرحيل إلى شواطئ المغرب العربي وإلى مصر. وقد قصد مصر خمسة عشر ألفاً ما عدا النساء والأطفال على ما قاله الكندي « تاريخ الولاة والقضاة »، فاستقر هؤلاء في ضواحي الاسكندرية بين ٨١٤ - ٨١٥ م (١٩٩ هـ). ولم يلقوا معارضة عند نزولهم إلى مصر. ثم لبثوا أن تفاعلوا بسكانها، فنقلوا عاداتهم وتقاليدهم، وأخذوا من العادات والتقاليد المصرية. وبلغ نفوذهم حداً أنهم استطاعوا السيطرة على الاسكندرية سنة ٨١٨ - ٨١٩ م، وتنصيب واحد منهم عليها هو أبو حفص عمر بن شعيب. غير أن الخليفة المأمون تعاون مع هؤلاء المهاجرين الأندلسيين، وأرسلهم سنة ٨٢٦ - ٨٢٧ م إلى جزيرة كريت حيث احتلوها وأعملوا بها السلب والنهب. ثم استطاع زعيمهم أبو حفص اتخاذ كريت مقراً له ولجماعته فيما بعد^(٢).

ومن الأهمية بمكان القول بأن المؤثرات المشرقية التي « تأندلست » عادت مجدداً إلى بلدان المشرق بعد هجرة المسلمين من اسبانيا إثر حركة الاسترداد

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٢٢٨-٢٢٩. أنظر أيضاً حول المؤثرات المصرية الأدبية والفقهية

في بلاد الأندلس، الحميدي، ص ٩٦-١٠٨، ١٢٨-١٢٩، ١٥٦-١٥٧، ٣٦١.

(٢) د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية، ص ٢٦٥-٢٦٦.

المسيحية، فانتقلت العائلات أو بعضها إلى بلدان المغرب، ومنها انتقلت عائلات إلى الحجاز ومصر والعراق وبلاد الشام وقد شهدت بيروت والمناطق الساحلية الشامية حركة نزوح من المغرب، علماً أن أكثر العائلات البيروتية تعود بنسبها وأصولها إلى المغرب والأندلس، وقد حملوا معهم لهجات وأسماء وعادات وتقاليد مغربية وأندلسية.

الفصل السادس

السفارات الإسلامية - المسيحية في الأندلس

الفصل السادس

السفارات الإسلامية - المسيحية في الأندلس

لم تكن العلاقات الإسلامية - المسيحية كلها علاقات حربية وعداء، إنما تخللها علاقات حضارية وتبادل علمي وثقافي وفترات من السلام، وتبادل في السفارات السياسية والعلمية بين الممالك الإسلامية والمسيحية في الأندلس وفي المشرق، أو بين المسلمين في الأندلس وحكام بيزنطة^(١). ففي العام ٣٤٤ هـ - ٩٥٥ م وصلت إلى قرطبة سفارة إسبانية مسيحية من قبل الملك «أردون الثالث» (Ordonio III.) ٩٥١ - ٩٥٦ م، ابن ردميره الثاني (Ramiro II.) ٩٣١ - ٩٥١ م، ملك مملكة ليون، وبسبب الأوضاع الداخلية السيئة والصراعات العائلية بين أردون الثالث وبين أخيه شانجه السمين (سانشو) (Sancho) طلب أردون الثالث إقامة معاهدة سلام مع عبد الرحمن الثالث، وقد استجيب لطلبه، بعد أن ألزم نفسه دفع الجزية. ثم ما لبث سانشو أن جاء إلى قرطبة سنة ٣٤٧ هـ - ٩٥٨ م على رأس وفد هام يلتمس من الخليفة الناصر مساعدته في استعادة ملكه، فاستقبله الناصر استقبالا حافلا. وانتهى اللقاء بعقد معاهدة بين الطرفين، كسب الناصر من جرائها امتيازات ومراكز استراتيجية في مملكة ليون، مثل تمركز الجيوش الإسلامية في الحصون الهامة. وبالفعل وبفضل المساعدة العسكرية التي قدمها الناصر

(١) استمرت العلاقات ومعاهدات السلام بين المسلمين والقوى الأوروبية طيلة عهود طويلة، بالرغم من استمرار التوترات العسكرية. ومنها على سبيل المثال المعاهدة التي عقدت في عهد الممالك عام ٨٣٣ هـ - ١٤٣٠ م بين الأشراف برسباي وبين ألفونسو الخامس ملك أراغون. انظر: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، ص ٥٧٩ - ٥٨١.

لسانشو استطاع في سنة ٣٤٩ هـ - ٩٦٠ م استرداد ملكه. وكثيراً ما كان أمراء وملوك اسبانيا يلجأون إلى الحكام المسلمين لمساعدتهم على استعادة اماراتهم وممالكهم على غرار ما فعل فيما بعد أردون الرابع.

وفي سنة ٣٥٦ هـ - ٩٦٦ م وفد إلى قرطبة سفارة ملك برشلونة وملك طركونة، وطلبت هذه السفارة من الحكم المستنصر تجديد الصلح واقرارها على ما كانا عليه من علاقات. وكانت هذه السفارة تضم هدية للحكم مؤلفة من عشرين صبيّاً من الصقالبة وعشرين قنطاراً من فراء السمور وخمسة قناطير من القصدير، وعشرة دروع صقلبية ومائتي سيف فرنجية. فتقبل الحكم الهدية، ثم وافق على التماسها، شرط هدم الحصون التي تضر بالمسلمين، وشرط عدم التعاون مع الملوك المسيحيين ضد المسلمين. ووفد عليه أيضاً سفارات غرسية بن شانجة (بن سانشو) ملك نبرة، وسفارة أم رودريك (لذريق) بن بلا شك أعظم قوامس جليقية.

وفي أثناء سفارة الملك أردون ملك جليقية إلى قرطبة واجتماعه مع الحكم المستنصر بالله قال له: «أنا عبد أمير المؤمنين مولاي، المتورك [المعتمد] على فضله، القاصد إلى مجده، الحكم في نفسه ورجاله، فحيث وضعني من فضله، وعوضني من خدمته، رجوت أن أتقدم فيه بنية صادقة، ونصيحة خالصة» ثم شكاه له مشكلته مع ابن عمه شانجه الذي «تقدم إلى الخليفة الماضي مستجيراً به مني»^(١) وطلب أردون من الحكم التأييد ودعم حكمه على أعدائه من عائلته ومن سواهم.

وفي عهد الحاجب عبد الملك بن المنصور، طلبت إليه الممالك المسيحية التوسط بينها، فتوسط بين قشتالة وجليقية بواسطة مبعوثه الخاص النصراني أصبغ بن عبد الله بن نبيل. ولما تولى رودريجو دياز (Rodrigo Diaz) أو لذريق النصراني كما سماه ابن علقمة، والملقب بلقب السيد والقنيطور (Campeador) قيادة جيش

(١) المقرئ: نفح الطيب، ج ١، ص ٣٦٧-٣٦٨.

الفونسو السادس والسياسة العليا في البلاد ، تمت المراسلات والسفارات بين الفونسو والمعتمد بن عباد ملك اشبيلية بواسطته . ولما طرد رودريجو دياز من قشتالة ، أقام علاقات جيدة مع المدن الاسلامية وحارب الى جانب أمرائها وملوكها مثل ملك سرقسطة . وكان للسيد في بلنسية ممثلاً مباشراً له هو ابن الفرّج (Aben Alfarex) وهو رجل مسلم شديد الاخلاص له . وكذلك توطدت العلاقات بين المنصور وبين بعض ملوك اسبانيا مثل ملك نبره (Naverra) سانشو اباركا (Sancho) (٩٧٠ - ٩٩٥ م) وقد تزوج المنصور ابنته التي اعتنقت الاسلام وتسمت باسم عبدة ، وانجب منها المنصور ابنه عبد الرحمن الذي أطلقت عليه أمه اسم سانشويلو (Sanchuelo) أي سانشو الصغير ، وقد حرفت العامة هذا اللفظ إلى شنجول^(١) . كما أقام المنصور علاقات سلمية مع الدولة البيزنطية زمن الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ - ١٠٢٥ م) . وكانت علاقته سلمية مع الامبراطور أوتو الثالث ملك المانيا (٢٨٣ - ١٠٠٢ م) وايطاليا والامبراطورية الرومانية المقدسة . وكان هذا الامبراطور رجلاً محباً للسلام مشجعاً للعلوم يجيد عدة لغات كالالمانية واللاتينية واليونانية^(٢) .

وفي طليطلة (Toledo) استقبل الملك المأمون يحيى بن اسماعيل ذي النون ملك طليطلة الفونس السادس ملك قشتالة ، بعد خلافات وحروب مع أخيه الملك سانشو الذي هزمه سنة ١٠٧٢ م . وقد استقبل المأمون الملك الفونس بالتكريم وأعطاه بيتاً في القصر الملكي ، بعيداً عن الحي المأهول بالسكان المسلمين ، وكانت إقامته بين البساتين وفي حقول الصيد ، ولم يكن متضايقاً أو متذمراً ، بل كان في بعض الأحيان مقاتلاً ضد أعداء المأمون من المسلمين . واستمر الفونس في بلاط المأمون إلى تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٧٢ م إلى حين مقتل أخيه سانشو . وصار الفونس حراً طليقاً ، وقد تبادل والمأمون الوعود الودية ومواثيق المحالفة ، ثم

(١) د . احمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ٤٥٧ . انظر أيضاً : د . عبد العزيز

سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣٤٣ .

(٢) د . احمد مختار العبادي ، المرجع نفسه ، ص ٤٥٦ .

صحبه المأمون وأوصله إلى آخر حدود دولته. غير أن الفونسو قابل استضافة المأمون بالاستعدادات العسكرية ضد المسلمين بعد أن تسلم حكم قشتالة وليون. وبدأ يتباهى بأنه بطل حركة الاسترداد المسيحي. وبالفعل فقد استطاع احتلال طليطلة بالذات بعد ثلاثة عشر عاماً من خروجه منها أي في أيار (مايو) ١٠٨٥ م. وكان المأمون قد توفي في قرطبة في حزيران (يونيه) ١٠٧٥ م أي بعد ثلاث سنوات من رحيل الفونسو.

والحقيقة فإن هناك العديد من الوثائق والمراسلات السياسية تشير الى العلاقات السلمية بين المسلمين والمسيحيين في الأندلس وبقيّة الممالك الأوروبية أو الممالك الإسبانية، بما فيه رسالة أرسلها الخليفة الموحي المرتضى الى البابا أنوصان الرابع في ١٨ ربيع الأول سنة ٦٤٨ هـ، ومما جاء فيها: «.. فإنه سبقت منا إليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا، وأرسلنا نحوكم من الجواب عنها ما تمنا به بركم ووفينا... ونشكر لكم ما توالى علينا من حسن ايثاركم لجانبنا وتردد» وعن السفير البابوي قال الخليفة الموحي عبد الله عمر «قد وصل بكتابكم إلينا، انصرفاً لم يعده منا فيه بر واکرام، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام، كما أنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام، لم نزل نتعهده أثناءها بالاحسان والانعام، ومتى سنح لكم - أسعدكم الله بتقواه - أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين - أعزهم الله - من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم، فتخيروه من أهل الفضل الراجح والسمت الحسن، ومن يستلذ في النزاهة على واضح السنن.. وذلكم هو الذي إذا تعين من قبلكم مستجمعاً للصناعات المذكورة ومتحلياً بالخلال المشكورة حسن في كل ما يستخدم.. وشكرنا لكم على كل ما تذهبون إليه في جانبنا من تمشية الأغراض والمذاهب، وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب، وتبادرون الى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم في تحلتكم من انافة المناصب...».

وفي سنة ٧٠١ هـ، أرسل سلطان غرناطة محمد الثالث بن محمد الثاني (أبو عبد الله) رسالة الى الدون خايم (دون جايم) ملك أراغون وبلنسية ومرسية

وكندبرجلونة رداً على رسالته إليه جاء فيها : « ... ننعم لكم أيها السلطان المعظم دون جام... بأن نكون لكم صاحباً وفيّاً ، ويكون بيننا وبينكم صلح ثابت وصحبة صادقة ، يكون فيها أصحابكم أصحابنا ، وأعداؤكم - أهل قشتالة - أعداءنا . ونرفع الضرر والفساد عن بلادكم وأرضكم من بلادنا وأرضنا ، ولا نجعل سبيلاً لأحد من ناسنا لا في البر ولا في البحر عليكم ، وإن اتفق أن أصدر لأحد أو لموضع من ناسكم وبلادكم ضرر من أحد ممن يرجع إلى حكمنا ، فنحن ننصف منه بالحق الواجب ، على أن تكونوا أنتم لنا كذلك ، صاحباً وفيّاً كما ذكرتم في كتابكم وتلتزموا لنا صحبة صادقة وصلاحاً ثابتاً .. وكذلك ننعم لكم بأن يصل إلى بلادنا كل من يريد الوصول برسم التجارة من بلادكم بما شاؤوا من أنواع التجارات ، ويسرح لهم ما أرادوا من ذلك ويكونوا مؤمنين على أنفسهم وأموالهم... وعلى أن يكون ايضاً كل من يتوجه من بلادنا إلى بلادكم من التجار مؤمنين في نفوسهم وأموالهم.. كما ذكرتم في كتابكم.. وعلى أن تمنعوا أهل بلادكم من الدخول بالتجارة إلى اشبيلية وغيرها من بلاد أعدائنا في البحر والبر... »^(١).

وبعد مفاوضات بين الجانبين عقدت معاهدة تحالف وصداقة بين سلطان غرناطة وملك أراغون وهي تجديد للمعاهدة التي سبق أن وقعت بين الملكين سنة ٦٩٥ هـ ، وهي تنص على ما يلي : « صلح ثابت وصحبة صادقة ، وأن يلتزم كل من الفريقين عدم الاضرار بالآخر على يد أحد من رعاياه ، وأن تكون أراجون معادية لأعداء غرناطة ، سواء من المسلمين أو قشتالة ، وأن يفتح بلد كل من الفريقين لمن يقصده من تجار البلد الآخر ، مؤمنين في أنفسهم وأعمالهم ».

وهناك رسائل صداقة ومعاهدات سلام عديدة عقدت بين المسلمين والمسيحيين ، ومنها معاهدة بين السلطان اسماعيل وملك أراغون الدون خايم الثاني تنص على أنه « يعقد بين الفريقين صلح ثابت لمدة خمسة أعوام ، نؤمن خلالها

(١) شكيب ارسلان: الحلل السندسية، ج-٢، ص ٢٨٦-٢٩٨. د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا، ص ٤٥٠-٤٥٣.

أرض المسلمين بالأندلس وأرض أراغون تأميناً تاماً برّاً وبحراً، وأن تباح التجارة لرعايا كل من الفريقين في أرض الآخر، وأن يتعهد كل من الملكين بمعاودة من يعادي الآخر، وأن لا يأوي له عدواً أو يحميه، وأن تكون سفن كل فريق وشواطئه ومراسيه آمنة، وأن يسرح كل فريق من يؤسر في البحر من رعايا الفريق الآخر.. ويتعهد ملك أراغون ألا يمنع خروج المدجنين من أراضيه إلى أرض المسلمين بأهلهم وأولادهم وأموالهم»^(١). وقد اتبعت هذه المعاهدة برسائل تثبيت لها تبودلت بين السلطان اسماعيل الأول بن فرج (٧١٣ - ٧٢٥ هـ، ١٣١٤ - ١٣٢٥ م) ملك غرناطة وبين ملك أراغون بين سنة ٧٢١ هـ، ٧٢٤ هـ. وقد استمرت العلاقات الودية بين غرناطة وأراغون في عهد السلطان محمد الرابع والدون خايم الثاني. كما جرت اتصالات بين محمد الرابع والفونسو الرابع الذي تولى أراغون وملحقاتها بعد وفاة والده خايم الثاني سنة ١٣٢٧ م. ففي ٣٠ جمادى الأولى سنة ٧٢٨ هـ أرسل سلطان غرناطة محمد الرابع إلى الفونسو الرابع ملك أراغون الجديد رسالة، ومما جاء فيها: «... فأنا كتبناه اليكم من حمراء غرناطة، حرسها الله،... وإلى هذا فإنه توجه في هذه الأيام خمسة أشخاص من التجار من أهل بلادنا ثقة بعهدكم وركوناً إلى صحبتنا معكم، فيعرفنا أن النائب عنكم في قربليان ثقفهم، وثقف أموالهم، فخطبناكم في شأنهم، وقصدنا منكم تسريحهم، وتسريح أموالهم، وأن تنفذوا أمركم بذلك لمن ينوب عنكم، تحتفظوا بذلك عهدنا ونقضوا لنا في ذلك... نشكركم عليها...»^(٢).

(١) د. محمد ماهر حمادة، المرجع نفسه، ص ٤٥٤، نقلاً عن: العنان: نهاية الأندلس، ص ١٢٠.
(٢) الأمير شكيب إرسلان: الحلل السندسية، ج ٢، ص ٣٢٠-٣٢١. د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال أفريقيا، ص ٤٦٧-٤٦٨.

الفصل السابع

السفارات الإسلامية - المسيحية بين الأندلس وبيزنطة

الفصل السابع

السفارات الاسلامية - المسيحية بين الأندلس وبيزنطة

في الوقت الذي كان فيه الامبراطور البيزنطي قنسطانز الثاني منصرفاً الى الاهتمام بالغرب، صار معاوية بن أبي سفيان خليفة واتخذ دمشق مقراً سنة ٦٦١ م، واستؤنفت حركة الفتوح الاسلامية، وتوغل المسلمون في آسيا الصغرى، وصقلية والقيروان والقسطنطينية، واستولى المسلمون على قبرص ورودوس وكوس وخيوس وأزمير، وتعرضت كريت للهجوم سنة ٦٧٢ م. وعقدت معاهدة بين الجانبين سنة ٦٨٥ م، بين جستنيان الثاني وعبد الملك بن مروان. واستمرت الحروب في عهد العباسيين ضد البيزنطيين كما شهدت الفترة معاهدات بين هارون الرشيد والامبراطور شارلمان سنة ٨٠٦ م.

فالعلاقات بين الشرق والغرب لم تقتصر على الحروب، بل شملت صلات ودية ومعاهدات سلمية. وعلى سبيل المثال، فقد ساعد امبراطور الروم البيزنطيون، الأمويين في عملية إعادة بناء بعض الأبنية في الحجاز والشام. وكانت التجارة نشطة بين الدولتين براً وبحراً. وتشير بعض المصادر إلى أن المنصور استقبل سفيراً بيزنطياً بعد انتقاله إلى بغداد عاصمة العباسيين الجديدة، والذي أشار عليه بكيفية بناء السوق حفظاً للأمن من الشغب والتجسس. ويروى أيضاً بأن الامبراطور شارلمان بدأ يخطب ود الخليفة هارون الرشيد، فأرسل له وفداً رسمياً سنة ٧٠٧ م، ثم أرسل رسولاً إلى بطريق القدس سنة ٧٩٩ م. وقد رد الرشيد بإرسال وفد سنة ٨٠١ م، وأعقبه شارلمان بإرسال وفد ثان سنة ٨٠٢ م، فرد الرشيد بوفد آخر سنة ٨٠٧ م. وكانت الوفود تحمل الهدايا المتنوعة والتمينة، ومنها هدية

هارون الرشيد إلى شارلمان وهي عبارة عن ساعة مائة دقيقة وفيل أبيض ومجموعة من الثياب الحريرية والعطور والتوابل^(١). وربما كان لهذه العلاقات الثنائية الجيدة صلة بعداء هارون الرشيد للدولة الأموية في الأندلس، في محاولة للاتفاق مع الفرنجة لمساعدته ضد ما يعتقد أنه أعداء دولته العباسية.

والحقيقة فإن العلاقات البيزنطية - الإسلامية لم تقتصر على بلاد المشرق أو المناطق الآسيوية، وإنما أقيمت علاقات بين البيزنطيين والمسلمين الأندلسيين وجرت عدة سفارات في مختلف العهود، ولما تولى الأمير عبد الرحمن الثاني استمرت السفارات البيزنطية - الأندلسية. ويشير المقري «نفح الطيب جـ ١»، إلى قدوم سفارة من قبل الامبراطور تيوفيل (تيوفلس) (Thiophile) امبراطور الأسرة العمورية «ملك الروم الكبير وصاحب القسطنطينية»، حوالي سنة ٢٢٥ هـ، ٨٣٩ - ٨٤٠ م على الأمير عبد الرحمن الأوسط (٨٢٢ - ٨٥٢ م) الذي أرسل في العام نفسه وفداً إلى القسطنطينية. ويشير «ابن حيان» (المقتبس) وسواه من المؤرخين، بأن «تيوفلس» أرسل ترجمانه قراطيوس الرومي (Kartiyus) وكان يحمل هدايا إلى أمير الأندلس، ورسالة رسمية يطلب فيها من عبد الرحمن استمرار العلاقات بينهما، ويرغبه في ملك سلفه بالمشرق، ويطلب منه عقد معاهدة صداقة. كما تعهد له في الوقت نفسه بأن يستعيد من أيدي العباسيين ميراث أجداده الأمويين في بلاد الشام، في مقابل مساعدة عبد الرحمن للامبراطور باستعادة جزيرة «كريد» التي وقعت بأيدي المغامرين الأسبان، إضافة إلى أن من أهداف سفارة الامبراطور للأمير، كانت مواجهة الأخطار الإسلامية في صقلية وأفريقية^(٢).

والواقع وإن كان للسفارات المتبادلة بين الامبراطور والامير بعض الأهداف

(١) خالد محمد القاسمي: العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية، (مقال) مجلة تاريخ العرب والعالم، العددان ٧٩ - ٨٠، أيار (مايو) حزيران (يونيه) ١٩٨٥، ص ٤٥.

(٢) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس ص ٩٣. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٥ - ٣١٦.

السياسية والعسكرية، غير انه كان لها ايضاً أهداف علمية. وقد لوحظ بأن عبد الرحمن الأوسط استقبل السفير البيزنطي استقبالاً حافلاً، ولم يتوان بدوره عن إعادة الترجمان قراطيوس الى القسطنطينية مع وفد إسلامي. فاختار لهذا الغرض بعض العلماء المسلمين المتخصصين في العلوم البحتة منهم: يحيى بن حكم الغزال العالم والشاعر المشهور، ويحيى المنيقلة الذي لقب بهذا اللقب لاختراعه نوعاً خاصاً من الساعات. وقد جاء ذكر يحيى بن حكم الغزال (١٥٦ - ٢٥٠ هـ) في كتاب الحميدي « جذوة المقتبس » الذي وصفه بالقول: « رئيس كثير القول، مطبوع النظم في الحكم والجد والهزل، وهو مع ذلك جليل في نفسه وعلمه ومنزلته عند امراء بلده. ارسله بعض ملوك بني امية بالأندلس رسولاً إلى ملك الروم... »^(١).

هذا وقد عهد إلى الوفد الإسلامي الذي صحب معه قراطيوس بالرد على الامبراطور، وقد نقل ابن حيان نص هذه السفارة كاملاً. وفي بلاط القسطنطينية ظهرت حكمة وصرامة يحيى بن حكم الغزال. وفي العاصمة كلف موظف بيزنطي - كان مقدم السفراء - بالتعريف بأداب البلاط البيزنطي والاستقبال فيه. ثم دعي الغزال لمقابلة الامبراطور توفلس، فاشتراط الغزال عدم السجود للامبراطور لا هو ولا زميله يحيى، وإلا يخرجهما الامبراطور عن شيء من سنة الله ورسوله، فأجابهما إلى ذلك. ولم يملك توفلس اخفاء اعجابه بالسفير يحيى الغزال فقال لرجال دولته: « كان الحكماء على حق في قولهم ان من شخصية الرسول يعرف سيده. ان هذا الأنديسي حكيم من حكماء القوم، وداهية من دعاتهم ».

أما الرد الذي أرسله الأمير عبد الرحمن الأوسط للامبراطور توفلس، فقد بدأه بالبسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) ومما جاء فيه: « .. أما بعد، فقد بلغني كتابك، نتذكر فيه الذي كان عليه من مضى منكم لأولينا من المودة الصادقة وأنه قد دعاك ذلك الى مكاتبتنا وارسال قرطيوس رسولك الينا لتجديد تلك المودة، وترتيب تلك المصادقة، وتسال أن ينعقد فيما بيننا وبينك من ذلك ما نتمسك به

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ص ٣٧٤.

وتتواصل له، ونبعث رسولاً من عندنا إليك ليعلموك بالذي نحن عليه من الرغبة فيما حضضت عليه، ودعوت إليه، لتثبت بقدمهم عليك مودتنا وتم به صداقتنا... ثم شرح له الموقف من الخليفة مروان وأبي جعفر وابن مراجل وابن ماردة وأبي حفص الأندلسي، ثم قال «... وقد أدخلنا رسولك قرطوس علينا، وكشفناه على الذي أوصيت به إلينا، وعن كل ما يجب لصديق أن يعرفه من حال صديقه، ووجهنا إليك بكتابنا هذا رسولين من صالحينا من قبلنا، فاكتب إلينا معها بالذي أنت عليه من الأمر الذي كتبت به إلينا، والذي يجب عليك من سائر خبرك ومتعة عافيتك، للنظر فيما يتصرفان به من عندك على حسب ما يأتينا به من عندك إن شاء الله»^(١).

ويذكر أيضاً بأن الامبراطورة «تيودورا» (Theodora) زوجة توفلس، أعجبت بتصرفات وحنكة يحيى الغزال، فلما اجتمعت به وبالوفد الأندلسي، نظم الغزال لها قصيدة تمتليء بالصور الشعرية الرائعة وقد ألقاها في القصر الذي نزل فيه الوفد الأندلسي والذي سماه ابن حيان «أكاديمية من مرمر».

من جهة أخرى، فقد أشار ابن عذارى «البيان المغرب، ج ٢» وابن خلدون «العبر، ج ٤». بأن عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله، قد استقبل سفارة الامبراطور البيزنطي قسطنطين الرابع في ٣٣٨ هـ - ٩٤٩ م، محملة بالهدايا الثمينة، وقد تمنى الوفد البيزنطي على الخليفة المؤلفة واتصال المكاتبة، وسلمه رسالة مكتوبة باليونانية بأحرف من ذهب، بدأ فيها بعبارة «من قسطنطين ورومانين (ابن قسطنطين) المؤمنان بالمسيح الملكان العظيمان ملكا الروم... إلى العظيم الاستحقاق الفخر الشريف النسب عبد الرحمن الخليفة الحاكم على العرب بالأندلس أطال الله بقاءه...»، ولما اجتمع الخليفة بالوفد البيزنطي احاط به مستشاروه وعلماءه وأبناءؤه وقضااته ومنهم: يحيى بن محمد بن الليث، محمد بن عبد البر، أبو علي القالي، المنذر بن سعيد البلوطي، وإلى جانبه أولاده: الحكم، عبيد الله، عبد العزيز،

(١) انظر: ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص ١١٥-١١٨.

الأصبع، مروان، المنذر، عبد الجبار، وسليمان، بينما تخلف ابن عبد الملك بسبب مرضه^(١).

ولما انتهت مهمة السفارة البيزنطية وتوجهت إلى بيزنطة، أرسل الخليفة بصحبة الموفدين البيزنطيين، سفيراً هو هشام بن هذيل، يحمل إلى الامبراطور هدية قيمة تأكيداً للعلاقات الودية بينهما، وقد أمضى السفير هشام في سفارته سنتين عاد بعدها إلى قرطبة مصحوباً بسفراء بيزنطيين جدداً لبحث الأمور المستجدة على العلاقات الثنائية.

وفي عهد الحكم المستنصر (٩٦١ - ٩٧٦ م) ابن عبد الرحمن الثالث تجددت هذه العلاقات مع بيزنطة، وقد أرسل الامبراطور نقفور فوكاس (Nicephore Phocas) بعض الخبراء والصناع المتخصصين في صناعة الفسيفساء إلى الأندلس بناء على طلب الحكم، للأشراف على زخرفة الأجزاء الجديدة من المسجد الجامع في قرطبة. واستمرت العلاقات بين البلدين، وقد تجددت بين بيزنطة وقرطبة في عهد الوزير الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر وفي عهد الامبراطور باسيل الثاني.

ومن الأهمية بمكان القول، أن التبادل الحضاري والثقافي والاجتماعي بين المجتمعين العربي والغربي، لم يكن محصوراً في منطقة واحدة، بل في كل منطقة قدر لها أن تشهد تواجداً إسلامياً - مسيحياً. فمن المعروف أنه ترتب على الفتوح الإسلامية في المشرق، أن انفصل عن جسم الدولة البيزنطية كل من قال بالطبيعة الواحدة للمسيح، فأصبحت الدولة أرثوذكسية موحدة، تتفق حدودها مع سلطان بطريركية القسطنطينية. ثم بسقوط الاسكندرية وانطاكية وبيت المقدس بأيدي المسلمين، أصبح لبطريرك القسطنطينية الصدارة في الشرق، وأصبح بابا المسيحية في المشرق.

وبدون أدنى شك فإن الأباطرة البيزنطيين ورجال الدين المسيحيين تأثروا

(١) ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٩٢ - ٩٣. انظر أيضاً: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٣١٦ - ٣١٩.

بالمناخ الإسلامي المحيط بهم، من حيث المؤثرات الدينية والعادات والتقاليد واللغة. ففي المجال الديني، عرف عن الإسلام محاربته للصور والإيقونات والتماثيل. وفي حين نرى بأن الكثير من المسيحيين تمسكوا فيما عرف بإسم « عبادة الصور المقدسة » نرى أن قسماً كبيراً من المسيحيين تأثروا بالمعتقدات الإسلامية التي تنبذ الصور والتماثيل. ولما تولى الامبراطور البيزنطي « ليو الثالث » الحكم سنة ٧١٧ م، جرت في عهده صراعات بين مؤيدي عبادة الصور والإيقونات وبين مناهضي هذه العبادة. وظهرت المعارضة لهذه العبادة في الجهات الشرقية (العربية) من الامبراطورية البيزنطية، ويشير الباحثة الدكتور السيد الباز العريني في كتابه (الدولة البيزنطية) الى الأثر الإسلامي في هذا المجال بقوله : « على أن الاتصال بالمسلمين والعالم الإسلامي، يعتبر اكبر عامل في تأجيج نار الكراهية ضد الايقونات وما اشتهر به ليو الثالث من العداوة للإيقونات، ارجعها خصومه إلى مؤثرات يهودية وإسلامية »^(١).

والحقيقة انه بالرغم من اضطهاد ليو الثالث لليهود، وبالرغم من حروبه مع المسلمين، غير أنه تأثر بالديانتين اليهودية والإسلامية. وقد أخذ الكثير عن الحضارة الإسلامية، وبسبب المؤثرات الإسلامية في تفكير ليو، اطلق عليه المعاصرون « ليو ذي العقلية الإسلامية ». ولعل نشأة ليو في مرعش في شمالي الشام، كان له الأثر على قراراته، إضافة الى انه اشتهر عنه اتقانه للغتين العربية والرومانية.

ولقد تبين أيضاً بأن العرب لم يحملوا معهم في حروبهم في آسيا الصغرى فكرة الجهاد فحسب، وإنما نقلوا معهم ما اشتهروا به من حضارة وكراهية لتصوير الإنسان، والقرآن الكريم أشار الى ذلك بقوله : « يا أيها الذين آمنوا، إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه، لعلكم تفلحون »^(٢).

(١) د. السيد الباز العريني : الدولة البيزنطية، ص ٢٠١.

(٢) سورة المائدة، الآية ٩٠.

ومن المعروف أن الخليفة يزيد بن عبد الملك أصدر سنة ٧٢٣ م قراراً - أي قبل قرار ليو الثالث بثلاث سنوات - يقضي بإزالة الإيقونات من الكنائس المسيحية في الدولة الإسلامية. واعتبر الأباطرة البيزنطيون الشرقيون، أنه لا بد من تطهير الديانة المسيحية، وبرأيهم فإن عبادة الصور والإيقونات ليست هي في حقيقتها إلا بقايا متخلفة من الوثنية، وينبغي إزالتها والتخلص منها. ففي العام ٧٢٦ م أصدر ليو أول قرار ضد عبادة الصور بناء على طلب أساقفة آسية الصغرى، ثم أمر بتدمير تمثال المسيح المنصوب بأعلى أفخم مداخل القصر الإمبراطوري. وكان لهذه القرارات الأثر البارز في خروج نفوذ روما من الشرق، بينما خرجت بيزنطة من الغرب اللاتيني، وازدادت مظاهر حضارتها الشرقية، وبذلك انهارت فكرة الوحدة بين الدولة البيزنطية والبابوية. وقد حذا حذو ليو الإمبراطور قسطنطين سنة ٧٦٤ - ٧٦٥، فكان أول من أدى قسماً بالتخلي عن عبادة الأصنام.

ومن خصائص عهد الإمبراطور قسطنطين السابع (٩١٩ م - ٩٤٤ م) المحافظة على استمرار العلاقات الدبلوماسية مع الدول الخارجية. وبالرغم من أنه كان يحث رعاياه على الجهاد ضد المسلمين، غير أن العلاقات البيزنطية - العربية في الشرق اتسمت بروح العطف والمحبة، نظراً لموقف المسلمين وسياستهم العادلة إزاء الرعايا البيزنطيين. وكان للمسلمين في الشرق من المكانة عند بيزنطة، ما جعلهم في مرتبة تعلو مرتبة الملوك المسيحيين في الغرب، علماً أن قسطنطين السابع بعد أن رأى تزايد النفوذ الإسلامي في المشرق وتزايد رقعة بلاد المسلمين، بدأ يجهز حملات جهادية ضد المسلمين بإثارة الروح الدينية. ولهذا فقد قيل فيه بأنه هو الذي استهل عصر الحروب الصليبية في الشرق والغرب، وعند البيزنطيين والفرنج على السواء^(١).

(١) د. السيد الباز العريني، المرجع السابق، ص ٤٢٤.

الفصل الثامن

التبادل الحضاري بين الأندلس والغرب

الفصل الثامن

التبادل الحضاري بين الاندلس والغرب

أصبحت قرطبة من أهم الحواضر في العالم ، فانتشر حولها آلاف من القرى نتيجة للرخاء والتطور الاقتصادي . وكانت وضواحيها الشامي والعشرين في عهد الأمير عبد الرحمن الثالث أكبر مدن أوروبا كلها . وقد ضمت قرطبة بالإضافة إلى قصورها العديدة ما يقارب (١١٣) ألف منزل و (٦٠٠) مسجداً و (٣٠٠) حماماً و (٨٠) مدرسة ، و (١٧) مدرسة عليا و (٢٠) مكتبة عامة تضم عشرات الآلاف من الكتب .

وكان الحكم الثاني المشهور برعايته للعلماء قد حرص على رعاية التمازج الثقافي والتبادل الحضاري بين المسلمين والمسيحيين . ففي فترة ولايته للعهد ألف الأسقف جودمار الجيروي (Godmar Von Gerona) كتاباً بالعربية عن تاريخ الفرنجة ، كما ألف أسقف قرطبة ربيع بن سعيد كتاباً عن العلوم الطبيعية بالعربية ترجمه جيرار الكريمني (Gerhard Von Cremona) إلى اللاتينية . وقد اختار عبد الرحمن الثالث الأسقف ربيع (ريكي داموندوس فيما بعد) مندوباً عنه سنة ٩٥٥ م للقيصر أوتو الأكبر .

ومن حكام الأندلس الذين اهتموا بالتبادل الحضاري بين الشرق والغرب وبين المسيحية والإسلام المظفر ملك بطليوس الذي اخرج مائة مجلة نحوية تحوي كل علوم عصره ، والمقتدر ملك سرقسطة الذي كان فيلسوفاً وعالماً فذاً في الفلك والرياضيات . وقد أصبحت الصفة المميزة للإدارة الأندلسية ، أن ما من أحد يتولى منصباً هاماً إلا ويكون قد أثبت كفاءته وحبه للعلم .

ومن المؤثرات المشرقية العربية في التراث الأندلسي والأوروبي الشعر العربي ، وتلاحظ هذه المؤثرات في اشعار فرنسيس الأسيزي (Franz Von Assissi) ودانتي (Dante) وفراجا كابانا داتودي (Fraja Capane de todi) ومديتشي (Lorenzo de Medici) ومكيافيلي (Machiavelli) وهؤلاء وسواهم نظموا اشعارهم على أسس الأوزان الشعرية العربية ، وبقيت هذه المؤثرات الشعرية واضحة في اسبانيا وصقلية وتوسكانا والبندقية .

ويلاحظ أيضاً بأن الشعر الأوروبي تأثر أيضاً « بالموشح » العربي الذي يرجح أن مبتكره هو مقدم بن معافى القبري الضرير (٢٢٥ - ٢٩٩ هـ ، ٨٤٠ - ٩١٢ م) كما تأثر بالزجل العربي (ينظم باللغة الدارجة بينما ينظم الموشح باللغة الفصحى) . وهذان النوعان من النظم اللذان ابتكرهما أهل الأندلس ، هما اللذان أثرا في نشأة الشعر الأوروبي . وأول من قال بهذه النظرية هو خليان ريبيرا (Julian Ribera) المستشرق الاسباني الذي عكف على دراسة موسيقى الأغاني الاسبانية ودواوين الشعراء « التروبادور » « والتروفير » (الشعراء الجواله في العصر الوسيط) والمينسنجر (Minnesanger) شعراء الغرام . وأكد على المؤثرات العربية الشعرية والموسيقية في الشعر والموسيقى الأوروبية .

ويؤكد المستشرق ليفي بروفنسال على وجود المؤثرات العربية الأندلسية في الشعر الأوروبي المعروف باسم « التروبادور » (Troubadours) الذي ظهر في جنوب ووسط فرنسا وفي شمالي شبه جزيرة ايبيريا وإيطاليا . وقد بلغ الأثر العربي والتأثر الغربي حد القول : « إن إحساس المسافر القشتالي أو اللبوني أو البشكنسي بالغربة وهو في اسبانيا الإسلامية أقل من إحساس المسلم الوافد من الشرق ومن شمال افريقيا أيضاً ، وذلك للإتصال القائم في الحياة اليومية » . أضيف إلى ذلك بأن ثلاثمائة وخمس وثلاثين (٣٣٥) قطعة شعرية من الشعر الشعبي الأندلسي هي من أصل أربعمائة (٤٠٠) قطعة شعرية يتألف منها مجموع أناشيد الفونس العاشر .

وكانت اشعار « التروبادور » تدور كأشعار عرب المشرق حول « الحب

العذرى» وهو ما اطلق عليه في اسبانيا «حب المروءة» والتمجيد للحب الروحي الذي تميزت به الآثار الشعرية الأوروبية. وانتشر في اوروبا اللفظ القائل: «أن المحب لمن يحب مطيع» (Qui amat obedit) وهو الموقف الذي سبق أن قام بإيراده وتحليله ابن حزم في كتابه «طوق الحمامة». كما أن العرب يسلكون حيال المحب التقدير والاحترام، ويخاطبون الأنثى بصفة المذكر كقولهم: «سيدي ومولاي وحبيبي»، ولا يقولون «سيدتي ومولاتي وحبيبتى». والشعراء التروبادور يسلكون هذا الأسلوب فيقولون: سيدي (Mio Cid) أو (Mldons) بدلاً من سيدي (Ma Donna) وهناك صفات مشتركة عديدة بين الشعر العربي الأندلسي وشعر التروبادور، كالهيام، والمدح، والأساليب الشعرية... ولقد حاول بعض الدارسين والمفكرين الغربيين إنكار التأثير العربي على شعر التروبادور. وقد رد المستشرق ليثي بروفنسال على هؤلاء بالقول: «إن اسبانيا الإسلامية كانت تعتبر بالنسبة لبلاد البحر المتوسط الأوروبية مركز الحضارة المترفة والحياة المتمدينة الناعمة... ولا ننسى أن كثيراً من قطع النسيج الثمينة والحلي والتحف التي كانت تزدان بها المقاصير الدينية أو تملأ علب سيدات المجتمع الإقطاعي في العصر الوسيط الأعلى إنما كان يأتي من الأندلس أو فارس أو العراق.. فأغلب اسماء النسيج تظهر في صورها العربية، وبعضها وهو أغناها يوصف بأنه قرطبي أو شامي أو عراقي. فلماذا إذن ينفر المجتمع الإقطاعي من أن يأخذ من الحضارة الأندلسية الإطار والأغراض التي أوحى إليه بمحاولاته الشعرية الأولى وهي أشبه شيء بألف باء شعره الغنائي الذي كان حينئذ يتلثم به؟ لماذا ينفر وقد اعارته هذه الحضارة طرق قص الشعر والثياب والعاج والحلي. ولم تكن الخلافات السياسية والدينية - التي كان من شأنها أن تفصل المسيحية عن الإسلام - من القوة بحيث تقيم بين العالمين حاجزاً غليظاً لا يمكن قهره والتغلب عليه»^(١).

ومن الأهمية الإشارة إلى أن التفاعل الحضاري في الأندلس لم يكن بين المسلمين والمسيحيين فحسب، وإنما كان أيضاً بين المسلمين أنفسهم القادمين من

(١) انظر: ليفي بروفنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، ص ٢٨٠ - ٢٩٦.

مناطق وبلدان متعددة من المشرق، وأيضاً بين مسلمي المشرق والمغرب والأندلس.

ويمثل عهد المرابطين، مظهراً من مظاهر هذا التفاعل والتبادل الحضاري. فالمرابطون منذ مطلع القرن الثاني عشر الميلادي بدأوا بالتفاعل مع البيئة الإسبانية، بل انهم «تأسبنوا» في عهد اميرهم يوسف بن تاشفين وابنه علي، وبعد وفاة يوسف كان اسم ابنه علي يذكر من فوق الفين وثلاثمائة منبر في مساجد المغرب والأندلس، وكانت الثقافة الأندلسية قد سادت في مراكش، وحرص الأمير علي على الإستمرار في الأخذ من هذه الحضارة، فوالدته نصرانية وهو من مواليد سبتة على البحر المتوسط، كما تلقى منذ الصغر الثقافة الأندلسية البحتة. ولم يكن مثله الأعلى أمراء المغرب الضعفاء الذين انتصر والده عليهم، وإنما كان همه التشبه بخلفاء قرطبة العظام وحجّاب بني عامر.

والحقيقة فإن إسبانيا أثرت كثيراً في مراكش التي قصدها عدد كبير من الأندلسيين للإقامة في بلاط الأمير بمراكش. وقد ذكر المؤرخ عبد الرحمن المراكشي هذا الواقع بقوله: «ولم يزل امير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصرف عنايته الى ذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع للملك، كأبي القاسم بن الجد المعروف بالأحذب أحد رجال البلاغة، وأبي بكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطرنة وأبي عبد الله ابن أبي الخصال، وأخيه أبي مروان وأبي محمد عبد المجيد بن عبدون...». كما أن الأندلسيين القادمين إلى بلاط الأمير ساهموا بما لديهم من تجارب بقسط كبير في الإصلاحات الإدارية والسياسية والعلمية، كما استعان علي بن يوسف بفرقة من جنود النصاري، وكلف بعض ضباطهم بأعمال هامة، بينها جباية الضرائب ومما قرّب العلماء إلى يوسف ومن بعده ابنه علي أن العلماء اعتبروا أن دولة المرابطين هي المنقذ للمسلمين من الإضمحلال ومن ملوك الطوائف في الأندلس.

الفصل التاسع

**طليطلة : من مراكز التبادل الحضاري
الإسلامي - المسيحي**

الفصل التاسع

طليطلة : من مراكز التبادل الحضاري الإسلامي - المسيحي

بقيت طليطلة (Toledo) في أيدي العرب من سنة ٧١٢ م إلى سنة ١٠٨٥ م ، أي حوالي أربعة قرون ، وقد غلبت العروبة على نصارى طليطلة ، قلبثوا نصارى ، ولكن اتخذوا اللغة العربية والثقافة العربية لأنفسهم وكانوا يقيمون صلواتهم وطقوسهم الكنسية باللغتين العربية والقوطية . وصار الأسبان يطلقون عليهم اسم « موزاراب » (Mozarabes) أي نصف عرب .

وكانت طليطلة في عهد المأمون مزيجاً من التراث الشرقي والغربي والإسلامي - المسيحي . وقد ازدهرت هذه المدينة ازدهاراً قوياً في عهده نتيجة العلاقات الحضارية التي نشأت فيها . ولم تمنعه حروبه المتصلة مع جيرانه من ملوك الطوائف من أن يكفل لعاصمته ازدهاراً لم يتهاها لها من قبل . إذ ضم بلاط طليطلة نخبة الإرسقراطية الأندلسية . وكان القصر الملكي فيها تحفة في الفن الهندسي والمعماري . وذكر المقرئ « نفح الطيب جـ ٢ » بأن المأمون بنى في طليطلة قصراً تأنق في بنائه وانفق فيه مالا كثيراً . وفي وصف لحفل قيل فيه : « ... واحضر فيه جميع آلات الأنس ، فلما استوى بالقوم مجلسهم ، وشرأبوا إلى الأخذ في شأنهم .. وقد مدت ستارة الغناء لأهل الحجاب ، ونظمت نوبة المغنين زمراً ، فهاجوا الأطراب واستخفوا الأبواب .. » ويذكر بروفنسال ، بأن قصر المأمون مثل في نظر الأندلسيين وجيرانهم المسيحيين غاية من الرشاقة والترف ، وقد تأثروا به كثيراً . ولم يكن يضارع طليطلة من المدن الإسبانية سوى سرقسطة وبلنسية وإشبيلية . وأضاف بأن طليطلة رغم اختلاف سكانها ، فإن المسلمين والمسيحيين واليهود

عاشوا فيها متأخين في كل شيء . وكانت طليطلة من أنشط مراكز الثقافة فلم ينقطع وجود الشعراء في بلاط المأمون الذي كان يشجع بدوره الدراسات الإسلامية . وقد قام الكثير من مشاهير فقهاء مملكته بالتعليم في عهده في جامع طليطلة الكبير ومن هؤلاء : ابن القرطبي (المتوفى ٤٦٧ هـ) وأبو الوليد أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد (المتوفى ٤٤٩ هـ) وأبو زيد عبد الرحمن بن الحشاد قاضي طليطلة (المتوفى ٤٧٣ هـ) وأبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن حمد بن صاعد الشهير صاحب كتاب « طبقات الامم » وهو موجز في تاريخ العلوم ، ذاع صيته فترة طويلة في الشرق وأخذوا عنه .

ويذكر بأن ألفونس السادس عندما احتل طليطلة سنة ٤٧٨ هـ - ١٠٨٥ م حرص على تعيين قائد مستعرب على المدينة ، يستطيع التفاهم مع المسلمين ، هو الكونت المستعرب « ششند » (Sinando Davidiz) الذي كان على درجة كبيرة من التسامح ، وقد عمل ما بوسعه لمنع ألفونس من نقض موثيقه وعهوده المعطاة للمأمون قبل وفاته ، وللمواريث التي سبق أن أبرمها في أيار (مايو) ١٠٨٥ م مع مسلمي طليطلة . غير أن الفئات النصرانية أصرت على تحويل مسجد طليطلة إلى كنيسة ، وكان ذلك بتأثير من رهبان « كلوني » (Cluny) الفرنسيين الذين وفدوا من فرنسا إلى اسبانيا ، وبتأثير من « برنار » (Bernard) رئيس أساقفة « دير سهاجون » (أسقف طليطلة فيما بعد) . ويقال بأن ألفونسو استشاط غضباً عند سماعه هذا الخبر ، كما أن مسلمي طليطلة سعوا لدى الملك ومنعوه من إنزال عقاب شديد بالأسقف .

وكان ألفونس السادس متأثراً ببعض العادات والتقاليد الإسلامية ، كما تزيأ بزي المسلمين ، ورفض بعض النصائح بلبس زي الأفرنج الذين كانوا يحكمون قبل المسلمين . ويقول ابن بسام « الذخيرة » : « وقد حدثت أن شيعة أدفونش - لعنهم الله وبددها - أشاروا عليه يومئذ بلبس التاج ، وزينوا له زي من سلف بالجزيرة قبل فتح المسلمين إياها من إعلاج . فقال : لا ، حتى أطأ ذروة الملك وأخذ

قرطبتهم واسطة السلك . وكان أعد لمسجدها الجامع ناقوساً تأنق في إبداعه وتجاوز الحد في استنباطه واختراعه .

وبالرغم من بعض التناقض في مواقف ألفونس من المسلمين في طليطلة غير أنه ما لبث أن أطلق عليه بالعربية لقب « الأمبراطور ذي الملتين » أي الإسلام والمسيحية ويقابلها في اللاتينية (Imperatur totius hispaniae) . وبالرغم من الذهول الذي أصاب المغرب العربي بسبب سقوط طليطلة ، وبالرغم من الاستعدادات العسكرية لابن تاشفين لاستعادتها ، وبالرغم من أن طليطلة قد تنصرت ، غير أنها لم تخل من سكانها المسلمين الذين استمروا فيها لفترات طويلة كأكبر جالية إسلامية في اسبانيا التي استردها المسيحيون . ولا بد من الإشارة الى أن زوجة ألفونس المسلمة المعروفة باسم « زائدة المسلمة » أثرت على سياسة زوجها حيال المسلمين بالرغم من تنصرها فيما بعد واعتناقها الكاثوليكية ، وقد عمدت باسم ايزابيلا . وكان الزواج المختلط بين المسلمين والمسيحيين أمراً شائعاً في اسبانيا . بل أن ألفونس لم يمانع بعد سيطرته على طليطلة من سك العملة وضربها بالنقوش والأحرف العربية . كما أن رودريجو دياز ، بعد احتلاله لبلمنية ١٠٩٤ م أقر المسلمين على تشريعاتهم وتقاليدهم وعاداتهم علماً أنه اضطهدهم فيما بعد وغير من سياسته . والحقيقة فإن سكان طليطلة ظلوا متمسكين باستخدام اللغة العربية في تجارتهم ومعاملاتهم وجميع صكوكهم ، وذلك إلى سنة ١٥٨٠ م . بل أن النقش على قبورهم كتب بالعربية واللاتينية لاسيما قبور النصارى الأسبان المستعربة ، وقد وجدت عدة قبور في طليطلة تعود إلى الأعوام ١١٥٦ - ١١٦٠ م نقشت عليها الكتابة باللغتين ، ابتداءً بعضها بالتعابير الإسلامية والقرآنية مثل البسملة ، مثال ذلك وجد قبر وقد كتب عليه « بسم الله الرحمن الرحيم » ، كان من مضي لله برحمته مقاييل بن سمنة من دار الدنيا إلى دار الآخرة يوم الأحد ماضي من نونبر أربعة أيام سنة أربعة وتسعين ومائة وألف لتاريخ الصفر نضر وجهه . . . » .

ولا بد من التأكيد بأن اللغة العربية لم تنته من اسبانيا إلا في القرن السادس عشر الميلادي ، وذلك بعد محاربتها رسمياً والتهديد بمعاقبة كل من يتكلم العربية

من الاسبان في طليطلة أو يكتب بها . وقد جمع العلامة الأسباني المدردي « انجل غونزاليز بالانسيه » (Angel Conzales Balencia) تحت عنوان « نصف عرب ، أو موزاراب طليطلة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر » ثلاثة مجلدات تقارب الألف صفحة تضم عدداً كبيراً من الصكوك والوثائق والمعاملات ، كلها باللغة العربية . ويلاحظ في بعض هذه الصكوك اختلاط الاسماء العربية بالأجنبية ، فبينما الأب هو عمر فإذا الابن هو بطرة ، وبينما الأب هو عبد العزيز ، فإذا الابن هو ميقبال ، ومرتين بن عثمان وشلبطور بن عبد الرحمن ودون شبيب بن عبد الرحمن .. ولا غرو في ذلك فقد حدث أنه في زمن الخليفة عبد الرحمن الناصر أن احد المطارنة المسيحيين في طليطلة (أسقف إشبيلية فيما بعد) كان اسمه عبيد الله بن قاسم ، كما عرف قس باسم القس ماير عبد العزيز بن سهيل ^(١) .

إن تلك الأسماء المختلطة الإسلامية - النصرانية تعود إلى ما بعد استرداد طليطلة سنة ١٠٨٥ م وبعد البدء بتنصير المسلمين فيها ، غير أن بعض المسلمين بقوا على إسلامهم ، وكان لا يزال عدد منهم إلى أوائل القرن السابع عشر الميلادي في طليطلة يتزيا بزي النصارى . وكان بعض المسلمين الذين تعرضوا للضغوطات قد تنصروا علانية وبقوا على إسلامهم سراً ، وكانوا يعلمون أولادهم الصغار سراً تعاليم الإسلام ، ويوصونهم كتم ذلك وعدم ذكره لأي إنسان خوفاً من الحرق والإبادة . وقد روى مثل هذه الحوادث المؤرخ العالم سيدي محمد بن عبد الرفيق الأندلسي (المتوفى في رجب ١٠٥٢ هـ) والذي كان والده يعلمه الإسلام سراً . ولقد تبين أيضاً أنه كان في جيان وغرناطة وإشبيلية وقرطبة ، حتى القرن السابع عشر الميلادي ، أناس لا يزالون يدينون بالإسلام سراً . بل اللافت للنظر أن عادات وتقاليد الإسلام استمرت في الأندلس إلى القرن العشرين ومنها أن أهالي طليطلة كانوا لا يزالون يذبحون الخراف في يوم عيد الأضحى ويقولون إنها عادة توارثوها عن آبائهم وأجدادهم .

(١) الأمير شكيب أرسلان : الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، ج ١ ، ص ٣٦٦ .

وكانت طليطلة من المراكز العلمية الهامة ومما اسبغ عليها مكانة علمية ممتازة مدرسة المترجمين التي انشئت بها والجهود الحثيثة التي بذلت فيها لترجمة العلوم العربية، وخاصة كتب ابن رشد وكان « ميخائيل سكوت » (Michael Scottus) أحد علماء هذه المدرسة، وهو أول من نقل مؤلفات ابن رشد من العربية الى اللاتينية. ومهد بهذا الطريق امام الفلسفة الإسلامية للعبور الى الفكر الأوروبي والتأثير فيه. ومن أكثر الذين تأثروا بفلسفة ابن رشد القديس « توما الأكويني » الذي استفاد منها وتعلمذ عليها، ثم انقلب أخيراً ضدها. وبعد فترة من الزمن كانت جامعة باريس خير مركز احتضن افكار ابن رشد ورعاها ودرسها. ومع حركة الاسترداد المسيحي ازدادت حركة الترجمة وعنت بالدرجة الأولى بترجمة مؤلفات الطب والفلسفة والرياضيات. كما استتبع ذلك ترجمة القرآن الكريم وترجمة سيرة الرسول محمد (ﷺ). بالإضافة إلى تأليف المعاجم اللاتينية - العربية، وذلك لفهم اللغة العربية وتاريخ العرب والإسلام. والحقيقة فقد تطورت حركة الترجمة في طليطلة بصورة واضحة في عهد الملك ألفونسو العاشر الملقب « بالعالم » (Elsabio) في القرن الثالث عشر. فاستعان لتحقيق النهضة العلمية بعدد كبير من العلماء المسلمين والمستعربين واليهود. وقد انتهت هذه الترجمات بقالب لاتيني ومن ثم قشتالي^(١).

ومن الأهمية بمكان القول، بأن طليطلة بعد سقوطها بأيدي المسيحيين ١٠٨٥ م، استمرت من المراكز العلمية الهامة، وتدفق طلاب العلوم من غربي أوروبا اليها والى المدن الأسبانية لتعلم العلوم والدراسات الإسلامية. ونشطت حركة الترجمة من العربية الى اللاتينية واستمرت نشطة الى القرن الخامس عشر الميلادي وقد ترجم الى اللاتينية الكثير من مؤلفات العرب في مختلف العلوم والفنون، كما ترجم عن العربية الكثير من مؤلفات اليونانيين المعربة مثال كتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو وسواهم. وقد وجد من الحكام الأسبان

(١) د. جمال الدين الشيتال، المرجع السابق، ص ٢٢ - ٢٥.

من قدروا العلوم والثقافة الإسلامية والعربية، فاستفادوا منها وشجعوا على نقلها ومن هؤلاء: ألفونس الخامس (الحكيم) (١٢٥٢-١٢٨٤ م) ملك قشتالة وليون. وبالمقابل فقد وجد بعض المتعصبين ضد الحضارة الإسلامية مثال رئيس أساقفة «اكزيميس» الذي أمر بإحراق ثمانين ألف كتاب من كتب العرب والمسلمين بعد جلائهم عن الأندلس. فيما تشير مصادر بعض المستشرقين إلى أن رجال الأسقف أحرقوا مليوناً وخمسة آلاف من المجلدات هي مجهود العرب في الأندلس وثمره نهضتهم خلال ثمانية قرون. بالرغم من أن رئيس الأساقفة سبق له أن اعترف بحاجة الأسبان إلى علوم وصناعة المسلمين بقوله: «ينقصهم إيماننا وتنقصنا صناعاتهم»^(١).

ولقد استمرت المؤثرات العربية والإسلامية في اسبانيا بعد استرداد المسيحيين لها، فبعد تحويل المساجد إلى كنائس، بنيت كنائس جديدة جاءت تقليداً للفن المعماري الإسلامي الأندلسي، وظهر تقليد العرب في نقش الكتابات على جدران المباني العامة وكتابة الخطوط ووضعها على الأبواب ولما بنى الملك بترو الملعب بالغاشم (القصر) (Alcazar) بناه على الطراز العربي بأيدي بنائين من العرب. ومن القصور الأسبانية المبنية على الطراز العربي قصر «الانفانتادو» في وادي الحجارة وقصر «كازادل كردون» (Casa del cardon) في برغش، وهو من بناء مهندس عربي اسمه محمد من سقوية، وتاريخ بنائه يرجع إلى القرن الخامس عشر^(٢). وهناك الكثير من المهندسين الإيطاليين ممن زاروا اسبانيا وتأثروا بالفن المعماري الإسلامي فنقلوا مؤثراته وملاحمته إلى إيطاليا رغم تطور فن البناء الإيطالي. كما

(١) انظر: زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبا، ص ٥٣٢، ٥٣٥، د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، ص ٥٢-٥٣، ١٩٠.
(٢) الأمير شكيب ارسلان، المرجع السابق، ج ١، ص ٣٠٨-٣٠٩. للمزيد من التفاصيل عن الآثار المعمارية في الأندلس من أسوار وحصون وأبراج انظر:

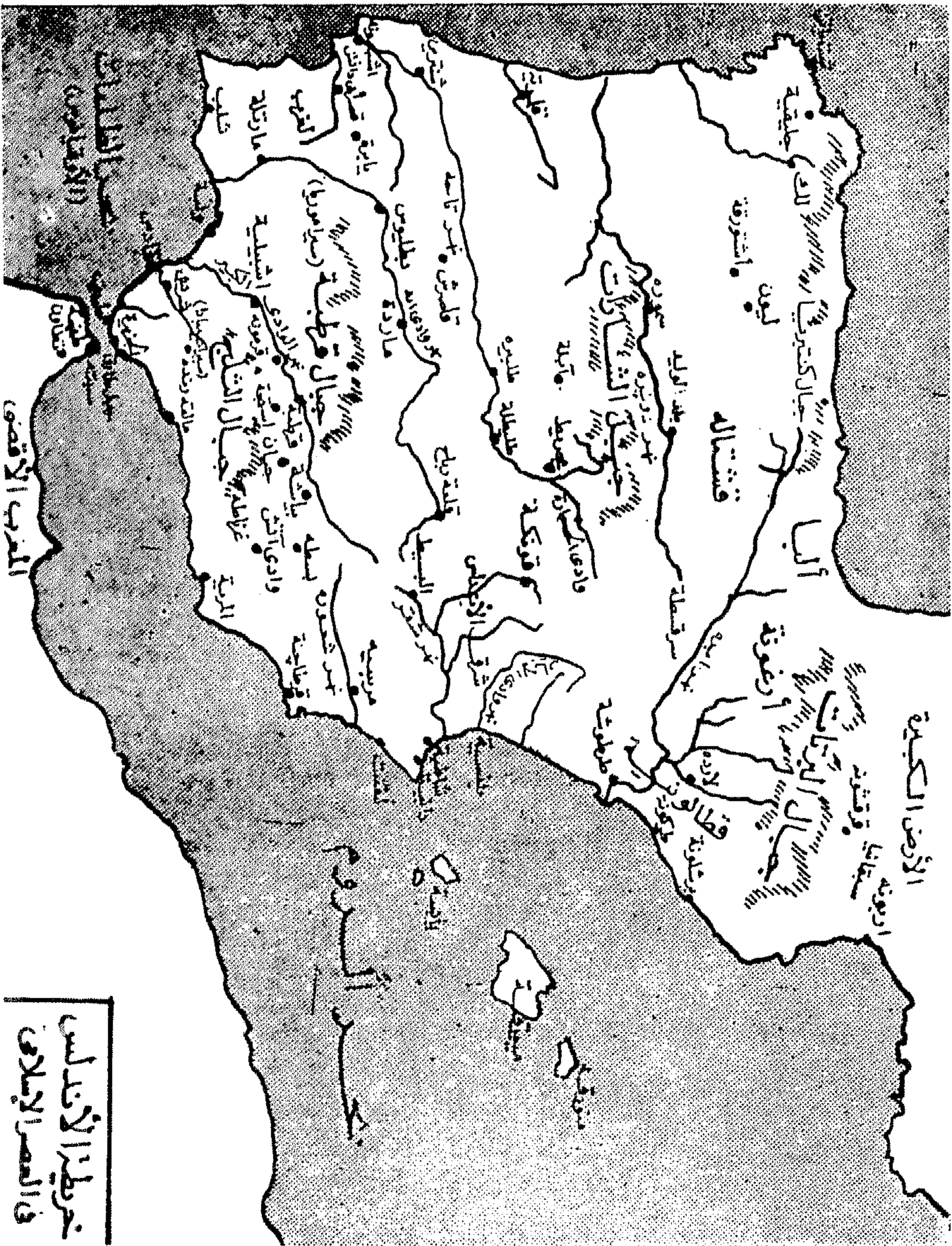
Lévi-Provençal; L'Espagne Musulmane aux xe siècle, p. 149...

Lévi-Provençal; Histolre de L'Espagne Musulmane, T. III, p. 64...

حمل لواء الحضارة الإسلامية من الأندلس إلى أوروبا فرسان إيطاليا وفرنسا
والمانيا وانجلترا، والأسرى الأوروبيون الذين عادوا من قرطبة وسرقسطة وغيرها
من مراكز الثقافة الأندلسية. كما مثل تجار ليون وجنوى والبندقية ونورمبرج دور
الوسيط بين المدن الأوروبية والمدن الأندلسية، كما احتك الحجاج الأوروبيون
المسيحيون في طريقهم إلى سانت ياجو بالتجار المسلمين والحجاج المسيحيين القادمين
من شمال الأندلس فنقلوا معهم المؤثرات الإسلامية والعربية.

الخرائط والصور^[*]

(*) هذه الخرائط والصور مأخوذة من: د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، وقرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي.



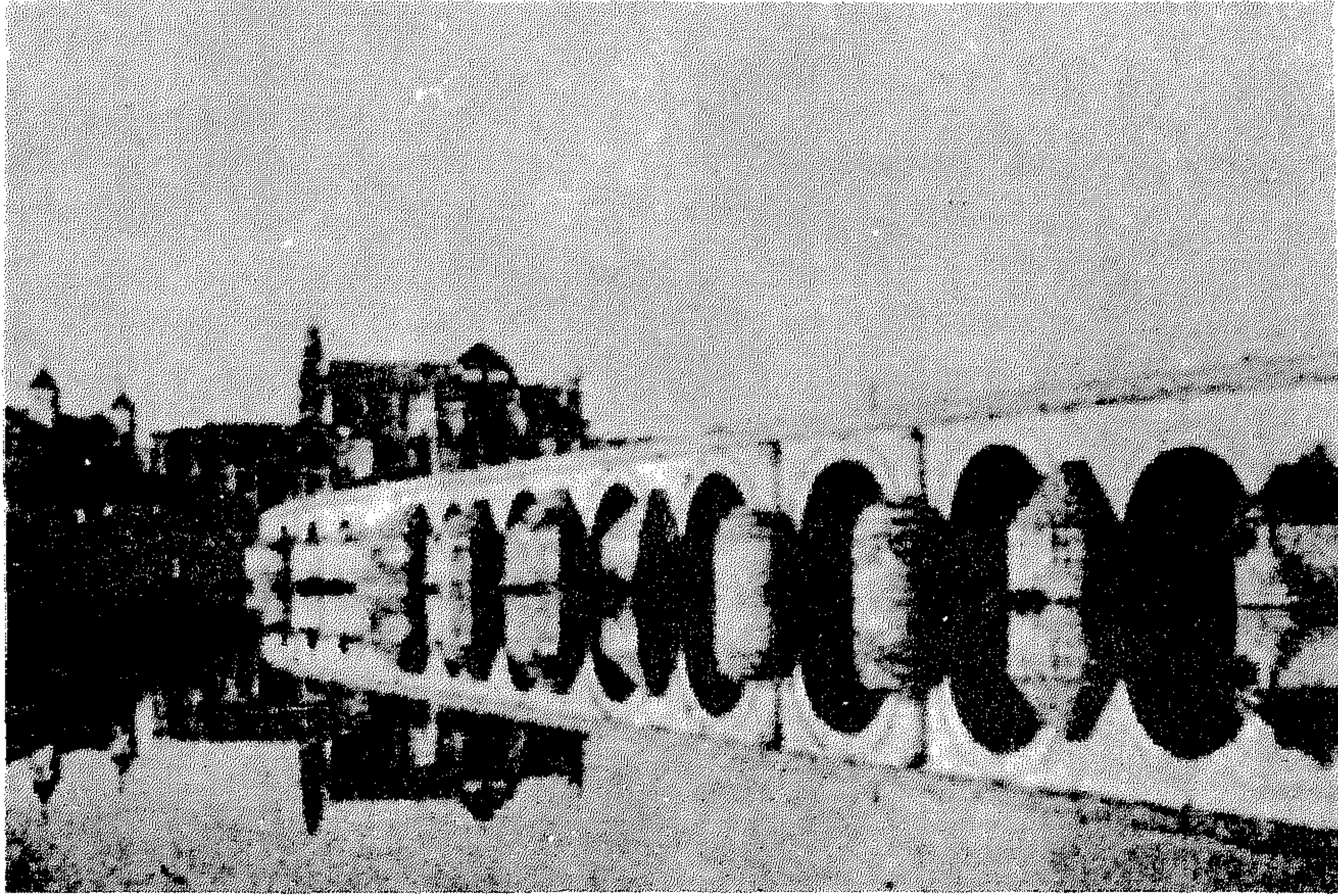
خريطة الأندلس في العصر الاسلامي



جامع قرطبة الشهير (الحمراء)



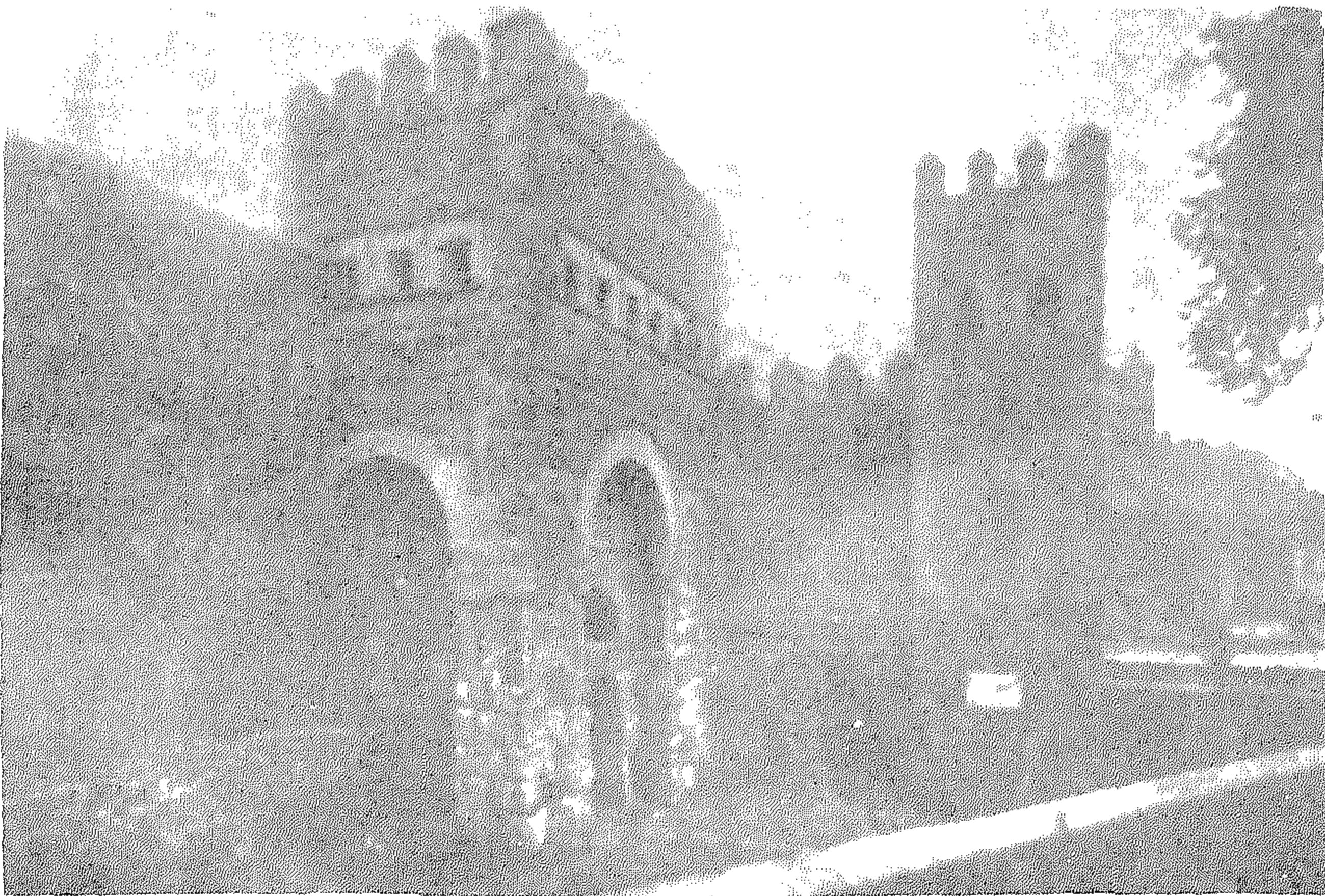
العقود المتشابكة في مقصورة جامع قرطبة .



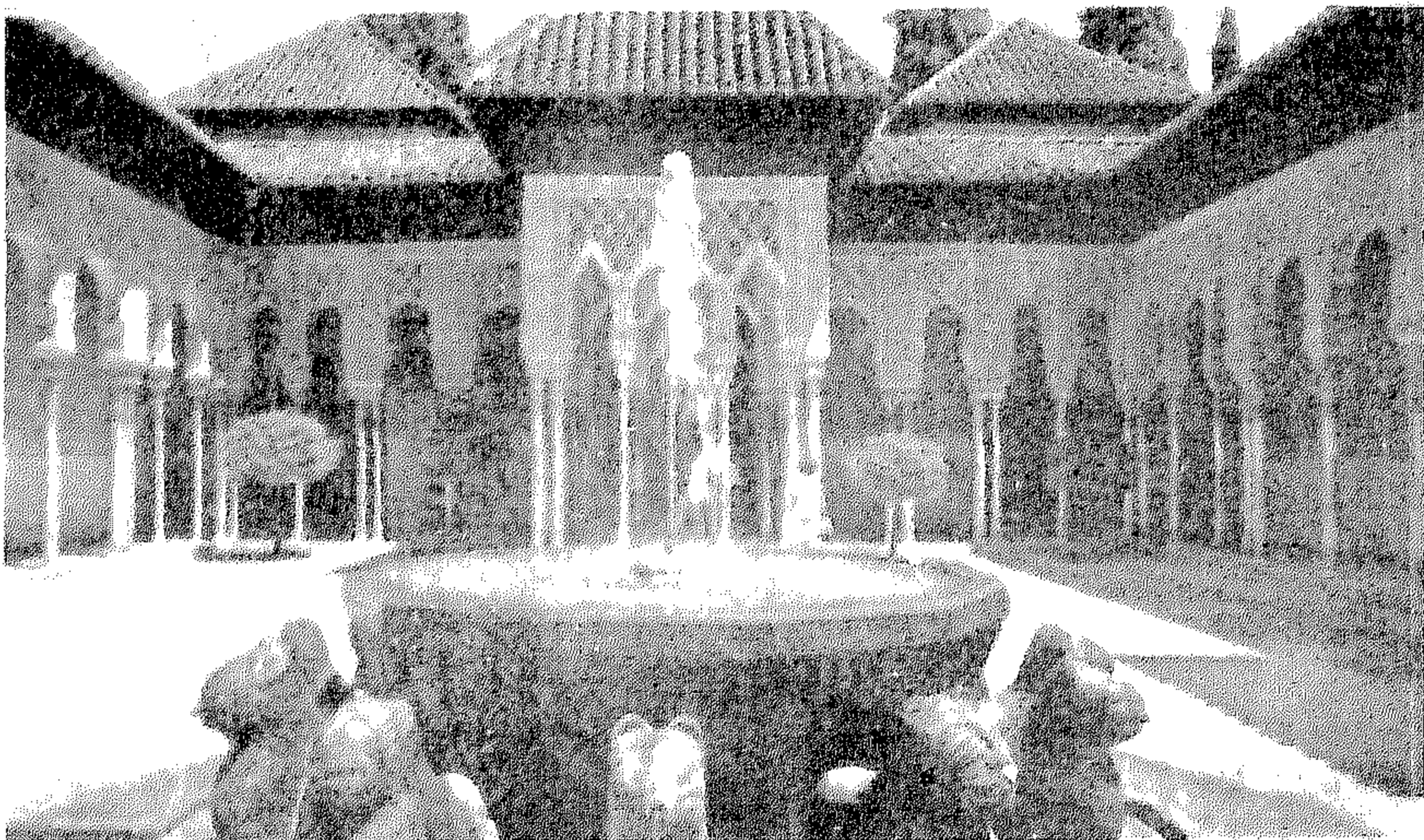
قنطرة قرطبة على الوادي الكبير



باب المدور من أبواب قرطبة



باب شاقرة من أبواب طليطلة



ساحة الأسود في قصر الحمراء



مدينة غرناطة

القسم الثاني

العلاقات الاسلامية - المسيحية

في

صقلية

الفصل الأول

مقدمة في تاريخ صقلية

الفصل الأول

مقدمة في تاريخ صقلية

تقع جزيرة صقلية بين ساحل ايطاليا الجنوبي وبين الساحل الفرنسي القريب منها جنوباً. وصقلية (Sicily) شبيهة بمثلث ضخم أطرافه ثلاثة رؤوس. وهي محاطة بثلاثة أبحر: البحر اليوني (Mare Ionio) شرقاً، والبحر التيريني (Mare Terreno) شمالاً والبحر الصقلي أو الأفريقي جنوباً وغرباً. ويمكن تقسيم صقلية إلى ثلاثة أقاليم جغرافية هي: اقليم مازر (Val de Mazara) واطليم نوطس (Val di Noto) واطليم دمنش (Val Demone). أما مساحة صقلية فهي خمسة وعشرون ألفاً وأربعمئة وستون كلم (٢٥,٤٦٠ كلم). وأهم مدنها عاصمتها بالرمو (Palermo) وترميني ايمريسه (Termini Imerese) واتراباني (Trapani) ومرسالا (مرسى علي) (Marsala) ومازر أومزاره (Mazara) وكركنته (Agrigenta) وجيليه (Gela) وسيراكوزه (Siracuse) وأوغوسطه (Augusta) وكتانيه (Catania) ومسينا (Messina) وعلقامو (من علقمة) (Alcamo) وسواها من المناطق والمدن. أما عدد سكانها في فترة الحكم العربي فكان يقارب مليوناً وستمئة ألف نسمة (١,٦٠٠,٠٠٠) وهي كثافة سكانية عالية بالنسبة لتلك الفترة، بينهم ستمئة ألف من المسلمين^(١).

كانت صقلية من حيث موقعها الجغرافي معرضة لهجمات المسلمين من جهتين:

(١) د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، ص ١-٣. د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص ٨.

من بلاد الشام ومن أفريقية. فهاجها معاوية بن أبي سفيان والي الشام في زمن الخليفة عثمان بن عفان مرتين: مرة عام ٦٥٠ م من سواحل الشام (لبنان) عندما كان والياً، ومرة عام ٦٧٠ م من بلاد المغرب العربي (أفريقية) عندما أصبح خليفة. غير أن هذه الغزوات لم تكن منظمة أو قوية ولهذا لم يتسن للعرب السيطرة على صقلية في تلك الفترة. هذا وقد تكررت الغزوات العربية على صقلية في أوائل القرن الثامن الميلادي. فبعد السيطرة على الأندلس، بعث موسى بن نصير عام ٧٠٤ أسطولاً صغيراً بقيادة ابنه عبد الله لغزو صقلية وسردينية و-نزر البليار فاحتلها بشكل مؤقت. وفي عام ٧٢٧ م غزا العرب صقلية بقيادة بشر بن صفوان. ثم تعرضت صقلية لغزوتين من العرب في عامي ٧٢٨ - ٧٢٩ م بقيادة عثمان بن أبي عبيدة وبقيادة المستنير بن الحجاب^(١).

والحقيقة فإن المسلمين استمروا في محاولاتهم باستمرار للسيطرة على هذه الجزيرة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام ونظراً لخطورتها على البلاد الإسلامية والعربية، ولأنها كانت منطقة وقاعدة لهجمات البيزنطيين والروم والبربر (الهاربين إليها) على العرب في برقة وبلاد المغرب، وعلى الأساطيل الإسلامية ومراكب المسلمين^(٢). واستمر هذا التجاذب العسكري إلى أن ولّى الخليفة هارون الرشيد إبراهيم بن الأغلب على أفريقية الذي عانى من عدم الاستقرار السياسي والعسكري في تعامله مع البيزنطيين. وفي عهد ولاية ابنه عبد الله عام ٨١٢ م بديء ببناء أسطول بحري قوي، وفي المقابل بدأ البيزنطيون يعززون أسطولهم لمواجهة المسلمين. وبين عامي ٨١٩ - ٨٢٠ م قام محمد بن عبد الله بن الأغلب بحملة ضد صقلية، انتصر فيها المسلمون ثم انسحبوا من الجزيرة.

وفي عهد الوالي زيادة الله الأول (حكم بين ٨١٧ - ٨٣٨ م) والي دولة

(١) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٦-٧.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول واقع صقلية في العهد البيزنطي انظر: Bury: History of the Eastern Roman Empire.

الأغلبة في تونس، تمّ الاعداد لغزو جزيرة صقلية، الذي أوكل قيادة الحملة الى قاضي القيروان أسد بن الفرات الخراساني. ففي ١٤ حزيران (يونيه) ٢١٢ هـ - ٨٢٧ م أقلعت قوات أسد بن الفرات من ميناء سوسة، وكانت مؤلفة من الأفارقة والأندلسيين المقيمين في تونس ومن المسلمين الخراسانيين. وقد بلغ عددهم ما يقارب عشرة آلاف وسبعمئة رجل وفارس (١٠٧٠٠)، أبحروا على متن مائة مركب. ولما وصل المسلمون إلى صقلية، لاقتهم القوات المسيحية في بالرمو، وقد استمر القتال في الجزيرة أكثر من سنتين، عانى المسلمون خلالها معاناة كبيرة، فحاققت بهم الأخطار والمجاعة والأمراض. غير أن أسد بن الفرات رفض دعوة بعض معاونيه العودة إلى تونس، وفضل الاستشهاد على العودة. وتابع غزوته الى ان استشهد عام ٢١٣ هـ - ٨٢٨ م عند أسوار مدينة سرقوسة (سيراكوزة). وكان تصميمه على الاستمرار في القتال قد أحرز نتيجة ثابتة للمسلمين في الجزيرة، كانت مقدمة لافتتاح الجزيرة بأسرها. وبعد استشهاد عتيّن مكانه القائد محمد بن أبي الجواري وكان المسلمون في حالة يائسة بعد محاصرتهم من قبل البيزنطيين، ولكن ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجنود جاءتهم بالنجدة من أفريقية أصلحت أوضاعهم العسكرية، فاستأنفوا الزحف وتمكنوا من فتح بالرمو العاصمة في عام ٨١٣ م^(١).

ومن اللافت للنظر أن المسلمين لم يستطيعوا فتح صقلية بسهولة أو بسرعة ففي حين تمّ فتح الأندلس في حوالي ثلاث سنوات، استغرق فتح صقلية ما يقرب الثمانين عاماً، ولم تتم السيطرة عليها نهائياً إلا في العام ٩٠٢ م. والسبب في تفاوت فترة السيطرة في الأندلس عنها في صقلية، أن العرب في اسبانيا لم يجدوا أمامهم إلا حكماً محلياً محدوداً لا يعتمد إلا على قواه الذاتية المحلية، بينما واجهتهم في صقلية امبراطورية قوية يدها الشرق والغرب بقواهما، كما أنها كانت امبراطورية

(١) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٨-٩. د. عزيز احمد: تاريخ صقلية الإسلامية، ص ١٥-١٧.

بحرية تمتلك الأساطيل الكبرى والقواعد البحرية والبرية معاً. غير أنه من اللافت للنظر أيضاً، هو التصميم والإرادة والمثابرة العربية والإسلامية التي تمثلت في رفض التراجع عن الهدف، والعمل على تحقيقه ولو بعد ثمانين من الأعوام.

في عام ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م انتهى حكم الأغالبة في المغرب، وقضى الفاطميون عليهم في أفريقية، ومن ثم فقد دخلت صقلية تحت الحكم الفاطمي اسماً لا سيما في عهد أسرة الكلبيين (٩٤٨ هـ - ١٠٥٢ م). وقد تمتعت صقلية في هذا العهد باستقلال ذاتي. غير أن صقلية لم تنعم كثيراً بالاستقرار لا سيما بعد سقوط دولة الكلبيين^(١) عام ١٠٥٢ م، فقد شهدت اضطرابات وثورات وحروباً أهلية، كانت بوادرها وجذورها قد بدأت في عهد الكلبيين، وكان ذلك من أسباب تدهور الحكم العربي الإسلامي وضعفه، الأمر الذي أدى أخيراً إلى سيطرة النورمان (أهل الشمال) (North-Men) على جزيرة صقلية. وعلى حد قول المؤرخ ابن أبي دينار في كتابه: المؤنس، من أن أسباب هلاك مسلمي صقلية الحسد والشقاق.

ولا بد من الإشارة إلى أن انتهاء الحكم الإسلامي والعربي في صقلية^(٢) لا يعني انتهاء حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم. فقد تمتعت صقلية خلال العهدين الأغلبي والفاطمي بحكم إسلامي مزدهر، فانتشر المسلمون فيها وانتشرت معهم الحضارة الإسلامية في بالرمو ومسينا وسرقوسة وسواها، وانتشرت فيها القصور والمساجد^(٣) والبيمارستانات والأسواق والأسوار والقلاع والقناطر، وصناعة الورق والسفن والحرير والفسيفساء والكبريت، واستخرج المسلمون النفط والرصاص والحديد. وشاركوا في ميادين التجارة والصناعة. ونشروا اللغة العربية، كما نشروا

(١) نسبة إلى المنصور الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي.

(٢) انتهى الحكم العربي في صقلية قبل خروج العرب من إسبانيا بأربعمئة عام.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في إسبانيا وصقلية، ص ٨٩ -

عاداتهم وتقاليدهم . واستمر حكمهم في الجزيرة ما يقارب قرنين ونصف القرن من الزمن (من أوائل القرن الثالث الهجري إلى أواخر القرن الخامس الهجري - من التاسع الميلادي الى القرن الحادي عشر الميلادي) . ومما يلاحظ بأن النورمان بعد أن استعادوا بالرمو سكوا نقوداً كانت تحمل في أحد وجهيها آية قرآنية كريمة هي ﴿ هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾^(١) .

وقد استمر تأثير المسلمين في صقلية بعد انتهاء حكمهم مدة تقارب قرنين من الزمن ، ولا تزال آثارهم ماثلة إلى الآن في الجزيرة . وقد استمر التمازج الحضاري بين المسلمين والمسيحيين في صقلية رغم سيطرة النورمان عليها . فرغم الاضطرابات في صقلية أثناء الحكم الاسلامي ، غير أن الأنشطة الفكرية ظهرت واضحة في فترة هذا الحكم ، وكانت قاعدة مؤثرة فيما بعد في التراث النورماني والصقلي ، والغربي ، ومن بين العلماء المسلمين في صقلية نذكر على سبيل المثال لا الحصر علياً بن حمزة البصري (المتوفى في صقلية عام ٨٩٥ م) وكان لغويّاً وأديباً ، وابن البر شارح ديوان المتنبي ، ومحمد بن خراسان النحوي من علماء القرآن الكريم ، واسماعيل بن خلف الصقلي عالم في فن النحو وفن القراءات ، وأبا العباس من علماء الحديث ، ومحمد بن ابراهيم التميمي الصقلي وهو عالم آخر من علماء الحديث . كما ظهرت في صقلية الكثير من الكتب والدراسات الفقهية والأدبية والنحوية والعلمية ، فالعالم عبد الله الصقلي ترجم إلى العربية رسالة في علم النبات ، وكان عبد الله محمد بن الحسن بن الطازي طبيباً وشاعراً وأديباً ، وكان أبو سعيد بن ابراهيم طبيباً وصيدلياً ، وكان أبو بكر الصقلي طبيباً عالماً ماهراً أورده ابن أبي أصيبعة في مصنفه . كما وضع أبو العباس أحمد بن عبد السلام شرحاً لأحد مصنفات ابن سينا الطبية . وهناك من العلماء والأدباء الصقليين من العرب والمسلمين مما لا يتسع المجال لذكرهم في هذه الدراسة الموجزة^(٢)

(١) سورة الصف ، الآية ٩ .

(٢) للمزيد من التفاصيل انظر : د . عزيز أحمد : تاريخ صقلية الاسلامية ، ص ٤٩ - ٥٦ .

الفصل الثاني

العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين في العهد النورماني

الفصل الثاني

العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين في العهد النورماني

تولى روجر الأول (Roger I) حكم صقلية بين (١٠٩٢ - ١١٠١ م) وقد تخوف بعض المسلمين فغادروا الجزيرة، بينما استقر آخرون، وغيروا نسبتهم الى صقلية بقلب اليا ووضعا قبل القاف، فأصبحوا يعرفون باسم الصياقلة (صيقلي)، والحقيقة فإن روجر (رجار) عامل المسلمين معاملة حسنة، فعمل على استمالتهم وحمايتهم وأقرهم على ديانتهم وأعيادهم، وجند منهم فرقة في جيشه، وقد رفض الاشتراك في الحملات الصليبية على المشرق العربي رغم الحاح البابا^(١). ومن يطلع على كتاب الأدريسي يرى أن ما من منطقة في صقلية إلا وكانت تضم المساجد والجوامع. مما دعا القزويني إلى انتقاد مسلمي بلرمو لكثرة ما وجد من المساجد^(٢). ويذكر أنه لما ذهب (رجار) إلى نابولي لضرب الحصار على مدينة كابوا (Capua) استصحب معه جيشاً اسلامياً. وقد زاره في معسكره الأسقف انسلمو الكنتربري الكاثوليكي، فوجد أن الجنود المسلمين يحتفون ويكرمون الملك روجر مما حمله على الظن بأنهم يميلون لاعتناق المسيحية، فسأل الأسقف حاشية روجر: لماذا لم يأمرهم الكونت بالتنصر؟ فكان جوابهم بصوت واحد لا تقل هكذا، بل منع رجار المسلمين أشد المنع عن ترك دينهم^(٣). ويذكر العالم الجغرافي الأدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) أنه

(١) د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ٧٥.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد. المكتبة الصقلية، ص ١٤٠.

(٣) د. مارتينو ماريو مورينو، المسلمون في صقلية، ص ١٩ - ٢٠.

لما صار أمرها [أي الجزيرة] إليه واستقر بها سرير ملكه ، نشر سيرة العدل في أهلها وأقرهم على أديانهم وشرائعهم وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهلهم وذرائعهم . ثم أقام على ذلك مدة حياته إلى أن وافاه الأجل المحتوم ، وتقضاه يومه المعلوم ^(١) . ومن يطلع على مجمل كتاب الأدريسي يستطلع مدحاً متزايداً لرجار بن تغريد ولابنه من بعده . ولعل اكرامه واحترامه كان السبب في كثرة هذا المدح .

والحقيقة فإن روجر أخذ عن العرب والمسلمين النظم التي اعتمدها كما أخذ عنهم أساليبهم في إدارة البلاد وفي الدواوين والنظم المالية والضرائب والوظيفية . كما أخذ عنهم طرق حصر الأملاك العامة وإدارتها . وبالتالي فقد تأثر روجر الأول بالتنظيمات العربية العسكرية . فاقتبس الأنظمة الخاصة بالجيش البرية والبحرية ، وطبقها على قواته وأدخلها في النظام العسكري في صقلية .

وفي فترة حكم روجر الأول طرأ تحسن في العلاقات بينه وبين البابا . غير أن الخلافات استمرت بينهما بشأن تنصير مسلمي صقلية . ففي حين كان البابا يرى ضرورة تنصير المسلمين لأنهاء الوجود الإسلامي تماماً في صقلية ولزيادة عدد المسيحيين في الجزيرة ، كان روجر يرى أن الزمن كفيل بتنصير المسلمين . كما كان يرى أن استمرار هجرة النصارى من شبه الجزيرة الإيطالية هو الكفيل بإعطاء الدين المسيحي مكان الصدارة بوصفه الدين الرسمي للجزيرة . ولهذا وبالرغم من معاملة روجر الأول الحسنة للمسلمين ، غير أنه لم يتردد في إعادة الكنائس إلى وضعها القديم ، بعد أن كان المسلمون قد حولوها إلى مساجد ، غير أنه لم يمس مساجدهم التي بنوها بأنفسهم . علماً أن المصادر تشير بدورها إلى أنه في بداية حكم روجر . أرسل الأسرى المسلمين الذين وقعوا في الأسر أثناء فتح صقلية إلى إيطاليا وبيعوا عبيداً هناك ^(٢) .

(١) الأدريسي : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق - المكتبة الصقلية ، ص ٢٦ .

(٢) غير الشاعر عبد الخليم بن عبد الواحد الأفريقي المنشأ الصقلي الإقامة شكوى وواقع المسلمين في =

ومن الملاحظ أيضاً أن روجر الأول، حرص على بناء القصور والمظاهر العمرانية على الطراز العربي. فهو الذي قضى ثلاثين عاماً في محاربة المسلمين لفتح صقلية، فإنه لم يتورع بعد حكمها على الاقتداء بفنون أعدائه. فقد شيد القصور والحمامات قرب القصر الملكي في العاصمة بالرمو، وهي تعتبر من أقدم الآثار العربية الإسلامية التي ما زالت باقية في صقلية. والملاحظ أن زخارف هذه القصور والحمامات وطرازها المعماري لا يختلف كثيراً عن الطراز والبناء المعماري في الأندلس والعراق في العهد العباسي. هذا وقد اتفقت المصادر التاريخية على أن صقلية في أيام روجر الأول كانت مملكة نصف إسلامية في دينها ونظامها الإداري والعسكري. وكان للمسلمين في عهده قضاتهم يتقاضون إليهم، وكان للقرى الإسلامية رؤساء يلقبون بالقادة، وكان يسمع من المساجد الآذان، وأطلقت حرية المسلمين في الاحتفال بأعيادهم. ومما قاله المقدسي عن احتفال المسلمين بأعيادهم في صقلية «... حُسِنَ رمضان بمكة وليلة الختمة بالمسجد الأقصى والعديد من باصقلية...» (١).

ولما توفي روجر الأول تولى الحكم ابنه روجر الثاني الذي حكم بين (١١٠١ - ١١٥٤ م) واتفق المؤرخون في أنه كان كأبيه، بل أكثر منه حرصاً في حماية ورعاية المسلمين الصقليين، فأحبه المسلمون ومدحوه في شعرهم، لدرجة أن بعضهم اعتقد خطأ أنه كان مسلماً في السر. وقد اتخذ لنفسه لقباً إسلامياً فسمى نفسه «المعتز بالله» المقتدر بقدرته على حد ما جاء في قول الإدريسي (٢). وضرب نقوداً باللغة العربية إضافة إلى اللاتينية واليونانية. كما أصدر قراراته باللغات العربية واللاتينية واليونانية. وكان الولاة الأغلبية والكليون قد تركوا في

= ظل حكم النورمان بما يلي :

عشقت صقلية يافعاً
فما قُدر الوصلُ حتى اكتهلتُ
وكانت كبعض جنان الخلود
وصارت جهنم ذات الوقود

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٨٣

(٢) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. المكتبة العربية الصقلية، ص ١٥.

صقلية نظاماً ادارياً متقناً فأبقاه مثلما فعل والده . ثم قلّد العرب المناصب والوظائف الهامة والعليا وكان له جيش اسلامي رافقه في كل غزواته سواء نحو ايطاليا أو نحو طرابلس الغرب وتونس . واتخذ روجر الثاني (أورجار كما تلفظها العرب القدامى) ديواناً عربياً ، وقد وقع على المعاملات الرسمية الصادرة عن هذا الديوان بعلامة عربية اسلامية مستوحاة من القرآن الكريم وهي « الحمد لله حق حمده » و« الحمد لله وشكراً لأنعمه » . « ناصر النصرانية » ، وسمى منتزهه الملكي الواقع قرب بلرمو باسم « المعتزية »^(١) .

هذا . وقد حاكى روجر الثاني ملوك العرب وقياصرة بيزنطية في أزيائهم وشاراتهم . فلبس الطراز البيزنطي والعباءة العربية الموشحة بالكتابة الكوفية وكأنه أراد بذلك اقامة التوازن حتى في التقاليد والعادات بين عناصر شعبه الاسلامي والمسيحي ، على غرار ما فعل في تعيين الموظفين في ادارة دولته من المسلمين والمسيحيين على السواء^(٢) . أضف الى ذلك أنه رفع فوق رأسه المظلة العربية ، وأقام مصنعا للطراز والنقوش ، كانت تصدر عنه مطرقات عليها النقوش العربية والتاريخ الهجري . أما المباني التي أمر ببنائها فهي أقرب الى الفن المعماري العربي الاسلامي منه الى الفن المعماري البيزنطي ، ويكفي القول بأن دير القديس يوحنا ، شفيع النساك (San Giovanni) في بالرمو هو أشبه بمسجد اسلامي منه بدير مسيحي . وليس السبب في ذلك مقدرة وتوفر المهندسين والبنائين المسلمين فحسب . بل لأن روجر أعجب وأحب الطراز المعماري والهندسة العربية . كما أن أسلوب الحياة في بلاطه كان أسلوباً شرقياً لا غربياً ، فقد كان بلاطاً سلطانياً فيه الحرم والفتيان ويرى المستشرق (اماري) (Amari) بأن روجر الثاني (سلطان معتمد) وهو - كما قيل - سلطان عربي يحمل تاجاً كملوك الأفرنج^(٣) .

(١) انظر: د . احسان عباس: العرب في صقلية ، ص ١٤٥ .

(٢) د . أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ٧٥ - ٧٦ . د . مارتينو ماريو مورينو ، المرجع السابق ، ص ٢١ . د . عزيز أحمد ، المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٣) د . مارتينو ماريو مورينو ، المرجع السابق ، ص ٢٢ . انظر أيضاً: د . عزيز أحمد ، المرجع السابق ، ص ٧٣ - ٧٤ .

ويمكن القول بأن بلاطه كان بلاطاً متوازناً أيضاً، فقد ضمّ التقاليد والمظاهر العربية والمشرقية إضافة إلى المؤثرات اليونانية واللاتينية. وقد حرص على الاهتمام بالآداب والعلوم والفنون العربية. وكان طبيب البلاط طبيباً عربياً، ونظراً لإعجابه بالطب العربي وأسلوب الأطباء العرب، فقد أقر الأساليب الطبية العربية السائدة في صقلية قبل عهده غير أنه أصدر عام ١١٤٠ م قانوناً يقضي باجراء امتحان للأطباء قبل اعطائهم (الاجازة) متبعاً أسلوب المسلمين وعلى غرار ما قام به من قبل وبوقت طويل الخليفة المقتدر بالله في بغداد، وكان روجر الثاني يؤمن بالتنجيم، ولذا فقد قرّب اليه بعض المنجمين المسلمين الذين كانوا في صقلية، ومن بين المنجمين المرموقين فيها محمد بن عيسى بن عبد المؤمن الذي ربط بين التنجيم والفلك والهندسة باعتباره كان أيضاً مهندساً أو عالماً هندسياً^(١).

وترى المستشرقة الألمانية « زيغريد هونكه » بأن للعرب الفضل في جعل روجر الثاني أغنى ملك في أوروبا بعد أن كان أقل ملوكها، وذلك بسبب اهتمامهم الاقتصادية والعمرانية، وبسبب نظامهم المالي الدقيق ونظامهم الإداري وقانونهم الجيد. وقد تدفقت على دولته الخيرات من شمالي أفريقيا التي ضمها الى أملاكه لفترة قصيرة، ثم ما لبث أن تركها. وقد لقب روجر بعد توسعاته باسم « ملك صقلية وإيطالية وشمالي افريقيا »^(٢). وقد قال الادريسي فيه: « وأما معرفته بالعلوم الرياضيات والعمليات فلا تدرك بعدة، ولا تحصر بحدة، لكونه قد أخذ من كل فن منها بالحظ الأوفر، وضرب فيه بالقدح المغلي، ولقد اخترع من المخترعات العجيبة وابتدع من الابتداعات الغريبة، ما لم يسبقه أحد من الملوك اليه ولا تفرد به »^(٣).

هذا ومن مظاهر ثقته بالعلماء العرب والمسلمين وتقريبهم إليه، دعوته للعالم

(١) د. عزيز أحمد، المرجع السابق، ص ٨٩.

(٢) زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص ٤١٦.

(٣) الادريسي: نزهة المشتاق. المكتبة العربية الصقلية، ص ١٦. انظر أيضاً: طبعة دوزي ودي غويه من الادريسي.

الجغرافي الأندلسي الشريف الإدريسي (أبو عبد الله محمد) (٤٩٣ - ٥٤٨ هـ، ١١٠٠ - ١١٥٤ م)^(١). للمجيء إلى بلاطه للاطلاع منه على جغرافية مملكته والعالم. وقد طلب منه تأليف كتاب عن جغرافية العالم. وذكر الإدريسي أنه عندما خضعت البلاد الإيطالية لروجر الثاني أراد أن يعرف حدودها وطرقها البرية والمائية. ومناخ كل منطقة، وواقع البحار والخلجان التي تحيط بها، ولمعرفة نباتاتها وعاداتها وتقاليدها ولغاتها. وكان الإدريسي قد تلقى دروسه في قرطبة وقام برحلات عديدة بين آسية والساحل الغربي لبريطانية ووصل إلى جنوبي إفريقيا، وقد اكتسب خبرة في الميدان الجغرافي. وبعد أن قضى الإدريسي في بالرم خمسة عشر عاماً منكباً على أعداد ما طلب منه، انتهى عمله في شوال ٥٤٨ هـ - أوائل عام ١١٤٥ م، وقدم للملك روجر الثاني خريطة وكتاباً تفوق خريطة بطليموس الشهيرة في دقتها ووضوحها وقلة أخطائها. ووضع خريطة العالم على دائرة فضية مسطحة (Olani-Sphere) طولها ثلاثة أمتار ونصف المتر وعرضها متر ونصف المتر. ووضع عليها مختلف التفاصيل والتوضيحات لمختلف بلدان العالم. أما الكتاب الذي ألفه الإدريسي فهو المعروف باسم «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، أو (الكتاب الروجري) وهو يضم معلومات تفصيلية عن تلك الخريطة وعن مختلف المناطق، واهتم المستشرقون بهذا الكتاب الهام، فعملوا على نشر أجزائه وترجمتها إلى لغات عدة، وترجم العالم الهولندي «دوزي» (Dozy) القسم الخاص بالمغرب والسودان ومصر والأندلس من العربية إلى الفرنسية.

ويمكن القول بأن روجر الثاني بما لديه من اطلاع على ثقافة العرب، وبما يمتاز من تسامح وعدل، قد ساعد كثيراً على امتزاج الحضارتين العربية والأوروبية من خلال جزيرة صقلية، التي سهلت انتقال الحضارة العربية والإسلامية إلى بلدان أوروبية عديدة وقد أصبحت صقلية معبراً هاماً من معابر الحضارة الإسلامية. وقد قيل عن روجر الثاني بأنه كان سلطاناً عربياً بتاج إفريقي. وإذا كان صحيحاً

(١) انظر: د. جمال الدين الشبال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي، ص ٤٦.

القول بأن روجر كان طوال عهده متسامحاً مع المسلمين، فصحيح القول أيضاً بأنه غير سياسته في أواخر عهده، ففي نهاية عام ١١٥٣ م، بدأ يطبق سياسة عنصرية قائمة على التعصب والاضطهاد الديني، وانقلب رأساً على عقب، فانتهج سياسة ترمي الى تنصير المسلمين واليهود. ويبرر البعض هذا التغير المفاجيء في سياسته الى عدة عوامل منها:

١ - أسباب نفسية وشخصية تعود إلى اضطرابه النفسي وإلى تزايد أحزانه بسبب وفاة ثلاثة من أبنائه خلال فترة تسع سنوات، مما بدّل انفتاحه وأوقعه في عزلة وتشاؤم.

٢ - أسباب سياسية وعسكرية، بسبب تنامي وتزايد قوة الموحدين المسلمين في شمالي أفريقية، وظهورهم كقوة اسلامية يحسب حسابها. وكان هذا العامل من أهم الأسباب التي أدت الى التخوف من مسلمي الداخل، تحسباً من أن يكونوا مستقبلاً ظهيراً ونصيراً لمسلمي الخارج. وكان ذلك مدعاة لروجر للعمل على تنصير المسلمين بعد أن رفض هذه الخطة رداً من الزمن.

هذا، وقد خلف روجر الثاني ابنه وليم الأول^(١) (غليام) (William) (١١٥٤ - ١١٦٦ م) الذي اتبع سياسة والده وجده من قبل في الأخذ والاهتمام بالحضارة الإسلامية والاعتماد عليها، وفي التسامح مع المسلمين وحمايتهم وتشجيع الدراسات الإسلامية. وكان حراسه من النورمان والسودان تحت إمرة أحد القادة المسلمين. كما أن جيشه كان مكوناً من النورمان والمسلمين، وقد اعتمد على العنصرين معاً. وحمل وليم الأول لقب «الهادي بأمر الله» واقتدى بوالده عندما كان يوقع اسمه ممهوراً بعبارة «الحمد لله وشكراً لأنعمه» كما استعان وليم الأول بالعالم الجغرافي الشريف الإدريسي الذي وضع له أيضاً مصنفاً في الجغرافية على غرار ما فعل لوالده.

(١) انظر: د. أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص ٧٧.

ومن الأهمية بمكان القول، إن المسلمين في عهده شهدوا تسامحاً واضطهاداً في آن: فقد بدأ رجال الاقطاع يظلمون الأهالي، وحاولوا توسيع أملاكهم بانتزاع الأراضي من أيدي المسلمين، مبررين ذلك، بأنها كانت في الأصل للنصارى. كما أن طبقة البارونات النورمان بدأوا يسيئون معاملة المسلمين خلال فترة حكم ولیم الأول. ومع أن المسلمين استمروا يدينون بالولاء للملك، غير أنهم دفعوا ثمن انتصار الموحدين في المهديّة، فتخوف منهم النصارى منذ عهد روجر الثاني، واستمر هذا التخوف، فبدأت عملية تجريد المسلمين من السلاح في العاصمة بالرمو. وبعد أن جردوا من أسلحتهم، أصبحوا في مركز ضعف، وهدفاً للاضطهاد والانتقام لا سيما من البارونات النورمان واللومباردين في عام ١١٦١ م، حيث جرت مذابح بحق المسلمين في المناطق الريفية، فلجأ المسلمون إلى الجبال والغابات وإلى مدن الجنوب حيث ما تزال توجد أعداد كبيرة من المسلمين. غير أن العناصر الإسلامية في جيش ولیم الأول استطاعت حماية المسلمين الهاربين، ثم تمكنت من الوقوف في وجه حركة البارونات. ولكن المسلمين استمروا يعيشون هاجس المذابح في مجتمع بدأوا يشعرون بأنه غريب عنهم.

ولما تولى ولیم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٩ م) ابن ولیم الأول الحكم^(١)، حاول التقرب من المسلمين والتشبه بخلفائهم كما أتقن اللغة العربية، وحل لقب « المستعز بالله » وكان شعاره « الحمد لله حق حده »^(٢). غير أنه يلاحظ بأن الالتزام بخط التسامح نحو المسلمين بدأ يتغير تباعاً في صقلية ففي عهده حدث تغيير في السياسة النورمانية الخارجية، فقد شارك ولیم الثاني في الحملات الصليبية على الاسكندرية عام ٥٦٩ هـ - ١١٧٢ م في أوائل عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي وأصبح المسلمون أهل ذمة وفرضت عليهم الجزية والضرائب الاستثنائية. ويذكر الرحالة الأندلسي ابن جبير الذي زار صقلية عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٥ م، خلال حكم ولیم

(١) انظر: د. احسان عباس، المرجع السابق، ص ١٤٨ - ١٥٠.

(٢) د. مار تينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٣.

الثاني، بعض ما رآه من التناقض في السياسة الصقلية إزاء المسلمين، فقد تأرجحت معاملة المسلمين بين التسامح والريبة، لا سيما وأنه وجدت فئة من المسلمين تنصرت ظاهراً وبقيت على الاسلام سرّاً، تؤدي الصلاة الاسلامية بعيداً عن الانظار. وكانت صلاة الجمعة محظورة عليهم ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للخليفة العباسي. ومما قاله ابن جبير في ذكره لما رآه في مدينة مسينة:

« .. معمورة بعبد الصلّبان، يمشون في مناكبها ويرتعون في أكنافها، والمسلمون معهم على أملاكهم وضياعهم، قد حسنوا السيرة في استعماهم واصطناعهم، وضربوا عليهم أتاوة في فصلين من العام يؤدونها، وحالوا بينهم وبين سعة في الأرض كانوا يجدونها .. وليس في مسينة هذه من المسلمين الا نفر من يسير من ذوي المهن، ولذلك ما يستوحش بها المسلم الغريب .. »^(١). وعن ولیم الثاني قال ابن جبير « وشأن ملكهم هذا عجيب في حسن السيرة واستعمال المسلمين، واتخاذ الفتیان المجابيب وكلهم أو أكثرهم كاتم إيمانه، متمسك بشريعة الإسلام - وهو كثير الثقة بالمسلمين ..، ومن عجيب شأن المتحدث به أنه يقرأ ويكتب بالعربية، وعلامته على ما أعلمنا به أحد خدمته المختصين به « الحمد لله حق حمده »، وكانت علامة أبيه « الحمد لله شكراً لأنعمه » وأما جواريه وحظاياه في قصره فمسلّمات كلهن »^(٢) .. ثم أشار ابن جبير الى المسلمين الكاثنين اسلامهم تخوفاً ومنهم فتى اسمه عبد المسيح وبعض فتیان القصر .

ويذكر ابن جبير وضع المسلمين في مدينة ثرمه (Therma) التي زارها في شهر رمضان فقال « .. وللمسلمين فيها ربض كبير لهم فيه المساجد .. فانتبهنا الى قصر سعد ... وهذا القصر على ساحل البحر، مشيد البناء عتيقه، قديم الوضع من عهد ملكة المسلمين للجزيرة، لم يزل - ولا يزال بفضل الله - مسكناً للعباد منهم، وحوله قبور كثيرة للمسلمين أهل الزهادة والورع. وفي أعلاه مسجد من أحسن

(١) ابن جبير: رحلة ابن جبير - تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

مساجد الدنيا بهاء... وسمعنا الأذان وكنا قد طال عهدنا بسماعه وأكرمنا القوم الساكنون فيه، وله إمام يصلي بهم الفريضة والتراويح في هذا الشهر المبارك»^(١)

وعن وضع المسلمين في العاصمة بالرمو قال ابن جبير «... وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان، يعمرّون أكثر مساجدهم، ويقيمون الصلاة بأذان مسموع، ولهم أرباض قد انفردوا فيها بسكنائهم عن النصارى، والأسواق معمورة بهم، وهم التجار فيها، ولا جمعة لهم بسبب الخطبة المحظورة عليهم، ويصلون الأعياد بخطبة دعاؤهم فيها للعباسي، ولهم بها قاض يرتفعون إليه في أحكامهم وجامع يجتمعون للصلاة فيه، ويحتفلون فيه وقيد في هذا الشهر المبارك، وأما المساجد فكثيرة لا تحصى وأكثرها محاضر لمعلمي القرآن. وبالجملّة فهم غرباء عن أخوانهم المسلمين تحت ذمة الكفار، ولا أمن لهم في أموالهم ولا في حريمهم ولا أبنائهم، تلاقاهم الله بصنع جميل بمنه»^(٢). أما وضع المسلمين في مدينة «اطرابنش» (Trapani) فيشير ابن جبير إلى أنه وصلها قبل عيد الفطر بقليل «وكان مصلانا في هذا العيد المبارك بأحد مساجد اطرابنش المذكورة، مع قدم من أهلها امتنعوا من الخروج إلى المصلى لعذر كان لهم، فصلينا صلاة الغرباء... وخرج أهل البلد إلى مصلاهم مع صاحب أحكامهم، وانصرفوا بالطبول والبوقات. فعجبنا من ذلك، ومن اغضاء النصارى لهم عليه... وفي مدة مقامنا بهذه البلدة تعرفنا ما يؤلم النفوس تعرفه من سوء حال أهل هذه الجزيرة مع عبّاد الصليب بها... وما هم عليه معهم من الذل والمسكنة، والمقام تحت عهدة الذمة وغلظة الملك، إلى طوارئ دواعي الفتنة في الدين على من كتب الله عليه الشقاء من أبنائهم ونسائهم»^(٣) واعطى ابن جبير أمثلة على تنصير المسلمين بالقوة ومن

(١) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٠.

(٣) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٣، ٢٣٥.

بين هؤلاء ابن زرعة الذي حفظ الانجيل وأصبح في جملة القسيسين، وحول مسجده الى كنيسة. وقيل لابن جبير أن ابن زرعة لا يزال على دين الاسلام سرّاً. كما أعطى ابن جبير مثلاً على وضع القيود وحجز المسلمين، ومن هؤلاء قاضي وسيد (اطرابنش) أبو القاسم بن حمود (ابن الحجر)، الذي ألزمه ولیم الثاني بالبقاء في داره بتهمة الاتصال ومراسلة الموحدين. وبعد أن اجتمع ابن جبير بأبي القاسم، « أظهر لنا من باطن حاله وبواطن أحوال هذه الجزيرة مع أعدائهم، ما يبكي العيون دماً، ويذيب القلوب ألماً. فمن ذلك قال: كنت أود لو أباع أنا وأهل بيتي، فلعل البيع كان يتخلصنا مما نحن فيه، ويؤدي بنا الى الحصول في بلاد المسلمين»^(١). وأشار ابن جبير أيضاً الى عمليات التنصير والتعميد في الكنيسة لأبناء المسلمين، مما أوجد تخوفاً عند بعض المسلمين، فبدأوا يطلبون من التجار المسلمين أن يتزوجوا من بناتهم وأن يأخذوهن معهم حفاظاً على اسلامهن ودينهن. ويلاحظ بأن المسلمين في صقلية كانوا في عهد ولیم الثاني يعيشون هاجس الخوف والشكوى من التنصير والاضطهاد والضغط. وبالفعل فبعد حوالي خمس سنوات من زيارة ابن جبير لصقلية تحققت تخوفات المسلمين، ففي عام ١١٨٩ م وقعت أعمال الشغب، وتعرض المسلمون للانتقام والتعصب من قبل النصارى في الجزيرة. ويصف المستشرق الدكتور مارتينو ماريو مورينو واقع المسلمين في صقلية ويبرره بالتالي: « كان التوازن بين اتباع الديانتين عادم القرار، رغماً من مجهودات الحكام. فما كان للمسلمين أن يرضوا بالخضوع بعد أن كانوا أسياداً، وأن لا يرنو الى اعادة الأمور الى نصابها، خصوصاً وأن رايات الموحدين الخافقة في سماء المغرب، كانت تنعش عزائمهم. وما كان من المستطاع للنصارى أنصاف المسلمين، لبقاء ذكر النهب والغصب الذي كانوا عانوه في الماضي، ولسنوح الفرصة لاسترجاع المغصوب عند الطرفين»^(٢).

هذا وقد عبّر أحد الصقليين وهو « فلقندو » عن مخاوفه بعد بلوغه خبر وفاة

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٣٦.

(٢) د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٤.

وليم فقال في رسالة لصديقه « انني لأرى جموع البرابرة الغاصبين ومدننا الفسيحة وقصورها التي زهت في ظل سلام طويل تميد بالخوف ، وقد جرت فيها الدماء ودنستها الشهوات ، انني لأرى بعيني بني وطني فريسة للذبح والأسر ، وأرى العدوان واقعاً على العذارى والنساء . وفي مثل هذه الضائقة ، أيها الصديق ، ماذا ترى يفعل الصقليون ؟ إنهم إن اجتمعوا على ملك شجاع مجرب احتفظوا بصقلية وقلورية . إن بلرم لا تزال مكلفة بالعز وأسوارها تضم المسيحيين والمسلمين النشطاء ، فلو أن الشعبين اتحدا في ظل ملك واحد ، من أجل سلامتهما ، لاندفعا يصدان البرابرة بأسلحة لا تنثني . ولكن إن عاد المسلمون الى الثورة لشدة ما لحقهم من أذى ، وما رهقهم من اساءة ، وراحوا يحتلون القلاع في الجبال وعلى السواحل . فليوطن المسيحيون التعساء أنفسهم على عبودية لا خلاص منها ، لأنهم سيكونون فريسة لهجوم مزدوج وسيقعون بين المطرقة والسندان »^(١) .

أما على الصعيد الحضاري ، فقد استمر النورمان في الأخذ من الحضارة العربية والإسلامية نظراً لتطورها وتقدمها ، وتظهر الآثار العربية واضحة في قصر العزيزة (La Ziza) والقبة (La Cuba) في بالرمو ، كما تظهر تلك الآثار في بناء كاتدرائية جفلوذي (Cefalu) وكنيسة القصر الملكي وأقبية كاتدرائية بلرم (بالرمو)^(٢) . وقصر القبة مثلاً الذي شيده وليم الثاني كأنه قصر من قصور بني حماد ، وهو كمباني الفاطميين في المهديّة ، كما أن كنيسة القصر الملكي في بلرم ، فيها الكثير من التشابه مع بناء المسجد الجامع في قرطبة . وهناك آثار معمارية عربية عديدة تظهر واضحة في البناء الصقلي ومنها قصر « الفواره » (Favara) في بلرم ، الذي يعود بناؤه الى أيام الكلبين ، كما أن برج بيش بالقصر الملكي في بلرم ، مقتبس من قصر المنار في قلعة بني حماد . وقد وصل أثر البناء والهندسة الإسلامية الى أضرحة النورمان والغربيين ، بحيث أن ضريح بوهمند في كانوسا ، بتصميمه الهندسي ذي الاضلاع الأربعة وقبته ، يبدو تقليداً مباشراً للأضرحة الإسلامية . وهناك العديد من الأمثلة حول المؤثرات الإسلامية في الهندسة النورمانية .

(١) د . احسان عباس : العرب في صقلية ، ص ١٥٣ - ١٥٤ .

(٢) د . عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ١١٥ .

الفصل الثالث

**العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين
والمسيحيين في عهد أسرة
الهوهنشتاوفن الألمانية**

الفصل الثالث

العلاقات الحضارية والسياسية بين المسلمين والمسيحيين في عهد أسرة الهوهنشتاوفن الألمانية

توفي وليم الثاني بدون عقب، وكان قد أوصى بالملك من بعده للأمبراطور الألماني هنري السادس (١١٩٤-١١٩٧ م) باعتباره زوجاً لابنة الملك روجر الثاني، غير أن المواطنين رفضوا هذه الوصية، ووقعت منازعات عديدة، ثم تولى الحكم لفترة معينة الأمير « تنكريد »، وفي عهده وقعت مذبة للمسلمين في عام ١١٨٩ م، وكانوا هدفاً سريعاً للاضطهاد، نظراً لاختلاف دينهم وعاداتهم ودينهم^(١). الأمر الذي دعا المسلمين الى تحصين أنفسهم، وأعلن مائة ألف منهم الثورة في بلرم، التي استمرت الى عام ١١٩٠ م فحسب، وبعد أن وطد تنكريد حكمه، أدرك المسلمون أن وجودهم في الجزيرة أصبح أمراً صعباً، خاصة بعد محاولات ابعادهم عن مناصب الدولة، والابتعاد عن سياسة التوازن التي كانت متبعة من قبل، كما أن اللغة العربية لم تعد مستعملة كثيراً. وبالتدريج بدأ يقل عدد المسلمين في بلرم اما نتيجة للهجرة الى بلاد المسلمين، واما نتيجة للتنصير. وكانت هجرة المسلمين قد بدأت تتزايد من صقلية الى أفريقيا والأندلس والمشرق ابتداء من عام ١١٥٣ م، غير أن الدراسات التاريخية الصقلية تشير الى قيام ثورات إسلامية في الجزيرة رغم تناقص عدد المسلمين فيها.

وبين أعوام (١١٩٨-١٢٥٠ م) أصبح فريدريك الثاني (Frédéric II) ابن

(١) د. عزيز أحمد: المرجع السابق، ص ٨٥.

هنري السادس الالماني امبراطوراً على المانيا وعلى مملكة الصقليتين التي تشمل بلاد نابولي وجزيرة صقلية^(١). وبذلك انتقل الحكم في صقلية من الأسرة النورماندية الى أسرة الهوهنشتاوفن الالمانية، غير أن فريدريك الثاني كان في الرابعة من عمره، ولم يستطع أن يحكم فعلياً وباسمه الا في العام ١٢١١ م، وما أن أتى عام ١٢٢١ م حتى استطاع توطيد حكمه في أرجاء جزيرة صقلية، وأعاد النظام والأمن والهدوء اليها. غير أن المسلمين رفضوا في البدء الخضوع له، وثاروا ضده بقيادة ابن عباد الذي تسميه المصادر الصقلية التاريخية (Mirabetto) وكان عدد الثائرين المسلمين في عام ١٢٢١ م ما يقارب ثلاثين ألفاً^(٢). وقد هاجم المسلمون مستشفى القديس يوحنا في بلرم وأسروا أسقف مدينة جرجنت، وتمركزوا في حصون بلرم ومنها: حصن «انتيله» (Entella) وحصن «جاطو» (Giato) وفي عام ١٢٢٢ م أسر ابن عباد وتم إعدامه، ثم ما لبث فريدريك عام ١٢٢٤ م إن جهز حملة ضد المسلمين المعتصمين في الجبال، ففضى عليهم، أما أسراهم فتم ترحيلهم وترحيل بقية مسلمي صقلية الى لوشيرة (Lucera) في مقاطعة أبوليه (Apulia). وقد ذكر ابو الفداء بأن «لوشيرة من بلاد الانبرور ولما استولى الانبرور على صقلية نقل المسلمين من صقلية وأسكنهم في لوشيرة المذكورة»^(٣). ونقل فريدريك آخرين الى نصيره (Nocera) و«جيروفالكو» (Girofalco). أما القلة القليلة التي بقيت من المسلمين في صقلية، فإنها رغم قلة عددها فقد قامت بثورة بعد حوالي عشرين عاماً أي حوالي عام ١٢٤٤ م.

ويلاحظ بأن فريدريك الثاني لم يستطع التخلي عن المسلمين، فاستعان بهم

(١) للمزيد من التفاصيل عن عهد فريدريك الثاني انظر: د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية - الفصل العاشر، ص ٩٤ - ١٠٠.

انظر أيضاً الدراسة المتخصصة: Kantorowicz, E; Fredrick The Second 1194-1250.

(٢) د. عزيز أحمد: المرجع نفسه، ص ٩٥ - ٩٦. د. مارتينو ماريو مورينو، المرجع السابق، ص ٢٥.

(٣) أبو الفداء: تقويم البلدان، المكتبة الصقلية، ص ١٤٩.

مجدداً ، لاسيما المسلمين الذين رحلهم الى لوشيره . فقام بتجنيدهم في جيشه . وأوكل اليهم مهام عسكرية هامة . كما اعتمد على الصناع المسلمين المهرة في صناعة الأسلحة . وكان مسلمو « لوشيرة » يمارسون عقائدهم الدينية ويتكلمون العربية . وقد صبغوا هذه المدينة بصبغتهم العربية والإسلامية . غير أنه في أواخر القرن الثالث عشر شهدت صقلية والمدن الإيطالية مأساة إسلامية . وذلك بإرغام المسلمين وإكراههم بالقوة على الدخول في الكتلكة وترك إسلامهم وعلى يد شارل الثاني تم تنصير المسلمين عنوة وكرها وانتهى بذلك تماماً الوجود الإسلامي في صقلية وإيطاليا ، في حين قاوم فريدريك الثاني في السابق كل الضغوط الصادرة عن الكنيسة لتنصير مسلمي لوشيرة بالإكراه.^(١)

ومن الناحية الحضارية ، فمن الملاحظ أن فريدريك الثاني منذ صغره شغف بتعلم اللغة العربية الى جانب اليونانية واللاتينية وكان للتراث العربي والنورماني اثر بارز في تكوين شخصية فريدريك الذي أمر بترجمة المؤلفات العربية العلمية والأدبية ، وأقام صلات ودية مع ملوك مصر والشام الأيوبيين . ففي عام ١٢٢٦ . وصل الى بلاط فريدريك الثاني فخر الدين يوسف بن حموية ، شيخ الشيوخ مبعوثاً من قبل السلطان الأيوبي الكامل للاستعانة به ضد أخيه المعظم وضد جلال الدين الخوارزمي ، على أن يسلمه مقابل الدعم العسكري بيت المقدس . وقد استنكر المسلمون على الملك الكامل تنازله عن بيت المقدس بهذه البساطة ، بعد عقد معاهدة سلام بينه وبين فريدريك عام ٦٢٦ هـ - ١٢٢٩ م^(٢) .

وقد جرت مراسلات علمية بين فريدريك الثاني والملك الكامل ، كان

(١) د . عزيز أحمد . المرجع السابق . ص ١٢١ .

(٢) للمزيد من التفاصيل أنظر : ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب . ج ٤ . ص ٢٤٣ . انظر أيضاً : المقرئ السلي . ج ١ ، ص ٢٣٠ - ٢٣١ . ٢٣٣ . انظر أيضاً القسم الثالث : العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في بلاد الشام . وحول العلاقة بين الكامل وفريدريك الثاني . انظر أيضاً : د . سعيد عاشور : مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك . ص ٨٥ - ٩٠ .

فريدريك خلالها يسأل الكامل عن بعض المسائل العلمية، فكان يحولها إلى علمائه لإجابة عليها. وبذلك قال ابن واصل: «... وسير الانبرطور الى الملك الكامل في اثناء ذلك مسائل حكمية ومسائل هندسية ورياضية مشكلة، ليتمتحن بها من عنده من الفضلاء. فعرض الملك الكامل ما أورده من المسائل الرياضية على الشيخ عام الدين قيصر بن أبي القاسم إمام هذه الصناعة. وعرض الباقي على جماعة من الأفاضل فأجابوا عن الجميع»^(١).

هذا وقد تبودلت الهدايا النفيسة بين الرجلين تأكيداً على تحالفهما ومصالحهما المشتركة. وبذلك يقول المقرئزي: «وفيها وصل رسول ملك الفرنج بهدية سنية وتحف غريبة الى الملك الكامل وكان فيها عدة خيول، منها فرس الملك، بمركب ذهب مرصع بجوهر فاخر. فتلقيه الكامل بالإقامات من الاسكندرية الى القاهرة، وتلقاه بالقرب من القاهرة بنفسه، وأكرمه إكراماً زائداً، وأنزله في دار الوزير صفى الدين بن شكر. واهتم الكامل بتجهيز هدية سنية الى ملك الفرنج: فيها من تحف الهند واليمن، والعراق والشام، ومصر والعجم، ما قيمته أضعاف ما سيره، وفيها سرج من ذهب، وفيها جوهر بعشرة آلاف دينار مصرية، وعين الكامل للسير بهذه الهدية جمال الدين بن منقذ الشيرزي»^(٢).

وكان للسفارات بين الحاكمين نتائج علمية إضافة الى النتائج السياسية، فمن المعروف أن المبعوث فخر الدين كان عالماً، وقد استفاد فريدريك من علمه وثقافته خلال إقامته في صقلية أو خلال لقاءها ثانية في الشرق. كما قدم فخر الدين الى فريدريك قائمة باسماء الكتب القيمة التي يبحث عنها. وتوطدت الصداقة بين الرجلين. ومما قاله فريدريك لفخر الدين: «لماذا تكون الحرب واستخدام القوة وسيلتي تفاهم بيني وبين السلطان؟ لماذا لا يمد الرجلان المحبان للفكر والثقافة والكارهان للعنف وإراقة الدماء يد الصداقة الخالصة لبعضهما؟

(١) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٢٢٣.

أيجوز لها ان يتوانيا والفرصة سانحة امامهما عن حقن الدماء التي طال هدرها وتوحيد الشرق والغرب وقد طال صراعهما ؟ ولهذا اقترح فخر الدين على فريدريك ان لا يرسل للسلطان مبعوثه القانوني الذي يثير غضبه بتصرفاته ، إنما من الأفضل إرسال الكونت توماس الأكرى (Thomas Acerra) لا لأنه يجيد العربية بل لأنه يحسن التصرف ، وتصرفه كالمسلمين تماماً . وبعد هذه السفارات المتبادلة تم اللقاء فعلاً في يافا بين فريدريك والكمال في ١٨ شباط (فبراير) ١٢٢٩ م ، وقال السلطان الكامل لفريدريك : « اقسم بالله العظيم وبقلب ونية سليمة ان أنفذ كل ما اتفقنا عليه في هذه الوثيقة والا أحنث بقسمي » . بينما اقسم فريدريك بقوله : « اقسم بالله العظيم بأني سأنفذ كل ما اتفقنا عليه ، وأني سأكل لحم يدي اليسرى إن حنث بهذا القسم العظيم » . وقد أشار ابن واصل بأن الامبراطور فريدريك الثاني قال لرسول الكامل الأمير فخر الدين بن الشيخ : « لولا اني اخاف انكسار جاهي عند الفرنج ، لما كلفت السلطان شيئاً من ذلك ، وما لي غرض في القدس ولا غيره ، وإنما قصدت حفظ ناموسي عندهم »^(١) .

وتشير المصادر التاريخية بأن هذا الاتفاق السلمي يعود عقده الى عدة عوامل منها :

- ١ - وجود جند من المسلمين في جيش فريدريك الثاني ، ولهذا كان من الأفضل الاتفاق السلمي على أن يقاتل المسلمون بعضهم البعض .
- ٢ - شعور فريدريك الثاني بالمخاطر السياسية والعسكرية التي كانت تواجهه في الغرب ، في مقابل المخاطر السياسية والعسكرية التي كانت تواجهه الكامل في الشرق من جراء تحالف أخيه المعظم مع السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه^(٢) .

(١) ابن واصل : مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ج ٤ ، ص ٢٤٣ ، انظر أيضاً مع شيء من الاختلاف في النص : المقرئ : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٢٣٠ .

(٢) حول هذا الموضوع انظر : المقرئ : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ .

٣ - احراج البابوية التي أصدرت الحرمان الكنسي عام ١٢٢٧ م بحق فريديريك الثاني، وذلك بتقوية فريديريك بالسيطرة على بيت المقدس .

٤ - إن الاتفاق السلمي بين الجانبين يسهل لفريديريك الثاني وللشعب الصقلي امكانية الاستفادة من حضارة المسلمين وثقافتهم أكثر من ذي قبل .

ومن مظاهر التبادل الحضاري والثقافي واستفادة صقلية من الحضارة العربية والاسلامية، الكتاب العربي المعروف باسم « المسائل الصقلية » وهي المسائل التي وجهها فريديريك الى علماء المسلمين، وأجابه عليها الفيلسوف الأندلسي « ابن سبعين » بأمر الخليفة الرشيد خليفة الموحدين ^(١) . حتى أن فريديريك الثاني في فترة الحروب الصليبية استرفق معه العلامة ابن الجوزي الصقلي ليواصل تدريسه في علم الجدل . كما سبق أن استفاد فريديريك من أحد مبعوثي الملك الكامل اليه ، وهو الشاعر الفيلسوف صلاح الدين الاربلي . اضافة الى أن الملك الكامل أغنى حديقة الحيوان الخاصة بفريديريك بإهدائه أحد الفيلة ، بينما أهدى فريديريك السلطان « الدب الأبيض الى الملك الأشرف أخي الكامل » . كما أهداه طاووساً أبيض . ولم يكتف سلطان مصر بذلك ، بل ارسل إلى فريديريك منجماً اسمه « ثيودوروس » (Theodoros) يحسن اللغة العربية ليكشف له أسرار علم الكواكب العربي . وكان عند فريديريك نفسه فيلسوف يتقن العربية والاسبانية ، اسمه « ميشال اسكوتوس » (Michel Scotus) . وقد ترجم له عن العربية « كتاب الحيوانات » وكتباً أخرى . أما المترجمون الآخرون فقد ترجموا له من العربية إلى اللاتينية « كتاب البيطرة » وشرح ابن رشد وكتاب « الشباب والملاح » للرازي . ولقد أظهرت الوقائع مدى تأثير فريديريك بالثقافة العربية . وبذلك يقول أبو الفداء : « لقد رأيت تلك البلاد عندما سافرت الى امبراطورها كسفير للملك . والامبراطور كان أحد ملوك الفرنجة الكرماء ، يهتم كثيراً بالفلسفة والمنطق والطب ويحب المسلمين لأنه

(١) للمزيد من التفاصيل انظر : ابن سبعين المكي المرسي الأندلسي : كتاب المسائل العقلية . المكتبة الصقلية ، ص ٥٧٣ - ٥٧٧ .

تربى في جزيرة صقلية حيث أغلبية الشعب من المسلمين». وأكد ذلك صاحب جامع التواريخ فقال: كان فريدريك «الانبرور ملكاً متميزاً عالماً محباً للحكمة والمنطق والطب...»^(١).

هذا، وقد استمر فريدريك في طلب المساعدات العلمية من المسلمين، ولم يتوان عن الاستمرار في الطلب من السلطان الكامل مساعدته على حل بعض المضلات الرياضية والفلكية والفلسفية، فكان السلطان يحولها بدوره الى علماء المسلمين، وهذا ما حدث مرة عندما حول المسائل الرياضية إلى العالم الرياضي علم الدين قيصر الاسفوني الصعيدي الحنفي الملقب باسم «تعاسيف» الذي استطاع حلها، فأعادها الكامل الى فريدريك مرفقة بكتاب هدية عن علم الفلك، ولهذا ازداد فريدريك علماً بحيث أن المقرئزي وصفه بأنه كان «عالماً متبحراً في علم الهندسة والحساب والرياضيات بعث الى الملك الكامل بعدة مسائل مشكلة في الهندسة والحكمة والرياضة، فعرضها على الشيخ علم الدين قيصر الحنفي - المعروف بتعاسيف - وغيره، فكتب جوابها...»^(٢).

وأضاف بأنه كان محباً للمسلمين ولسماع آذانهم، فعندما كان في بيت المقدس ينتظر سماع آذان المؤذنين، تبين له بأن قاضي نابلس منع الآذان احتراماً له، فإذا بفريدريك يبدي استياءه ويلتفت الى شمس الدين قاضي نابلس ويقول له: «أخطأت فيما فعلت، والله إنه أكثر غرضي في المبيت في القدس أن أسمع آذان المؤذنين وتسبيحهم في الليل»^(٣).

ولما تولى الحكم الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد عرش مصر سار على سياسة الود والصداقة التي انتهجها والده نحو فريدريك الثاني، فاستمرت العلاقات

(١) حسين الياضي: جامع التواريخ. المكتبة الصقلية، ص ٥١١.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ٢، ص ٢٣٢.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٤، ص ٢٤٥. المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣١.

الحسنة بينهما ، وتبادلا السفارات والهدايا . ومن بين تلك السفارات سفارة الملك الصالح الى فريدريك برئاسة الشيخ سراج الدين الأرموي قاضي قونية الذي أقام فترة في صقلية ألف خلالها كتاباً في المنطق قدمه لفريدريك . وبلغت الصداقة بين الملكين حداً دعت فريدريك الى إرسال مبعوث خاص في زي تاجر الى الملك الصالح لابلاغه بحملة لويس التاسع (ريد فرانس) على مصر . وهذا المبعوث هو سرنرد مهمندار (أمين سر ديوان رسائل الامبراطور) الذي قال : « كان ذهائي الى مصر ورجوعي في زي تاجر . ولم يشعر أحد باجتماعي بالملك الصالح خوفاً من الفرنج أن يعلموا بمالأة الامبراطور للمسلمين عليهم »^(١) .

وتشير بعض المصادر الى أن فريدريك تزوج في المرة الأولى من أميرة اسبانية من أرغون ، التي صحبت معها وصيفاتها من سيدات المجتمع الاسباني . وبواسطتهن تدفق سيل من التأثيرات العربية الاسبانية على صقلية التي كانت هي ذاتها مركزاً للحضارة العربية والاسلامية . ويذكر أيضاً بأن فريدريك تدرّب مع أولاده على نظم الشعر الغنائي المتأثر بالشعر العربي ، وأن كل ما أنتجوه هو اللبنة الأولى التي أنبتت فيما بعد الأدب الايطالي الكلاسيكي ، وفي ذلك قال الشاعر الايطالي « بترارك » (Petrarque) (٣٠٤ - ١٣٧٤ م) « في زمن قصير شاع ذلك النوع من الشعر ، الذي ولد بصقلية ، في كل ايطاليا وتعداها » .

وقال « دانتي » (Danté) (١٢١٦ - ١٣٢١ م) الشاعر الايطالي صاحب « الكوميديا الالهية » (La Divine Comedia) : « ... لذلك يسمى كل ما نظمته أجدادنا من أشعار بلغة البلاد بالشعر الصقلي » . وفي هذا الصدد لا بد من القول من أن بترارك ودانتي تأثرا بالأشعار والآداب العربية ، فمن المعروف أن دانتي اهتم كثيراً بالشعر العربي والتصوف والفلسفة الأندلسية وبفلسفة ابن رشد . وبينما نجد في أشعار بترارك تأثيرات عربية غير مباشرة نجد أثر أبي العلاء وابن عربي واضحاً وضوحاً تاماً في أشعار دانتي .

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٧ .

وفي عهد فريديريك الثاني استمرت المؤثرات الهندسية العربية واضحة في البناء الصقلي . فقد بنى قصوره وقلاعہ وأعاد ترميم ما تهدم على النمط العربي . وتبين بأن قلاع باري (Bari) وتراني (Trani) وبرانديزي (Brandisi) تتشابه مع قلاع اسبانيا والشرق العربي . وظهر الأثر العربي المعماري أيضاً في نوع الأقبية والأعمدة وخامات البناء والنقوش التي وجدت في أبنية صقلية ، وظهرت أسماء العمال والفنيين والتعابير العربية منقوشة على تلك الأبنية .

من جهة أخرى فإن فريديريك الثاني استفاد كثيراً من الأنظمة الادارية الاسلامية . فاقتبس قواعد الحكم والادارة والأنظمة المالية والضرائب العربية ، مما خفف كثيراً من اعباء وضع مملكته المالي والاداري . وقد فرض الضرائب وضريبة الرأس على اليهود والمسلمين التي يقابلها في النظام الاسلامي الزكاة على المسلمين ، واجزية على غير المسلمين . والواقع فإن صقلية ليست وحدها التي تأثرت بالأنظمة المالية الاسلامية . إنما انتقلت هذه المؤثرات بواسطة النورمان الى مختلف المناطق الأوروبية . وكان بعض المسلمين قد تولوا مناصب ادارية هامة في صقلية ، وكانوا بمثابة خبراء في الإدارة الصقلية ومن هؤلاء « ريتشارد العربي » (Ruchard of Arabia) الذي كان مسؤولاً عن جميع أموال الضرائب ، وعن وجوه توزيعها على الموظفين ومرافق الدولة . وكان ابن عبد الرحمن رئيساً لمالية صقلية كلها ، ثم أصبح مبعوثاً للملك الى الأندلس ومراكش وتونس . وكان يملك الصلاحيات للتوقيع على المعاهدات والاتفاقات الاقتصادية باللغة العربية أيضاً . ذلك لأن اللغة العربية كانت الى جانب اليونانية واللاتينية لغة رسمية في صقلية ، وبواسطتها تدون سجلات الدولة ومختلف دواوين الادارة . وكان العالم العربي تيودور الانطاكي (مسيحي من انطاكية) أحد المقربين من فريديريك الثاني ، وكانت تتم بينهما المناقشات والمداولات العلمية ، وقد ترجم تيودور لفريديريك عدداً من الكتب العلمية ، فأصبح موضع ثقته ، لذا أصبح سفيراً له الى بعض المناطق العربية . وكان من بين المقربين الى فريديريك الثاني البربري « المورو » (Il Moro) الذي عرف باسم يوحنا موروس (Johannes Morus) وكان حارساً خاصاً

بفريدريك، ثم أصبح مستشاراً للبلاط، وأصبح زمن حكم الملك كونراد حاكماً لمدينة لوشيرة.

هذا ولما استرد المسلمون بيت المقدس عام ٦٤٢ هـ - ١٢٤٤ م، رفض فريدريك الثاني تحريض بطريك انطاكية للقيام بحملة صليبية لاسترداده. واتهم وقتذاك بأنه يقرب اليه المسلمين أكثر من المسيحيين. وكان فريدريك يردد دائماً « أن صديقي السلطان المسلم أثنى لدي من أي شخص آخر ما عدا ولدي الملك كونراد » ومن ألقابه التي اعتز بها دائماً « فريدريك هو هنتشوفن صديق المسلم ». وقيل إنه في آخر حياته كان كلما وقع في ضيق يتنهد قائلاً: « آه، لو كان صديقي الكامل على قيد الحياة ». ولما توفي فريدريك الثاني عام ١٢٥٠ م، كفن بأثواب عربية، ودفن في مسجد بلرمو الذي كان قد حول إلى كاتدرائية.

ولما تولى الحكم في صقلية « منفرد » (Manfred) الابن غير الشرعي لفريدريك الثاني وآخر ملوك أسرة هونتشوفن، استمر في سياسة والده، وجرت اتصالات بينه وبين السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٧) وتبادلا السفارات العلمية والسياسية^(١). وقد أوفد بيبرس اليه المؤرخ الحموي ابن واصل (المتوفى ٦٩٧ هـ - ١٢٩٧ م) صاحب كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » الذي وصف بعثته الى منفرد في كتابه، والتي قام بها في شهر رمضان سنة ٦٥٩ هـ، فإشار الى اجتماعه بالملك، والى المسلمين المقيمين في مدينة لوجارة (لوشيرة) وإقامتهم للصلاة، والمعاملة الحسنة التي يلقونها من الملك. كما أشار الى تقرب الملك من المسلمين واشتغالهم معه ومما قاله واصفاً ما رآه: « فأقمت عنده [أي عند منفرد] مكرماً بمدينة من مدائن أنبولى في البر الطويل، المتصل ببر أندلس. واجتمعت به مراراً ووجدته متميزاً ومحباً للعلوم الصقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب أوقليدس في الهندسة. وبالقرب من البلد الذي كنت نازلاً به مدينة تسمى لوجاره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية، تقام فيها الجمعة، ويعلن

(١) د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الاسلامية، ص ٩٩.

بشعار الاسلام، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الانبرطور . وكان منفريد قد شرع في بناء دار علم بها، ليشغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية. ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين. ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة...»^(١). وأكد ابن واصل مجدداً بأن منفرد على علاقة متوترة وسيئة مع البابا، وأن البابا أصدر قرار الحرمان بحقه «لميله الى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم». وكان هذا القرار قد صدر في أواخر أيلول (سبتمبر) ١٢٢٧ م - ٦٢٤ هـ^(٢).

هذا وقد عرف عن «منفرد» بأنه كان شاعراً وراعياً لمنشدي «التروبادور» (Troubadours) المتأثرين بالتراث الغنائي والموسيقي العربي، كما أعطي لقب «ملك العرب وسلطان لو شيرة». وقد ذكر بأن فريدريك الثاني وورثته الذين تولوا الحكم من بعده كانوا كلهم «محموتين عند البابا خليفة الفرنج صاحب رومية، لميلهم الى المسلمين»^(٣).

ولا بد في هذا المجال من أن نشير بشيء من الإيجاز الى المؤثرات اللغوية العربية في اللغة اللاتينية واليونانية التي انتشرت في صقلية وانتقلت منها الى مختلف مناطق أوروبا، وهي على سبيل المثال لا الحصر:

Fondaco	الفندق
Douane (Dohana)	ديوان
Defetari	دفتر
Rahba	رحبه
Cangemi	حجام
Kabel	كابيل (سلك)

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٢) انظر: Kantorowicz; Fredrick the Second, p.111.

(٣) ابن واصل، المصدر السابق، ج ٢٤٨.

Scheek	صك
Tariffa	تعرفة
Magazin	مخزن
Calslum	الملح القلوي (بوتاس)
Feluke	فلوكه (قارب)
Gittare	قيثارة
Rakete	راحة اليد (مضرب الكرة)
Bazzariotu	بازار
Sucre, Zuker	سكر
Carara	حرارة
Tarsia	ترصيع
Buscemi	قلعة أبو شامة
Misilmeri	منزل الأمير
Amiratus	أمير (أميراتوس)
Amiragghiu, Admiral	أمير البحر (أميرال)
Almanach	التقويم والمناخ
Almuquantarat	المقنطرات
Alcool, Al Khohol	الكحول
Apricot, Aprikose	البرقوق (المشمش)
Askari	عسكري
Darsenal	دار صناعة حربية
Azur	لازورد (أزرق سماوي)
Cafe, Caffee	قهوة
Cid	السيد
Mesquino	مسكين
Mohair	قماش المخير (من الماعز)

Tasse	طاسة
Artichoke, Carcioffa	أرضي شوكي (خرشوف)
Gasena	خزانة
Cassara	خسارة
Alcamo	علقمة
Marsala	مرسى علي
Trabia	تربيع
Favara	فؤارة
Zecca	السكة
Rotola	الرطل
Cantaro	القنطار
Azzalora	الزعرورة
Marascia	المرشة
Zabbara	الصبارة
Mazzara	المعصرة
Cassaro	القصر
Marzameni	مرسى الحمام
Pasteque, Pastecca	البطيخ
Naranzu	النارنج
Noria	الناعورة
Gebbia	الجابية
Galiggi	الخليج
La Cuba	القبّة
La Ziza	العزيزة
AlMotacen	المحتسب

وهكذا يلاحظ من خلال هذه الدراسة بأن صقلية كانت معبراً من معابر الحضارة العربية والإسلامية، فقد استفادت صقلية من هذه الحضارة، وأفادت سواها من بلدان أوروبا. وبالرغم من أن العلاقات الإسلامية - المسيحية في صقلية شهدت التوتر والتقاتل غير أن الثابت أيضاً بأن هذه الجزيرة شهدت علاقات حضارية على غاية من الأهمية. هذا وقد نظم ابن حمديس شعراً في صقلية^(١) معبراً عن اشتياقه لها فقال:

ذكرت صقلية والهوى يهيج للنفس تذكّارها
فإن كنت أخرجت من جنة فإني أحدث أخبارها

(١) انظر: المكتبة الصقلية، ص ١٤١.

الفصل الرابع

بالرمو عاصمة صقلية

الفصل الرابع

بالرمو عاصمة صقلية

بالرمو أو بلرم عاصمة صقلية وقاعدة ملوكها زمن حكم المسلمين والنورمان والجرمان ، وكان المسلمون يعرفونها باسم المدينة والنصارى يسمونها بالرمو ، وقد زارها ووصفها الرحالة المسلمون أمثال ابن حوقل البغدادي (المتوفى عام ٣٨٠ هـ) والمقدسي (زارها بعد ابن حوقل بثلاث سنوات) والشريف الإدريسي (المتوفى حوالي عام ٥٤٨ هـ) وابن جبير (المتوفى عام ٦١٤ هـ) وقد وصفها ابن حوقل التي زارها عام ٩٧٣ م ، بقوله ^(١) : « .. المدينة الكبرى المسماة بلرم وعليها سور عظيم من حجارة شامخ منيع ، يسكنها التجار وفيها مسجد الجامع الأكبر ، وكان بيعة للروم قبيل فتحها ... وببلرم طائفة من القصابين والجزارين والاساكفة وبها للقصابين دون المائتي حانوت لبيع اللحم ... وأشهر أبوابها باب البحر ... وباب أبو الحسين .. وباب شنتغات .. وباب روطه .. باب الرياض .. وباب ابن قرهب .. وباب الأبناء .. وباب الأودان .. وباب الحديد .. والغالب على البلد المعلمون ، والمكاتب به في كل مكان ، وبالبلد منهم ما يقارب ثلاثمائة معلم .. » ، ويلاحظ بأن ابن حوقل يتهجم كثيراً على أهل صقلية وفي مواقع عديدة منها مثلاً قوله : « .. والطارىء عليهم عظيم شديد ، لا يألفون ولا يؤلفون آخذين لذلك عن حاضرتهم لأنهم أيضاً في بغض التجار والغرباء .. لأنها جزيرة لم تختص بوجه من فضائل البلدان غير القمح

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص ١١٣ - ١١٤ .

منازلهم...»^(١). كما أن القزويني انتقد مسلمي بلرمو لكثرة المساجد وقربها من بعضها البعض ومما قاله: «... فسألت عن ذلك فقالوا القوم لانتفاخ أدمغتهم لا يرضى أحدهم أن يصلي في مسجد غيره، ويكون له مسجد لا يصلي فيه غيره»^(٢).

ومما قاله المقدسي في وصف بلرمو «بلرم هي قصبة اصقلية على البحر في الجزيرة أوسع من الفسطاط إلا أنها متفرقة. بناؤهم حجر وجيل وهي صحراء وبيضاء يحدق بها الفوارات والجنازير، ويسقيها نهر يقال له وادي عباس والأرحية وسطها. كثيرة الفواكه والخيرات والأعنان. الماء يضرب الحائط، ولها مدينة داخلية، بها الجامع والأسواق في الربض، ومدينة أخرى خارجة مسورة تسمى الخالعة بأربعة أبواب... وبها أيضاً جامع ولها أسواق... وصقلية جزيرة واسعة جليلة ليس للمسلمين جزيرة أجل ولا أعمر، ولا أكثر مدناً منها...»^(٣).

وجاء في وصف الباكوبي لبلرمو من أنها «مدينة بجزيرة صقلية في بحر المغرب بها هيكل عظيم، ويقال أن سقرط فيها في شيء من الخشب معلق، والنصارى يعظمون قبره. فيها من المساجد أكثر منها في جميع البلاد»^(٤). أما الإدريسي فقد امتدح بلرمو ومما قاله فيها «مدينة بلرم وهي المدينة السنية العظمى، والمحلة البهية الكبرى، والمنبر الأعظم الأعلى على بلاد الدنيا... وأشار إلى أنها تشتمل على كثير من القصور والمنازل الشائخة» وكثير من المساجد والفنادق والحمامات وحوانيت التجار الكبار... وبها الجامع الأعظم الذي كان بيعة في الزمن الأقدم وأعيد في

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٢٤. للمزيد من التفاصيل عن وصف ابن حوقل لأحوال الاندلس، انظر: المصدر نفسه، ص ١١٣ - ١٢٥.

(٢) القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، المكتبة الصقلية، ص ١٤٠.

(٣) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ٢٣١ - ٢٣٣، انظر أيضاً ص ٢٢١ - ٢٢٢، انظر أيضاً: أماري: المكتبة العربية الصقلية، ص ٥٥ - ٥٧.

(٤) عبد الرشيد بن صالح بن نوري الباكوبي: تلخيص الآثار وعجائب الملك القهار. انظر: أماري: المكتبة العربية الصقلية، ص ٦٠ من المقدمة.

هذه المدة على حالته في سالف الزمان...»^(١).

وإذا كان ابن حوقل قاسياً في أهل بلرم وصقلية كلها، غير أن الإدريسي كان أكثر انصافاً فوصف بلرم وصفاً جيداً بقوله: ان صقلية هي لؤلؤة هذا القرن في الغنى والجمال، وأول بلاد العالم في خصوبة أرضها وكثافة سكانها وقدم حضارتها. يأتي إليها المسافرون والتجار من كل الأنحاء وكلهم مقدر لصقلية مكانتها، الجميع يثنون على جمالها، ويتحدثون عن مزاياها وبضائعها التي تأتيها من أرقى البلاد، وبلرم مركز الملك منذ القدم، تقع على الساحل المكتنف بالشمس محاطة بالجبال مزينة بالمباني الفخمة لدرجة أن الناس تأتي إليها لترى فن البناء فيها وتحفها الفنية، ولتشاهد قصورها المتوجة بالأبراج ومبانيها ومساجدها وحماماتها وحوانيتها تجارها، ولا يستطيع المرء أن يتصور مدى جمال جامعها، بالإضافة إلى التحف والزينات والنادر من التماثيل والرسوم والزخارف الذهبية والملونة. وبلرم غنية بغواكها ولا يستطيع الإنسان أن يتصور فخامة مبانيها، إن هذه المدينة تجلب لب زائرها. ومما قاله فيها أيضاً «إن جزيرة صقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن. وقد يما دخلها المتجولون من سائر الأقطار... وكلهم أجمعوا على تفضيلها وشرف مقدارها، وأعجبوا بزاهر حسنها، ونطقوا بفضائل ما بها... فملوكها أعظم الملوك قدراً وأكبرهم خطراً وأرفعهم همة وأشمخهم رتبة...»^(٢).

أما ابن جبير الذي زار صقلية عام ٥٨٠ هـ - ١١٨٥ م، فقد وصف العاصمة بالرمو (أشرنا سابقاً إلى بعض ما قاله عنها) ومما قاله: «.. هي بهذه الجزائر أم الحضارة، والجامعة بين الحسين غضارة ونضارة، فما شئت بها من جمال مخبر ومنظر، ومراد عيش يافع أخضر، عتيقة أنيقة.. فسيحة السبك والشوارع.. وللمسلمين بهذه المدينة رسم باق من الايمان، يعمرن أكثر مساجدهم، ويقيمون

(١) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، المكتبة الصقلية، ص ٣٨.

(٢) الإدريسي: المصدر نفسه، ص ٣٥ - ٣٦ وما يليها من صفحات.

الصلاة بأذان مسموع.. ومن أعجب ما شاهدناه بها من أمور الكفران: كنيسة تعرف بكنيسة الانطاكي.. وزى النصرانيات في هذه المدينة زي نساء المسلمين، فصيححات الألسن، ملتحفات متنقبات.. لبسن ثياب الحرير المذهب.. حاملات جميع زينة نساء المسلمين..»^(١).

ومما يلاحظ أن ما من مؤرخ أو رحالة وصف صقلية إلا وأشار الى وجود البراكين. اصف الى ذلك الى أن ابن فضل الله الدمشقي وصف بلرمو أيضاً ومما قاله: «مدينة بلرم وهي على ساحل البحر بالجانب الغربي، والجبال محدقة بها، وعليها أسوار منيعة بأبراج مشيدة، وبدنات مكيئة، وهي على قسمين قصور وربض، وبها الديار والحمامات والفنادق والأسواق الممتدة والمساجد الباقية من زمن ملك الاسلام لها. وبها دار الصناعة لإنشاء السفن وبساتين محدقة ومياه جارية وأرحا دايرة»^(٢).

ويلاحظ أن بالرمو كانت حاضرة صقلية من النواحي السياسية والادارية والثقافية والعمرانية. وقد أقيم فيها في القرن الثالث عشر الميلادي مدرسة خاصة للترجمة من العربية الى اللاتينية واليونانية على غرار ما كان معمولاً به في مدرسة طليطلة (Toledo) في القرن الثاني عشر الميلادي. وقد أقيمت العلاقات الثقافية بين مدرسة بالرمو ومدرسة طليطلة، ومن العلماء الذين ترددوا على مدرسة بالرمو من مدرسة طليطلة العالم الاسكوتلندي ميخائيل سكوت (Scott) الذي ترجم أعمال أرسطو وشروح ابن رشد^(٣). وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر ترجم القرآن الكريم الى اللاتينية. كما ترجمت حادثة الاسراء والمعراج وانتشرت في

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

(٢) ابن فضل الله الكاتب الدمشقي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار. المكتبة الصقلية، ص ١٥٩. ومن يود الاطلاع على تفصيلات واستزادة حول صقلية وبلرمو وبقية المدن والتاريخ الصقلي، يمكن العودة إلى ميشيل اماري: المكتبة العربية الصقلية، حيث تضم أكثر من سبعمائة صفحة متخصصة كلها عن تاريخ صقلية عبر العصور.

(٣) ميخائيل سكوت (Scott) هو نفسه ميشال اسكوتوس (Michel Scotus) مترجم فريدريك.

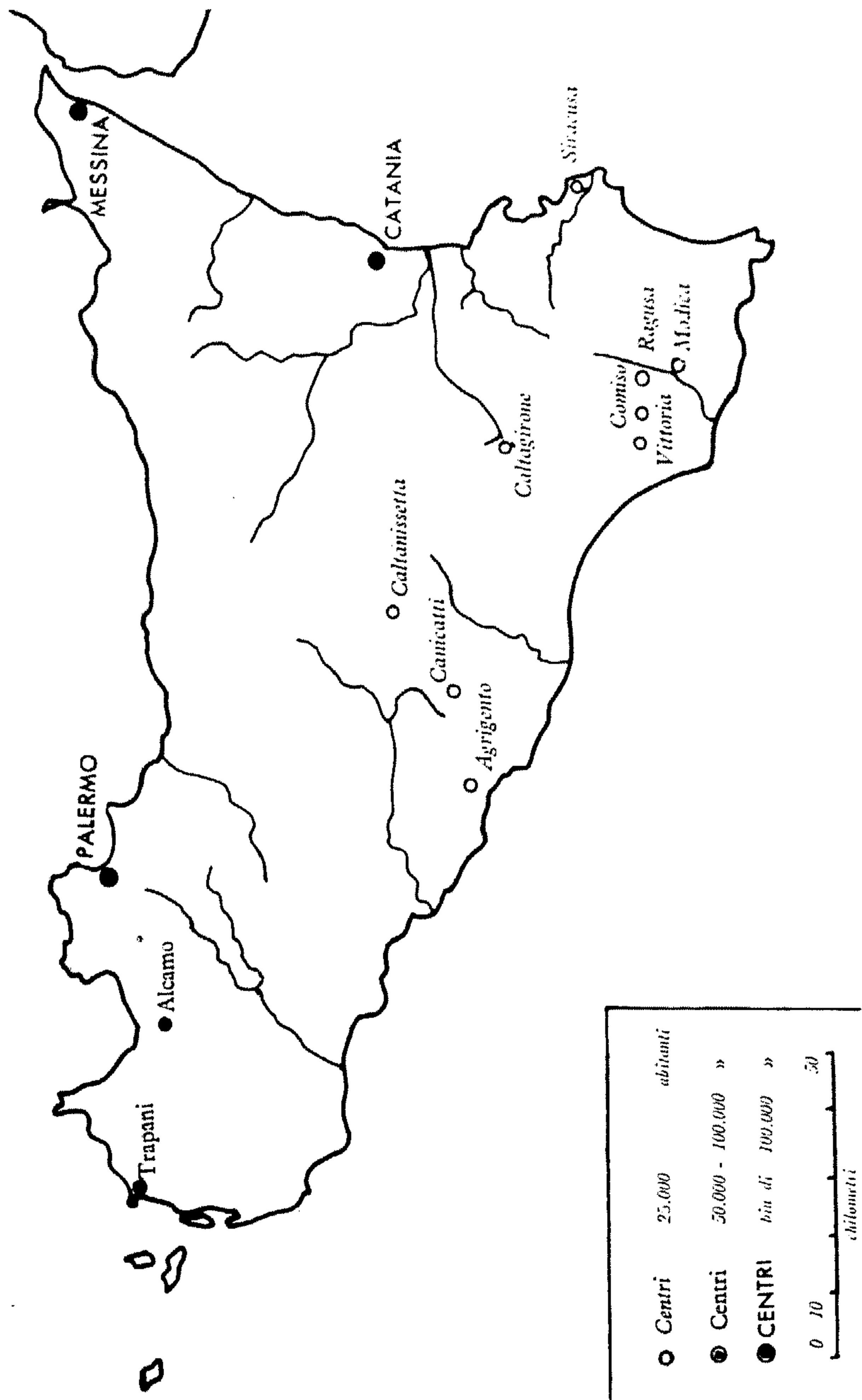
اسبانيا وايطاليا منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، وقد استفاد منها الشاعر الايطالي « دانتي » في ملحمة « الكوميديا الالهية » بواسطة أستاذه برونيتولا تيني (Prunetto Latini) الذي كان يزور دائماً مدرستي بالرمو وطليلة في عهد الفونسو الحكيم في القرن الثالث عشر . كما اتجهت مدرسة بالرمو الى ترجمة المؤلفات العلمية منها كتب ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧ م) وأبي بكر الرازي (المتوفى ٩٣٢ م) في الطب . وكان من أعلام المترجمين فيها أوجينوس بالرمي (Eugenius) وليوناردو بيزانو (Pisano) . ولعل من مظاهر النهضة العلمية في صقلية عامة وبالرمو خاصة ، تلك الآلاف من المخطوطات العربية القديمة التي لا تزال محفوظة إلى الآن في مكتبة الفاتيكان في روما (١) .

والحقيقة فإن بالرمو لا تزال الى الآن تتميز بالروح العربية والاسلامية في كثير من مظاهرها العمرانية والاجتماعية والثقافية . وهناك حرص من الصقليين على احياء العلاقات الثقافية بينهم وبين البلدان العربية ، فمنذ عام ١٩٥٩ افتتح في جامعة بالرمو قسماً خاصاً لتعليم اللغة العربية وآدابها ، مع الحرص على احياء التراث الصقلي العربي ، من خلال الدراسات التاريخية والمؤلفات والأبحاث المتنوعة .

(١) انظر : د . أحمد مختار العبادي ، العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٨١ - ٨٢ .

الخرائط والصور^[*]

(*) هذه الخرائط والصور مأخوذة من: د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية.



خريطة صقلية



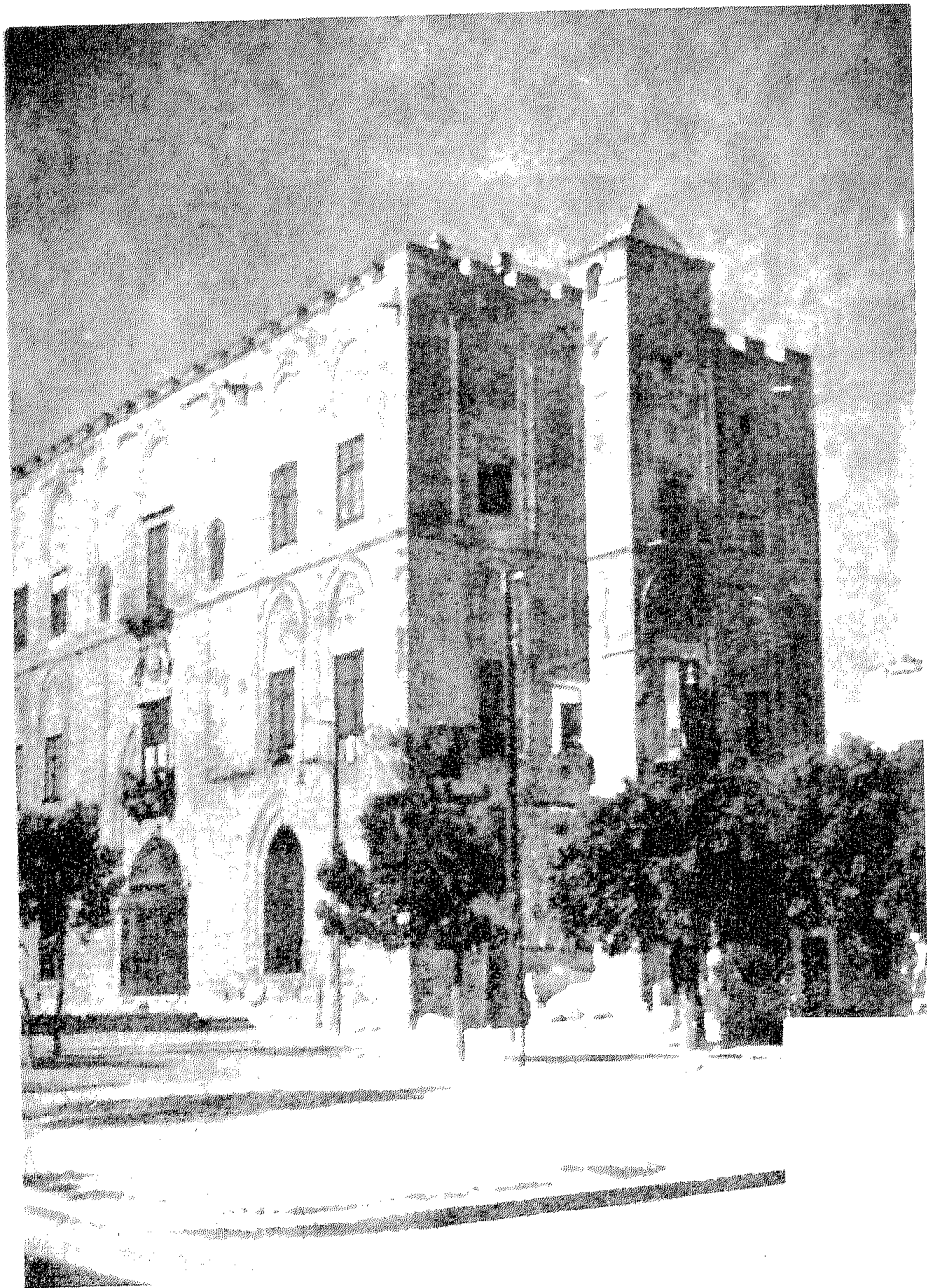
خريطة صقلية وجنوب ايطاليا



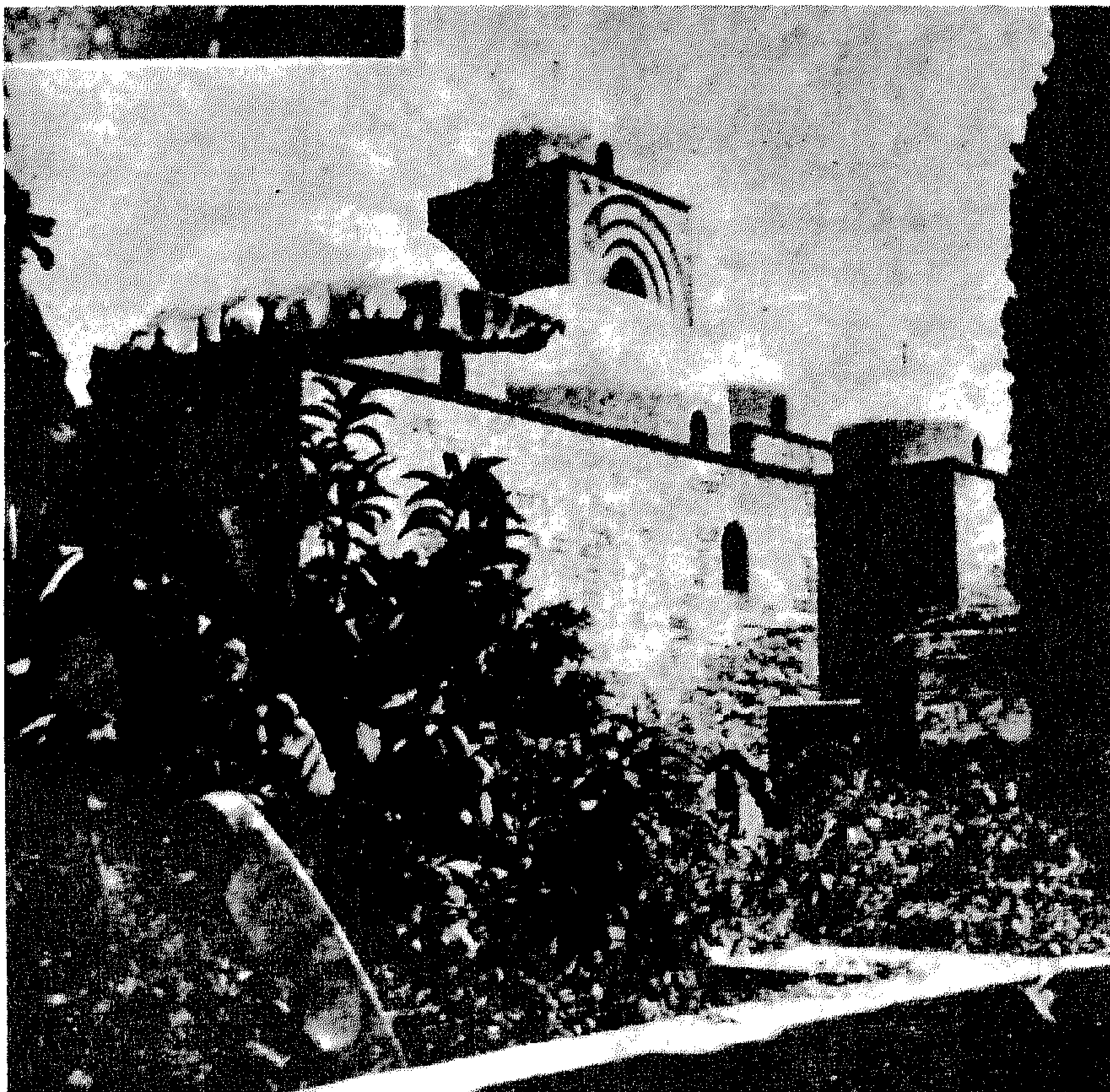
قصر الأمير جعفر في بالرمو



القبّة الصغرى في بالرمو



قصر العزيزة في بالرمو



كنيسة القديس يوحنا في بالرمو على الطراز المعماري الاسلامي

القسم الثالث
العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب
في بلاد الشام

الفصل الأول
مقدمة في الحروب الصليبية وأسبابها

الفصل الأول

مقدمة في الحروب الصليبية وأسبابها

تعتبر بلاد الشام من أهم المناطق الاستراتيجية منذ فجر التاريخ، ومنذ قيام الحضارات القديمة، وقد حاولت الامبراطوريات القديمة السيطرة عليها تبعاً لأهميتها على مختلف الأصعدة، وكان الرأي متفقاً على أن من يحتل بلاد الشام باستطاعته احتلال مصر وأفريقيا ومناطق عديدة في المنطقة. واستمر هذا الواقع وتنازع القوى الخارجية على هذه البلاد، الى قيام الدولة الاسلامية العربية التي استطاعت القضاء على الدولتين الفارسية والبيزنطية. غير أن القضاء على الدولتين لم يكن يعني انتهاء الاطماع ببلاد الشام، بل استمر العالم الغربي يتطلع اليها محاولاً بين الفترة والفترة السيطرة عليها، إلى أن جاءت فترة الحروب الصليبية في العصور الوسطى وتحديدًا منذ ما قبل وصول الحملة الصليبية الأولى الى بلاد الشام عام ١٠٩٨. ولعل البواعث التي أدت الى قيام الحروب الصليبية كثيرة ومتنوعة يمكن تلخيصها بما يلي^(١):

١ - الباعث الديني، ادّعت القوى السياسية في أوروبا بسوء أحوال المسيحيين في البلاد الاسلامية، وسوء معاملة المسلمين للحجاج المسيحيين، وكان ملوك أوروبا

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٧ - ٣٣. أرنت باركر: الحروب الصليبية، ص ١٤ - ٢٤. د. جوزف نسم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٧ - ٣٢.

Runciman, S; A History of the Crusades, vol.I, pp.104-113, 198-200.

وصفحات متفرقة...

وامراؤها قد أثاروا هذه الأمور ، غير أن البابا أوربان الثاني كان له الأثر الأكبر في إثارة روح التعصب ضد المسلمين ، والادعاء بضرورة انقاذ المسيحية من الاسلام في بلاد الشرق .

٢ - الباعث الاقتصادي ، كانت أوروبا تعاني من سوء الأوضاع الاقتصادية ، كما تعاني من المجاعات لا سيما في فرنسا ، وكثرة الحروب بين الاقطاعيين ، مما أفرز الكثير من المعدمين والفقراء . أضف الى ذلك أن جمهرة من التجار الايطاليين لا سيما تجار البندقية وجنوى وبيزا ، كانوا يشجعون على قيام الحروب في الشرق لأهداف تتعلق بمصالحهم الاقتصادية والتجارية . وقد أكد هؤلاء التجار أن تشجيعهم لقيام الحروب لم يكن خدمة للصليب أو حرباً ضد المسلمين وإنما لتحقيق مصالحهم الاقتصادية بوسائل عسكرية .

٣ - الباعث الاجتماعي ، كانت طبقة رجال الدين وطبقة النبلاء ، والفرسان والمحاربين من الطبقات الأساسية والحاكمة في المجتمعات الأوروبية ، والتي كانت تستغل الطبقات الدنيا ومنها طبقة الفلاحين الذين كانوا يعيشون حياة ملؤها الشقاء والتعاسة في ظل الاستغلال الاقطاعي وفي مقابل التزامات الفلاحين الالزامية لرجال الاقطاع . وقد كان الفلاح مع الاقنان والعبيد (رقيق الأرض) يفضلون الحياة والاقامة في أية منطقة في العالم ، على الاقامة في ظل الشقاء والعبودية ، وقد رأت هذه الطبقات الدنيا في الدعوة للحملات الصليبية متنفساً لها للخلاص مما تحيا فيه من ذل وعبودية . كما تم تشجيع شذاذ الآفاق وقطاع الطرق على المشاركة في هذه الحروب لتتخلص أوروبا منهم ، في وقت طمعوا هم بالأرتزاق والغنى في الشرق الثري الساحر .

٤ - الباعث السياسي ، كانت الأوضاع السياسية التي يعيشها ملوك وأباطرة أوروبا تحتم عليهم الخضوع للفكر الديني المسيحي ومن الثابت أن فردريك بربروسا وريتشارد قلب الأسد وفيليب اغسطس وفريدريك الثاني لم يشتركوا في الحروب الصليبية إلا بضغظ من البابوية باستثناء لويس التاسع ملك فرنسا المشهور بتعصبه

وتدبته وقناعته بمحاربة المسلمين. ثم أن بقية الأمراء كانت لهم أهدافاً سياسية من وراء اشتراكهم في هذه الحملات، تتلخص في سيطرتهم على الأراضي والاقطاعات التي حرم بعضهم من امتلاكها في الغرب. ومما يدل على ذلك الصراعات التي وقعت بين الأمراء أنفسهم بسبب الاقطاعات وامتلاكها في الشرق، كما دبّت الخلافات حول حكم الامارات والمدن.

وفي المقابل فإن بلاد الشام وأوضاع العالم الاسلامي، لم تكن قبيل هذه الفترة أوضاعاً طبيعية أو قوية، بل كانت الجبهات الاسلامية متناحرة ومفككة، فالدولة العباسية شهدت صراعات فارسية - تركية - عربية وأصبح الخلفاء العباسيون العوبة في أيدي الأتراك مما أدى الى اضطراب الأوضاع السياسية واشاعة الفتن وطمع العدو في البلاد. ومن ثم نشوء دويلات مستقلة في مراكش منذ ٧٨٨ - ٩٧٤ م، ودولة الأغالبة في تونس ٨٠٠ - ٩٠٩ م، ومن ثم الدولة الفاطمية ٩٠٩ - ٩٦٩ م. أما في مصر فقد قامت الدولة الطولونية ٨٦٨ - ٩٠٥ م، ثم قامت على انقاضها الدولة الأخشيديّة ٩٣٥ - ٩٦٩ م. وفي أوائل القرن الحادي عشر الميلادي ظهرت قوة السلاجقة الذين وضعوا أيديهم منذ عام ١٠٣٧ م على بعض ممتلكات الدولة الغزنوية ثم أصبحوا أكبر قوة في الشرق الاسلامي لا سيما في الفترة الممتدة بين ١٠٥٥ - ١٠٩٢ م، حيث قاموا بتوحيد العالم الاسلامي تحت رايتهم، واستطاعوا انزال الهزائم بالدولة البيزنطية في أكثر من موقع وفي أكثر من منطقة حتى في داخل أراضي البيزنطيين مثل قبادوقيا وملطية وسواس. غير أن عودة التفكك الى الدولة السلجوقية في الشرق والدولة الفاطمية في مصر ومن ثم الصراع بين الدولتين السلجوقية والفاطمية من جهة والصراع بين الفاطميين والعباسيين من جهة أخرى كل ذلك أدى الى تحضير الأجواء المناسبة للقوى الصليبية للزحف نحو الشرق الاسلامي للسيطرة عليه.

ويصف المقدسي الشام بقوله: « اقليم الشام جليل الشان، ديار النبيين، ومركز الصالحين، ومعدن البدلا، ومطلب الفضلا، به القبلة الأولى، وموضع الحشر

والمسرى والأرض المقدسة، والرباطات الفاضلة والثغور الجلييلة والجبال الشريفة...»^(١).

كما يصف لنا ابن حوقل بلاد الشام قبيل الحروب الصليبية بمناطقها ومدنها وأوضاعها فيقول: «وأما الشام فإن غربيها بحر الروم، وشرقيها البادية من ايلة إلى الفرات ثم من الفرات إلى حد الروم، وشاليها بلاد الروم وجنوبيها مصر وتيه بني اسرائيل، وآخر حدودها مما يلي مصر ورفح ومما يلي الروم الثغور المعروفة قديماً بثغور الجزيرة وهي: ملطية والحدث ومرعش والهارونية والكنيسة وعين زربة والمصيصة واذانة وطرسوس.. وكور الشام فهي جند فلسطين وجند الاردن وجند دمشق وجند حمص وجند قنسرين والعواصم والثغور... وفلسطين أزكى بلدان الشام ربوعاً ومدينتها العظمى الرملة وبيت المقدس تليها في الكبر... وبيت المقدس مسجد ليس في الإسلام مسجد أكبر منه.. وكانت مدينة ملطية مدينة كبيرة من أجل الثغور وأشهرها وأكثرها سلاحاً.. وهي من أقوى بلد للروم في هذا الوقت، يسكنها الأرمن وفتحت في سنة تسع عشرة وثلاثمائة [٩٣١ م]، فكانت أول مصيبة دخلت على الاسلام من جهة الثغور.. وكانت الحدث ومرعش مدينتين صغيرتين افتتحها الروم قبل هذا الحين وأعادهما سيف الدولة علي بن عبد الله، وعاد الروم فانتزعوها ثانياً من المسلمين، وعاد المسلمون ففتحوها وكان فتحها مسعود ابن قلعج أرسلان السلجوقي صاحب بلاد الروم سنة خمس وأربعين وخمماية وهي بيد المسلمين الآن...»^(٢) وبعد أن عدّد ابن حوقل مناطق شامية عديدة قال:

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥١. ومما يلاحظ ما أورده المقدسي بأن بيروت وبعض المدن الداخلة اليوم في نطاق لبنان وإنما كانت تابعة تحديداً لعقبة دمشق. وقد ذكر ذلك في أكثر من موقع. ومنها قوله في ص ١٥٤: «... وأما دمشق فاسم العقبة أيضاً ومدنها بانياس، صيدا، بيروت، أطرابلس، عرقة، وناحية البقاع مدينتها بعلبك، ولها كامد عرجوش، الزبداني...».

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٥٣ - ١٧٣. انظر أيضاً المقدسي، المصدر السابق، ص ١٥٣ - ١٧٩.

«... والباقي من الشام في أيدي المسلمين وحكمهم فيه نافذ وأمرهم فيه ماض، فهو ما كان على ساحل بحر الروم من حد طرابلس وأنفه الى نواحي يافا وعسقلان، لأن اللاذقية وما نزل عنها وحاذها تحت جزييتهم ومقاطعتهم. وما عدا ذلك فللروم وقبضتهم وحوزتهم قد استولت عليهم أسيافهم والحكم فيه اليهم. وقد أقام كثير من أهلها فيما رضوا منهم فيه بالجزية، وأظنهم بآخرة صائرين إلى النصرانية آنفة من ذلة الجزية ورغبة مع حذق المؤونة في العز والراحة. فأما تقدير ما بقي منها لم أذكره، فمذ سنون كثيرة لم يقع لها قانون صحيح ولا استخراج على طريقته وصحته، وذلك أنها مذ سنة أربعين بين قوم يتناول أحدهم على الآخر وأكثرهم غرضه ما احتلبه في يومه وحصله لوقته لا يرغب في عمارة ولا يلتفت إليها برؤية ولا اشارة...»^(١).

وبشيء من المقارنة الموجزة يمكن التعرف الى الأوضاع التي كانت سائدة في الغرب والشرق قبيل الحروب الصليبية. وهكذا بدأت الحملات الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الأولى التي وصلت الى بلاد الشام عام ١٠٩٨ م، وكان عددها الاجمالي ثماني حملات أساسية بالإضافة إلى حملات فرعية حملت مجموعات من الغربيين الى الشرق. فالحملات الأولى والثانية والثالثة والسادسة اتجهت الى بلاد الشام، بينما اتجهت اثنتان الى مصر وهما الخامسة والسابعة، في حين اتجهت الحملة الرابعة إلى القسطنطينية، بينما اتجهت الثامنة إلى أفريقيا، وقد استمرت هذه الحملات من الناحية العسكرية الى حين سقوط مدينة عكا في فلسطين عام ١٢٩١ م، بالرغم من أن هذا التاريخ لا يعني انتهاء حاسماً للحركة الصليبية.

ولقد بدأت الحروب الصليبية - او بالأحرى تجددت - عندما دعا البابا أوربان الثاني سنة ١٠٩٥ في مجمع كليرمونت للقيام بحملة على الشرق الاسلامي، وقد عرفت هذه الحملة في التاريخ باسم الحملة الصليبية الأولى. وقد نشط البابا مع ملوك أوروبا لتنفيذ هذه الحملة بدعوى تخليص المسيحيين والحجاج من اضطهاد

(١) ابن حوقل، المصدر السابق، ص ١٧٢.

الأتراك السلاجقة، والعمل على طرد المسلمين من آسيا بالجهد والعزيمة نفسها التي يجري بها طردهم من اسبانيا، لا سيما بعد اتفاق البابا مع الامبراطور البيزنطي الكسيوس كوفين، وبعد موافقة ادهار - أسقف بوي Puy - الذي أصبح المندوب البابوي في الحملة الأولى. كما وافق على مشروع الحملة الصليبية ريموند الرابع أمير تولوز وبروقانس (١٠٨٨ - ١١٠٥). وكرس بطرس الناسك نفسه للدعوة لهذه الحملة بين الطبقة العامة، وكان أحد أوائل متقدمي الحملة باتجاه الشرق بعد أن استطاع تجميع الكثير من المسيحيين واقناعهم بضرورة المشاركة بالحرب ضد المسلمين.

في عام ١٠٩٦، وبعد وصول طلائع الحملة الى البوسفور، قرّر قادتها الزحف على نيقية قاعدة السلطان قلعج ارسلان. وكان عدد أفراد الحملة ما يقارب خمسة وعشرين ألفاً، ولكن استطاع السلاجقة مباغتتهم والقضاء عليهم، ومن بقي منهم على قيد الحياة عادوا الى القسطنطينية وظلوا تحت رعاية الامبراطور الكسيوس حتى وصول حملة الأمراء.

وفي نيسان (ابريل) ١٠٩٦ تجمع في حوض الراين جمع كبير من الصليبيين الألمان قدر عددهم بأكثر من عشرة آلاف مقاتل تحت قيادة فولكمار (Volkmar). وفي الوقت نفسه تجمعت قوى أخرى في حوض الراين بزعامة الأمير إميك (Emich). وكانت المجموعة الأولى من حملة الأمراء برئاسة «جودفري اف بوايون» (Godfrey of Bouillon) أمير لوثرنجيا وبرفقتة شقيقه بلدوين البولوني، وفي الوقت نفسه اتجه الى الشرق «بوهيموند النورماني» (Bohemond) على رأس حملة نورمانية كبرى وبصحبه ابن أخته تنكرد وغيره من أمراء النورمان في جنوب ايطاليا وصقلية. كما وفدت مجموعة بروفانسية بقيادة ريموند الرابع، ومجموعة صليبية أخرى تألفت من الفرنسيين تحت زعامة روبرت أمير نورمانديا. ابن وليم الفاتح^(١).

(١) للمزيد من التفصيلات انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور =

تجمعت قوات الحملة الصليبية كلها على الشاطئ الآسيوي قرب أزمير، وتم لاتفاق على بدء الهجوم على مدينة نيقية القاعدة الأساسية لقلج ارسلان ومقر حكمه في أواخر نيسان (ابريل) سنة ١٠٩٧. وبالفعل ففي ٦ أيار (مايو) ١٠٩٧ أدرك الصليبيون نيقية، وبدأوا بمحاصرتها ومهاجمتها ومن ثم انتصروا على قلج ارسلان وحاميته. وكان سقوط نيقية مشجعاً للصليبيين للتقدم نحو صورليوم حيث جرت فيها معركة في أول تموز (يوليو) ١٠٩٧ كانت نتيجتها أيضاً لمصلحة الصليبيين ضد الأتراك (السلاجقة وبنو دانشمند).

بدأ الصليبيون زحفهم تباعاً، بالاستلاء على المناطق التي كانوا يملكون فيها مثل هرقله وقيصرية. وبلاكتيا والرها وبعض المناطق الأرمنية وفي مقدمتها مرعش. ومنها توجهوا الى بلاد الشام، ووصلوا جسر الحديد على نهر العاصي في ٢٠ تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٧. والأمر اللافت للنظر هو أن بعض القيادات الإسلامية لم تدرك تماماً طبيعة وخطورة الحركة الصليبية على مصر المنطقة، بحيث أن الفاطميين في مصر لم يتورعوا عن التحالف مع الصليبيين ضد خصومهم العباسيين في بغداد والأتراك السلاجقة في الشام، على قاعدة أن تكون انطاكية للصليبيين ويكون بيت المقدس للفاطميين. ولم يعلم الخليفة الفاطمي المستعلي (١٠٩٤ - ١١٠١) ووزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجهمالي، بأن انطاكية لم تكن الهدف الحقيقي للصليبيين، بينما كان بيت المقدس أحد أهم توجهاتهم.

وفي العام ١٠٩٨ جرت معارك عسكرية كثيرة بين الصليبيين والأتراك، توجت باعلان اماره انطاكية اماره صليبية. وفي ٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٠٩٨ عقد الصليبيون اجتماعاً في كنيسة القديس بطرس، وأجمعوا على قرار بضرورة استئناف الزحف نحو بيت المقدس. وبالفعل ففي ١٣ كانون الثاني (يناير)

= الوسطى، ص ٨٢ - ١١٣.

Runciman, Op.cit.; vol.1, pp.101-102, 108-109; Grousset; Histoire des croisades et de Royaume France de Jerusalem, vol.1, p.4. Foucher de chartres; Histoire occid. T3, pp.331-332.

١٠٩٩ خرج ريموند من معرة النعمان على رأس جيوشه معلناً الزحف نحو الأراضي المقدسة. وتحركت الحملة الصليبية بعد أن ظلت خمسة عشر شهراً في شمال الشام من تشرين الأول (أكتوبر) ١٠٩٧ لغاية كانون الأول (ديسمبر) ١٠٩٨^(١).

وبعد السيطرة على مدن الشام، اتجه الصليبيون نحو البقاع فسيطروا عليه، كما سيطروا على حصن الأكراد، وعرة شمالي طرابلس وطرطوس. ثم سيطروا على طرابلس ذاتها وعلى بيروت وصيدا وصور وقيسارية والرملة واللد. وفي ٦ حزيران (يونيه) سنة ١٠٩٩ زحف الصليبيون مباشرة نحو بيت المقدس، بعد صدمة تلقاها الفاطميون من فشلهم في اقناع الصليبيين بالتحالف معهم دون انتزاع بيت المقدس منهم. وبعد ما يقارب الأربعين يوماً - بين ٧ حزيران (يونيه) ١٠٩٩ - ١٤ تموز (يوليو) ١٠٩٩ - وبعد ارتكاب مجزرة رهيبة داخل المسجد الأقصى، استطاع الصليبيون الاستيلاء على القدس الشريف واخضاعه لهم مباشرة.

بعد سقوط بيت المقدس قام الصليبيون باحتلال نابلس وعسقلان والجليل وطبريا^(٢). وكان من الطبيعي أن تكون الخطوة التالية للعمل الحربي الصليبي هي العمل الإداري. لهذا عقد الصليبيون اجتماعات عديدة في بيت المقدس للنظر في تنظيم الدولة التي أقاموها في الشرق الأدنى وبعد منازعات وقع اختيارهم على الدوق الفرنسي «جودفري أف بوايون» (Godfrey of Bouillon) ليكون ملكاً على بيت المقدس ثم عندما مات هذا الملك إثر إصابته بسهم أمام أسوار عكا سنة ١١٠٠ م اختار الصليبيون أخاه «بلدوين» الأول ليحل محله ولقب بالملك،

(١) انظر: د. سعيد عاشور: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ١٢٧.

(٢) للمزيد من التفاصيل حول العلاقات الحربية بين المسلمين والصليبيين يمكن العودة الى بعض المصادر القديمة ومنها: أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين، ج ١، ج ٢. وكتاب ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين) وكتاب: الاصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي وسواها من المصادر الأخرى.

وصارت دولة بيت المقدس تعرف بمملكة بيت المقدس أو المملكة اللاتينية ولقد حول الصليبيون جميع مساجد القدس الى كنائس وخاصة مسجد قبة الصخرة الذي كان عبد الملك بن مروان قد بناه على انقاض مسجد عمر بن الخطاب ولقد أقام (فرسان تامبلا) « فرسان الداوية » (Temples) في المسجد الأقصى بعد أن حولوه الى كنيسة وأطلقوا عليه اسم معبد سليمان. ومن ثم عرف هؤلاء باسم فرسان المعبد أما تسميتهم بالداوية فهي كلمة سريانية تعني الفقراء. أما عن الوسائل الدفاعية الخاصة بتنظيم الدفاع عن « مملكة بيت المقدس » فقد طبق فيها نظام الاقطاع الحربي السائد في العصور الوسطى الذي يقوم على استئجار الأراضي في مقابل الدفاع عن البلاد والاشتراك في جيوش الدولة. وإلى جانب هذا النظام الاقطاعي كان يوجد جيش يتقاضى عناصره رواتب مالية. ومن بين التنظيمات العسكرية الأخرى في مملكة بيت المقدس الأنظمة العسكرية القائمة على أسس دينية، وقد قامت على اكتاف جماعة الفرسان الداوية والاسبتارية وهم من الجنود الرهبان الفقراء الذين نذروا أنفسهم وأرواحهم لخدمة الدين والدفاع عن الأراضي المقدسة. أما المناطق الساحلية فقد كان الدفاع عنها في أيدي الجاليات الايطالية مثل أهالي البندقية وجنوى وبيزا وكان لديها من الأساطيل والمعدات الحربية ما يمكنها من الدفاع عن هذه المناطق حرصاً على مناطقها التجارية وبالإضافة الى ذلك فقد اهتم الصليبيون ببناء الحصون حول بيت المقدس والامارات الصليبية الأخرى وأهمها الحصون الواقعة عبر الاردن حيث تمر طريق القوافل والحج بين مصر والشام والحجاز ومن أشهر هذه الحصون حصن الكرك في جنوب فلسطين ويتبعه ميناء ايلات في العقبة ويمكن القول بأن انتصار الصليبيين على المسلمين أدى الى إقامة عدد من الامارات والممالك الصليبية ومنها: امارة الرها على الفرات وامارة انطاكية في شمالي الشام وامارة طرابلس على البحر المتوسط ثم كان أقواها مملكة بيت المقدس.

والحقيقة فإن وجود هذه الممالك أدى الى إثارة الوعي واليقظة الاسلامية للعمل على التخلص من العناصر التي جاءت من الخارج للسيطرة على المناطق العربية

والاسلامية وقد تيسر للمسلمين بعد هذه الفترة رجال عملوا على القضاء على المخطط الصليبي وبين هؤلاء عماد الدين زنكي ونور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي^(١).

أما فيما يختص بعماد الدين زنكي الذي حكم من ١١٢٧ حتى ١١٤٦ م فهو من مشاهير الأمراء الأتراك سلمه السلطان محمود السلجوقي أتابكية إمارة الموصل وحلب سنة ١١٢٧ م. وكانت شهرته قد تزايدت منذ العام ٥٠٦ هـ - ١١١٢ م، حين اشترك في الهجوم على طبرية^(٢). ومعنى ذلك مجاورته لأمارتي الرها وانطاكية الصليبيتين، ورأى عماد الدين زنكي ضرورة القضاء على إمارة الرها خاصة لأنها تحول دون الاتصال بين أمارتي الموصل وحلب ومن أجل ذلك بدأ بتقوية جيشه وحصونه وجواسيسه وقد استغل عماد الدين زنكي أيضاً الخلاف الواقع بين أمير الرها (جوسلين) وبين أمير انطاكية (بوهمند) أو ريموند فبدأ بشن الغارات عليها فاستطاع أن يستنزف قوة الجيش في إمارة الرها مما اضطر أمير الرها وجنودها إلى مغادرة أمارتهم وبالتالي تم استيلاء عماد الدين زنكي عليها سنة ١١٤٤ م، ولقد أثار هذا الانتصار الإسلامي على الصليبيين وجهاً من الحماس بين المسلمين فأقبلوا على الجهاد^(٣). غير أن عماد الدين زنكي لم يعيش طويلاً بعد استيلائه على إمارة الرها، فقد اغتيل أثناء نومه بيد بعض غلمانه سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م، وخلفه على حكم إمارة حلب ابنه الملك العادل نور الدين محمود زنكي أما حكم منطقتي الموصل والرها فقد آلت لابنه البكر سيف الدين غازي بن زنكي.

وكان نور الدين محمود ١١٤٦ - ١١٧٤ م، ٥٤٠ هـ - ٥٦٩ هـ قد حكم في

(١) Lane-Poole; Saladine... p.34.

(٢) Lane-Poole; Ibid, p.35.

(٣) للمزيد من التفاصيل عن نشاط عماد الدين زنكي انظر : Lane-Poole; Op. Cit; pp.42-49. 55-57.

حلب بإمكانات ضعيفة لهذا رأى ضرورة التسامح مع المذاهب الإسلامية كلها ، وقد ساعده ذلك على تهيئة المسلمين للجهاد ضد الصليبيين ولم يستطع نور الدين في بادئ الأمر القيام بأي عمل حربي ضد إمارة أنطاكية القريبة منه ، وقد فضل البقاء في إطار مملكته الصغيرة والدفاع عنها ضد الخطر الصليبي الجديد الذي ظهر في الأفق في إطار الحملة الصليبية الثانية التي كان سببها استرداد إمارة الرها التي سبق أن استولى عليها عماد الدين زنكي والد نور الدين .

الحملة الصليبية الثانية^(١) ٥٥٢ هـ - ١١٤٨ م . من أهم الشخصيات التي اشتركت بالحملة الصليبية الثانية الامبراطور الألماني كورات الثالث وملك فرنسا ، لويس السابع ، غير أن هذه الحملة فشلت فشلاً ذريعاً فقد تمكن الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى من صدها والانتصار عليها واضطر الملكان الألماني والفرنسي إلى اتخاذ طريق البحر إلى إمارة أنطاكية الصليبية وعوضاً من أن يهاجم الصليبيون ممتلكات نور الدين وشقيقه سيف الدين لاستعادة الرها إذا بهم يستجلبون اقتراح بيت المقدس بمهاجمة دمشق لأنها قريبة من المدينة المقدسة ولأنها تشكل خطراً على الصليبيين . وبالفعل فقد اتجه الملكان إليها وحاصراها بواسطة بعض ما لديهما من جيوش ومعدات في عام ١١٤٨ م ، غير أن الجيش في دمشق استطاع المقاومة وإفشال حصار المدينة ، الأمر الذي اضطر الملكين الألماني والفرنسي إلى الانسحاب والسفر إلى بلديهما وكان فشل الحملة الصليبية الثانية قد ضاعف أيضاً من حماس المسلمين فاستغل السلطان نور الدين محمود هذه الروح الإسلامية فهاجم إمارة أنطاكية وانتصر على أميرها بوهمند واستولى على جميع المراكز الصليبية الواقعة بين حلب وأنطاكية وبالرغم من أن نور الدين لم يستطع دخول أنطاكية غير أنه بهذه الانتصارات جعل أميرها مشلول الحركة داخل مدينته لا يستطيع القيام بأي عمل هجومي ، وأخذ نور الدين يعمل على توحيد الإمارات الإسلامية وقد ساعد على ذلك وفاة شقيقه سيف الدين غازي ملك

(١) عن جميع هذه الحملات الصليبية : انظر : أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ٢٥ - ١١٩ .

الموصل والأمير معين الدين صاحب دمشق معاً ، وفي سنة واحدة في سنة ١١٤٩ م وقد أتاحت له الفرصة لضم الموصل ودمشق الى مملكته ، وكان معنى ذلك قيام دولة إسلامية متحدة تمتد من الموصل وحلب شمالاً الى دمشق جنوباً ، وكان قيامها نوعاً من التوازن بين الدولة الإسلامية والدولة المسيحية في الشرق العربي .

وفي هذه الأثناء حدث نوع من التسابق بين نور الدين وبين الصليبيين لاحتلال مصر نظراً لأهميتها وموقعها الهام بالنسبة الى بيت المقدس والى بلاد الشام معاً وقد حدثت معارك بين الصليبيين والمسلمين من أجل السيطرة على مصر انتهت هذه المعارك باتفاق على الانسحاب سوياً من مصر ، غير أن هذه المعارك لم تلبث أن عادت وتكررت وانتهى الأمر الى احتلال جيوش نور الدين زنكي لمصر وانسحاب الصليبيين منها وكان انتصار المسلمين وضمهم مصر بمثابة عامل هام لتوحيد الجبهة الإسلامية ، فقد أصبحت المملكة الصليبية ولأول مرة بعد وجودها تواجه وحدة مصرية شامية . ومن الشخصيات التي قامت بدور بارز في بعث الحركة التوحيدية الإسلامية شخصية الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ، وهو من أصل كردي والده نجم الدين أيوب قائد قلعة تكرت شمالي بغداد وكان صلاح الدين قد خلف عمه في وزارة مصر وفي قيادة جيش نور الدين فيها^(١) . وواجهت صلاح الدين بعض الصعوبات في مصر من جانب بعض المصريين الذين رفضوا السيطرة الشامية ومن جانب الصليبيين الذين كانوا يطمعون في احتلال مصر ثم من جانب نور الدين نفسه الذي كان يخشى أن يستقل صلاح الدين بحكم مصر ولكن صلاح

(١) للمزيد من التفاصيل عن حياته انظر : المقرئزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٤١ - ٤٤ . وقد انتشر في دمشق أقوال مأثورة عن صلاح الدين منذ عهد الملك نور الدين وتلك الأقوال هي : « الناصر للصليب كاسر ، وللفرنجة خاسر ، وللقدس طاهر ، من كل رجس فاجر ، الظاهر بالله ظاهر ، قاتل كل كافر ، وللتار قاهر ، من كل فاجر وعاهر ، الناصر النور الباصر ، بالشرق ظافر ، يطيهها بالخف والحافر ، بعد ثلاث تواتر » . وقد ورد ذلك في الدواويري : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٨ ، ص ٢٧٥ .

الدين استطاع بفضل حكمته ومساعدة والده نجم الدين أيوب وأخوته أن يتغلب على الكثير من الصعاب، وقد ساعده أيضاً وفاة الملك العادل نور الدين سنة ١١٧٤م تاركاً وراءه ابنه اسماعيل الذي كان في الحادية عشرة من عمره، وكذلك توفي في السنة نفسها ملك المملكة اللاتينية في فلسطين الذي ترك بدوره ابناً مريضاً وعاجزاً لم يبلغ سن الرشد بعد وهو بودوان الرابع الملقب بالأبرص وكانت فرصة لصالح الدين أن يخطط لمستقبل العلاقات العسكرية مع الصليبيين على النحو التالي :

- ١ - فترة الاستعداد وتوحيد المشرق العربي .
- ٢ - العمل على استرداد بيت المقدس ومحاولة الانتصارات على الصليبيين .
- ٣ - العمل على مواجهة ملوك غربي أوروبا لاسيما في حملتهم الثالثة .

الفترة الأولى :

وهي فترة الاستعداد امتدت نحو ١٥ سنة « ٥٦٧ - ٥٨٢ هـ » وقد استطاع صلاح الدين خلال هذه الفترة أن يسيطر على بلاد النوبة واليمن الجنوبي وعلى بلاد الشام والجزيرة وأن يكون جبهة إسلامية موحدة أحاطت بالمملكة الصليبية في فلسطين من كل جانب وفي هذه الفترة أيضاً اهتم صلاح الدين بتقوية الجيش والاسطول وتحصين الثغور ، ولم يأت عام ٥٨٢ هـ - ١١٨٦ م إلا وكان قد تمكن من تحقيق الوحدة التي كان ينشدها .

الفترة الثانية :

وتمثلت الفترة الثانية بعد عملية الوحدة بالقيام بهجوم إسلامي على مملكة الصليبيين عام ٥٨٣ هـ - ١١٨٧ م وكان صلاح الدين قد اتخذ من ممارسات بعض الأمراء الصليبيين الاستفزازية سبباً مباشراً لهجماته مثل : ممارسات أحد فرسان مملكة بيت المقدس المعروف باسم رينو دي شاتيو . وفي أواخر عام ١١٨٦ م قام صلاح الدين بهجمات على بعض المناطق الصليبية التي كانت تتعرض

للقوافل الإسلامية والتي كانت تسافر من مصر الى بلاد الشام^(١). وفيما بعد هاجم مدينة طبريا مما أثار حفيظة الصليبيين فتداعوا لمجلس حربي عقد في عكا قرروا فيه الزحف الى طبريا. وبالفعل فقد بدأ الصليبيون بالهجوم بينما حرص صلاح الدين على أن يعزل الصليبيين في تل صخري قاحل لا توجد فيه المياه وهو تل حطين^(٢). ولما ابتدأ القتال بين الجانبين تبين بأن موقف المسلمين كان أقوى من موقف الصليبيين الذين حوصروا في هذا التل وانتهت المعركة بانتصار المسلمين واستسلام الصليبيين وفرار زعيمهم ريموند الثالث. وعلق المؤرخ ابن الأثير المعاصر لتلك الفترة على موقعة حطين بالقول: « كل من يرى القتل يحسب أن ليس هناك أسرى، ومن يرى الأسرى يحسب أن ليس هناك قتلى ». فيما أشار المقرئ بأخذ المسلمين صليب الصليبوت « وأسروا الابرنس ارناط صاحب الكرك والشوبك وعدة ملوك آخرين، وقتل وأسر من سائر الفرنج ما لا يعد كثرة. ثم قدم الابرنس ارناط وضرب السلطان عنقه بيده، وقتل جميع من عنده من الفرنج الداوية والاستارية... »^(٣).

وبعد هذه الموقعة بدأ صلاح الدين يسيطر على المدن الصليبية التي عاملها معاملة حسنة، وقد استولى على عكا ويافا وحيفا وصيدا وبيروت وجبيل وعسقلان وغزة. وبذلك تهيأ له اتصال بحري سريع وسهل بين قسيمي دولته أي بين الشام ومصر^(٤). ولم تستعص عليه سوى صور بسبب موقعها الجغرافي، ثم اتجه صلاح الدين الى الداخل لمحاصرة مدينة القدس فاضطرت الى التسليم يوم الجمعة ليلة الإسراء في ١٧ رجب سنة ٥٨٣ هـ^(٥)، ١١٨٧ م وكانت الشروط التي

(١) انظر: Grousset; Histoire des Croisades, II, p.116.

(٢) انظر د. الباز العريبي: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ١ (الايوبيون)، ص ٧٦ - ٩٠.

(٣) المقرئ: السلوك، ج ١، ص ٩٣.

(٤) Stevenson; The Crusaders In the East, p.249.

(٥) انظر المقرئ، المصدر السابق، ج ١، ص ٩٦.

فرضها صلاح الدين على المدينة في غاية التسامح والكرم ، مما دعا بعض المؤرخين الصليبيين المعاصرين للقول : لم تتجل عظمة صلاح الدين مثلما تجلت عند تسليم المدينة الخالدة ، فقد سمح لمن يجب أن يغادر المدينة حاملاً أمتعته وأمواله ، أما النصارى الشرقيون فقد اعتبروا من أهل البلاد وعوملوا معاملة المواطنين . كما أن صلاح الدين لم يحاول أن يهدم الكنائس ، بل تركها وكان على رأسها كنيسة القيامة ، واكتفى بإعادة المساجد التي حولت إلى كنائس لاسيما المسجد الأقصى ، ولقد واصل صلاح الدين فتوحاته فاسترد بقية المدن الشامية باستثناء انطاكية وطرابلس وصور ، وقد عبّر صلاح الدين عن هذا النصر بقوله في رسالة الى أخيه توران شاه باليمن : « إن بلاد الشام لا تسمع فيها لغواً ولا تأثيماً إلا قبلاً سلاماً سلاماً » .

الفترة الثالثة :

كان لانتصارات صلاح الدين الأيوبي ردود فعل خطيرة في غرب أوروبا الأمر الذي دعا البابوية والملوك والأمراء للدعوة للقيام بحملة صليبية ثالثة ، وقد لبى الدعوة ثلاثة من كبار ملوك غربي أوروبا هم :

- ١ - فريدريك بربروسا امبراطور المانية .
- ٢ - رتشارد قلب الأسد ملك انكلترا .
- ٣ - فيليب اغسطس أو الثاني ملك فرنسا .

وقد دامت هذه الحملة الصليبية بالشرق ثلاث سنوات (١١٨٩ - ١١٩٢ م) وكان الأمبراطور فريدريك ملك المانيا أول من اتجه الى بلاد الشام ولكن عندما اقترب من هذه المنطقة انتشر الطاعون بجيشه وفتك بجنوده ، ثم لم يلبث الامبراطور نفسه أن غرق في نهر بالقرب من انطاكية . وعلى أثر ذلك اضطر اتباعه الى العودة الى بلادهم . أما فيليب الثاني ورتشارد قلب الأسد فقد وصلا الى الشام عن طريق البحر في وقت واحد تقريباً وبدأ بمحاصرة مدينة عكا براً وبحراً وركزا في هذا الحصار جميع قواتهما وقد حاول صلاح الدين إنقاذ هذه المدينة ولكنه لم

ينجح ، فاستسلمت المدينة في عام ٥٨٧ هـ - ١١٩١ م بعد حصار دام سنتين تقريباً ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت مدينة عكا أهم قاعدة للصليبيين في بلاد الشام ، وبعد سقوط عكا دب الخلاف بين فيليب الثاني وبين ريتشارد قلب الأسد ، الذي حاول استرجاع بيت المقدس ولكنه فشل في محاولته امام قوات صلاح الدين ، غير أن قلب الأسد استطاع السيطرة على بعض المدن الساحلية الجنوبية من عكا إلى يافا ونظراً للخلافات الداخلية في انكلترا اضطر ريتشارد للعودة إليها بعد أن عرض الصلح على صلاح الدين عرف بصلح الرملة في شعبان ٥٨٨ هـ - ايلول ١١٩٢ م ومن أهم شروطه :

- ١ - احتفاظ الصليبيين بالمدن الساحلية من عكا الى يافا .
- ٢ - أن تكون منطقة مدينة عسقلان منطقة حيادية وأن لا يستكمل تحصينها من جديد من قبل الصليبيين .
- ٣ - تبقى مدينة بيت المقدس تحت الحكم الإسلامي على أن يسمح للحجاج المسيحيين بالحج إليها .
- ٤ - يسيطر المسلمون على منطقة ساحلية على البحر المتوسط تشمل صيدا - بيروت .

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة ١١٩٢ رحل ريتشارد الى بلاده وانتهت بذلك الحملة الصليبية الثالثة التي اعتبرها البابا حملة فاشلة لأنها لم تحقق الغرض الذي قامت من أجله وهو استعادة بيت المقدس ، غير أن صلح الرملة أقر لأول مرة مبدأ التعايش السلمي بين المسلمين والصليبيين ولكن لا يعني ذلك بأن الحملات الصليبية توقفت على أراضي المسلمين إنما استمرت بين الفترة والفترة .

الحملة الصليبية الرابعة: كان من المقرر أن تتجه الى مصر ولكنها اتجهت نحو القسطنطينية عام ١٢٠٤ م للانتقام من ملكها الاكسيوس الثالث .

أما الحملة الصليبية الخامسة: ^(١) فهي الحملة التي قام بها الملك السابق لبيت

= Grousset; Histoire des Croisades, III, p.211...

(١) انظر :

المقدس على دمياط عام ١٢١٨ م بغية احتلال مصر وحرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة العسكرية الهامة. غير أن هذه الحملة انتهت بالفشل بعد مقاومة السلطان الكامل ناصر الدين محمد^(١).

أما الحملة الصليبية السادسة: فهي الحملة التي خرج بها الأمبراطور فريدريك الثاني من صقلية الى فلسطين عام ٦١٨ هـ - ١٢٢١ م في عهد السلطان الكامل محمد.

أما الحملة الصليبية السابعة: فهي الحملة التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع على مصر سنة ١٢٤٨ م.

استمر الصراع بين المسلمين والصليبيين في بلاد الشام في عهد دولة المماليك أيضاً لا سيما في عهود الظاهر بيبرس والسلطان قلاوون وأبنيه الأشرف خليل والناصر محمد، وبعد سقوط عكا آخر معقل صليبي في بلاد الشام عام ١٢٩١ م، انتقل الصراع بين المسلمين والصليبيين إلى جزر البحر الأبيض المتوسط وعلى رأسها جزيرة قبرص التي صارت مركزاً للعدوان الصليبي على سواحل المسلمين وتجارهم في مصر والشام، وانتهى الصراع بين المسلمين والصليبيين باحتلال المسلمين لجزيرة قبرص في عهد السلطان الأشرف برسباي عام ١٤٢٦ م، ويرى بعض المؤرخين أن الحروب الصليبية لم تنته بسقوط دولة المماليك في مصر والشام بل استمرت هذه الحروب بين الصليبيين والأتراك العثمانيين^(٢).

والحقيقة فإننا لسنا هنا بصدد الحديث عن الحملات الصليبية، بقدر ما يهمنا

= وهناك دراسة قيمة متخصصة عن هذه الحملة للدكتور سعيد محمود عمران تحت عنوان: الحملة الصليبية الخامسة (حالة جان دي برين على مصر ١٢١٨ - ١٢٢١ م، ٦١٥ - ٦١٨ هـ).

(١) للمزيد من التفاصيل العسكرية انظر: المقريري: السلوك، ج ١، ص ١٩٤ - ٢٠٩.

(٢) في عام ١٩١٨ وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى بانتصار الحلفاء على الدولة العثمانية وحلفائها، دخل الجنرال غورو الى دمشق ووقف على قبر السلطان صلاح الدين الأيوبي وقال: ها قد جئناك صلاح الدين. اليوم انتهت الحروب الصليبية!

من هذه الدراسة التوصل إلى النتائج الحضارية ، ودراسة العلاقات التي كانت قائمة بين الغربيين المسيحيين وبين الشرقيين من المسلمين والمسيحيين معاً .

وقد كانت العلاقات الحضارية والتمازج الثقافي والعلمي بين الإسلام والنصرانية في اسبانيا وصقلية أكثر أهمية وعمقاً مما كانت عليه في بلاد الشام ، ومن أسباب ذلك أن اسبانيا وصقلية شهدت نشوء حواضر ومراكز علمية وحضارية أكثر مما شهدته بلاد الشام ، ثم أن المملكة اللاتينية في القدس لم تكن مركزاً علمياً للمعارف والعلوم الإسلامية . وبالرغم من ذلك فقد شهدت بلاد الشام مؤثرات وعلاقات متبادلة بين المسيحيين والمسلمين وبين الحضارتين الغربية والعربية^(١) ، خاصة وأن العلاقات بين الجانبين لم تكن كلها علاقات حربية مستمرة ، بل قامت بينها علاقات من الود والصداقة والتأثيرات المتبادلة ، لأن إقامة الصليبيين في المنطقة لمدة مئتي سنة لا بد من أن يؤدي إلى نوع من التمازج البشري والفكري والعلمي والاقتصادي والاجتماعي والمعماري والطبي وسوى ذلك من المؤثرات الحياتية . ومما ساعد على توثيق العلاقات بين الجانبين أن المستعمرات الصليبية كانت قائمة وسط إمارات إسلامية في بلاد الشام مثال : حلب وحمص وحماه ودمشق . وقد سهل ذلك اتصال الصليبيين بالمسلمين والقدرة على فهمهم عن كتب ودراية ومحو الصورة غير الصحيحة التي أخذوها عن المسلمين قبل مجيئهم إلى المنطقة^(٢) . وبذلك يقول ارنست باركر (Ernest Barker) انه ينبغي ان ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها فصل من فصول تاريخ المدنية في الغرب ، لا على أنها توسع وامتداد للسيطرة والديانة الغربية في الشرق . وأضاف بأن الغرب اتصل بالشرق ، أو بالأحرى اتصل بشيء يخالفه ويغايره ، غير انه في احوال كثيرة يسمو

(١) هناك دراسة قيمة حول حدود الالتقاء والصراع بين أوروبا العصور الوسطى والشرق ، نشرها د. جوزف نسيم في كتابه : دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١٢٨ - ١٥٤ .

(٢) انظر : د. أحمد مختار العبادي : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، ص ١١٩ - ١٢٩ .

عليه ، بل أنه لأسمى منه وأعلى . وبينما نشأ عن الحروب الصليبية روح جديدة
اشتهرت بالتسامح والقدرة على الموازنة والتقدير ، فما نجم عن الحروب الصليبية من
المعرفة والخبرة الجديدة ، هيا مادة جديدة للتفكير العلمي والخيال الشعري في آن
واحد^(١) . وعلى هذا يمكن دراسة الجوانب والمؤثرات المتبادلة بين الجانبين في إطار
العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والطبية والمؤثرات المعمارية العسكرية
والمدنية .

(١) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٤٣ ، ١٥٠ .

الفصل الثاني

العلاقات الاجتماعية

الفصل الثاني

العلاقات الاجتماعية

كان المجتمع في بلاد الشام في العهد الصليبي ١٠٩٨ - ١٢٩١ خليطاً من الأجناس والقوميات واللغات والأديان، فقد ضمّ الفرنسي والإنجليزي والإيطالي والالمانى إلى جانب العربي والتركي والكردى والأرمنى، مع انتشار الأديان الثلاثة: اليهودية، والنصرانية والإسلام، ولغات عدة. وبالرغم من التباين والتفاوت الاجتماعي والقومي والديني واللغوي، فإن هذه الجماعات بدأت تنسجم وتتأثر بعضها ببعض الآخر. وقد ذكر فوشيه دو شارتر (F. De Chartres) في تاريخ ١١٢٠ م عن الامتزاج الغربي بالمجتمع الشرقي قوله: « واحسرتاه، نحن قد تحولنا الى شرقيين، فمن كان منا إيطالياً أو فرنسياً في الأمس قد أصبح اليوم في وطنه الجديد، جليلاً أو فلسطينياً وكذلك قد غدا ابن مدينة ريمس (Reims) أو مدينة (Chartres) سورياً أو أنطاكياً، فقد نسي كل منا وطنه الأول، فلم يعد أحد يتكلم عنه. وقد غدا الواحد منا يملك بيتاً وحشماً، وهو مطمئن حتى كأنه قد ورث ذلك بحق قديم له في البلاد، كما أن البعض قد تزوجوا لا بالمواطنات الغربيات، بل بالسوريات أو الأرمنيات أو أحياناً بالمسلمات بعد أن تعمدن.. وأنا لنستعمل من آن لآخر اللغات المحلية المختلفة.. إذ أصبح بالحقيقة الفقير منا غنياً بنعمة الله، ومن كان لا يملك سوى دربهات، أصبح ينعم هنا بثروة طائلة ضخمة.. »^(١).

Foucher De Chartres; Rec. Hist. Occid. T3, p.360.

(١)

انظر أيضاً: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنجة =

وهكذا يلاحظ بأن المجتمع الشامي أصبح مجتمعاً مختلطاً^(١). وكما أقبل الصليبيون - نظراً لقلّة عدد النساء الأفرنجيات اللاتي صحبن المقاتلين - على الزواج من المسيحيات من الموارنة والأرمن والسريان وبعض المسلمات الأسيرات اللاتي تنصرن، فقد أقبل المسلمون بدورهم على الزواج من الأسيرات الأفرنجيات أو الزواج من الفتيات اللاتي ولدن من زواج الصليبي بنساء شقيقات. ومما شجع المسلمين على ذلك انعدام العائق الديني وقد نشأ عن هذه الزيجات جيل من المولدين عرفوا باسم الأفراخ (Pullani)^(٢) غلبت عليهم طبائع وعادات الشرق منها الغيرة على روجاتهم، وهي عادة لم تكن موجودة عند الغربيين. ولم ير الصليبيون مانعاً من الاستعانة بهؤلاء المولدين من الموارنة والأرمن والسريان والمسلمين في تشكيل فرق الخيالة الخفيفة التي عرفت باسم «تركوبول» (Turcoples)، وقد دخل عدد كبير من هؤلاء الفرسان المرتزقة بين قوات الداوية والاستتارية وفي خدمة بعض أمراء الصليبيين. وقد امتدت محاولات الزواج بين كبار المسؤولين من المسلمين والأفرنج، فقد كشف ابن شداد في «النوادر السلطانية» عن رسالة مرسلة من ملك الأنجليز الى السلطان صلاح الدين الأيوبي حول تزويج اخته أو ابنة اخته من الملك العادل شقيق صلاح الدين، وهو مشروع للزواج اقترحه ريتشارد قلب الأسد. والحقيقة فقد كاد أن يتم هذا الزواج لولا أن البابا عارض ذلك. ومما قاله الملك الإنجليزي في رسالته: «إنا معاشر دين

= خلال الحروب الصليبية، ص ١٤٣ - ١٤٤، د. سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٥٢ - ٥٣.

(١) للمزيد من التفصيلات عن بلاد الشام في العصر الصليبي انظر: د. سعيد عاشور: فصل «المجتمع الاسلامي في بلاد الشام في عصر الحروب الصليبية» في كتاب: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، ص ٢١ - ٥٣.

(٢) يذكر جوانفيل بأن فلاحي بلاد الشام يقال لهم المولدون (Poulains). وجاء في الهامش بأن «المولد هو طفل من نتاج زواج فرنسي من مسيحية في سورية» (Enfant né de mariage d'un Franc et d'une femme indigène chretienne en Syrie)

انظر: مذكرات جوانفيل، ص ١٩٥ - ١٩٦.

النصرانية ومقدمه. وها أنا أسير إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر، فإن إذن فيها ونعست، وإلا زوجتك ابنة اختي، وما احتاج في أذنه في ذلك».

وكما أن المسلمين قد أخذوا من الأفرنج عادة لبس الخاتم عند الخطبة أو الزواج فقد تبدل الصليبيون (أصبحوا كأهل البلد) كذلك من حيث الملابس الشرقية، فلبسوا الملابس الشرقية واسعة الأكمام زاهية الألوان الموشاة بالخرائر والتطاريز، واطلقوا لحاهم وجلسوا على الزراي (السجاجيد). واستخدموا المساحيق والمرايا الزجاجية واتخذوا المسابح للتسبيح بحمد الله. وأكلوا الأطعمة الشرقية واستعملوا البهارات (Spice) كذلك استخدموا في الولائم وحفلاتهم الراقصات والمهرجين وفي جنازتهم النادبات كما يفعل المسلمون في بعض المناطق، كما استخدموا الآلات الموسيقية العربية مثال: الأرغن والمزمار والعود والقيثارة والربابة والأبواق المصنوعة من قرون الحيوانات. كما أن المرأة الصليبية تشبهت بالمرأة العربية من حيث لباسها وزينتها، فاتخذت الصليبيات لزينتهن المجوهرات الدمشقية والقاهرية وأدوات المساحيق والزينة واستخدمن المرايا الزجاجية والفراء والأقمشة المصنوعة من وبر الجمل^(١). وكان بغدوين الرهاوي (Bowdoin of Edessa) ملك بيت المقدس (١١٠٠ - ١١١٨) قد بدّل ثيابه الأفرنجية بأخرى شرقية، وأطلق لحيته وتناول طعامه على بساط متربعا على الأرض. وبلغ الأمر بتانكريد الأنطاكي (Tancred of Antioch) المتوفى ١١١٢، أن سك نقوداً وعليها صورته في زي عربي.

وقد أشار الرحالة ابن جبير الى بعض جوانب الحياة الاجتماعية ووضع المرأة النصرانية ومشاركة المسلمين للمسيحيين أفراحهم، وذلك عندما وصف لنا احتفال زفاف عروس في مدينة صور في فترة حكم الصليبيين، ومما قاله: «.. زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها، وقد احتفل لذلك جميع النصارى رجالاً ونساء، واصطفوا سباطين عند باب العروس المهداة، والبوقات

(١) د. زكي النقاش. المرجع السابق. ص ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨.

نضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تنهاده بين رجلين يمسانها من يمين وشمال كأنها من ذوي أرحامها . وهي في أبهى زي وأفخر لباس ، تسحب أذيال الحرير المذهب سحباً على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصاة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة وعلى لبثها مثل ذلك منتظم . وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فتراً في فتر مشي الحماة أو سير الغمامة - نعوذ بالله من فتنة المناظر - وأمامها جلة رجالها من النصاري في أفخر ملابسهم البهية تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهاذين في أنفس الملابس ويرفلن في ارفل الحلي والآلات اللهوية قد تقدمتهم . والمسلمون وسائر النصاري من النظار قد عادوا في طريقهم سباطين يتطلعون فيهم ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلمها وأقاموا يومهم ذلك في وليمة ..»^(١)

ويروي أسامة بن منقذ المعاصر لفترة الحروب الصليبية الكثير من العادات الغربية الصليبية . ومما ذكره عن عاداتهم وتقاليدهم قوله : « ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة . يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقيه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث . فإذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى »^(٢) .

وأورد أسامة بن منقذ حادثة أخرى جرت في نابلس لرجل أفرنجي يبيع الخمر ، وجد مع زوجته في الفراش رجلاً غريباً فقال له : أي شيء أدخلك إلى عند امرأتي ؟ قال : « كنت تعبان دخلت استريح » ، قال : « فكيف دخلت إلى فراشي » ، قال : « وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه » ، قال : « والمرأة نائمة معك ؟ قال : « الفراش لها . كنت أقدر أمنعها من فراشها » ؟ قال : « وحق ديني ان عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت » . وقد علق أسامة بن منقذ على ذلك بقوله :

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢١٣ .

(٢) أسامة بن منقذ : كتاب الاعتبار ، ص ١٣٥ . انظر أيضاً : د. سعيد عاشور : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

« فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته ». كما أورد أسامة عدة حوادث تدل على عدم نخوة الأفرنجية، ومنها ادخال رجل افرنجي ابنته الصبية معه الى حمام للرجال في صور بهدف الاستحمام، ومنها طلب زوج افرنجي من رجل حامي (يعمل في حمام) في المعرة بأن يخلق عانة زوجته « فاستلقت على ظهرها وقال أعمل كما عملت لي، فحلقت ذلك الشعر وزوجها قاعد ينظرني، فشكرني ووهبني حق خدمتي ». وعلق أسامة بن منقذ على أخلاق الأفرنجية بقوله: « فانظروا الى هذا الاختلاف العظيم ما فيهم غيرة ولا نخوة، وفيهم الشجاعة العظيمة وما تكون الشجاعة إلا من النخوة والآنفة من سوء الأحداث »^(١) علماً أن الشجاعة عند الأفرنج أكدما أيضاً ابن الأثير (٥٥٥ - ٦٣٠ هـ) عندما تحدث عن شجاعتهم في الدفاع عن حصن بارين امام هجمات المسلمين بقوله: « ... ومن اجتمع به من شجعان الفرنج وفرسانهم، المحامين عن أنفسهم وأهليهم وأموالهم وصلبانهم، علم أنه لا ينال بالتواني... »، كما أكد في الوقت نفسه على شجاعة المسلمين. ومما قاله أيضاً عندما تحدث عن حصن الأثارب قرب حلب « وقد اجتمع فيه من فرسان الفرنج وذوي البأس، كل معروف بشدة المراس... »^(٢).

ويلاحظ أيضاً بأن مدينة عكا كانت في عهد الصليبيين قد اكتظت ببنات الهوى اللائي يجنين أرباحاً بما يلقيه من حظوة عند الرجال. ويؤكد « جاك دوفري » هذا الواقع بالقول: « نرى الرجال فيها يغتالون نساءهم، والزوجات يسممن رجالهن في سبيل عشاقهن، فلا غرابة إذن أن تختص عكا ببيع السموم والعقاقير المسممة » وذكر امبرواز (Ambroise) من أن الجنود الفرنسيين الذين جاؤوا في الحملة الثالثة كانوا يقضون ليلتهم في الرقص ومعاشرة النساء وزيارة بيوت الدعارة، مجترحين الآثام بالتكسير والتخريب. وذكر شهاب الدين المقدسي (ابو شامة) في كتاب الروضتين في أخبار الدولتين بأنه وصلت في سنة ١١٩٠ في

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٦ - ١٣٧.

(٢) ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية، ص ٣٩ وصفحات متفرقة أخرى؛

مركب ثلاثمائة امرأة أفرنجية مستحسنة « أجتمعن من الجزائر [الجزر] وانتدبن للجزائر ، واغتربن لإسعاف الغرباء ، وقصدن بخروجهن تسبيل أنفسهن للأشقياء ، وأنهن لا يتقربن بأفضل من هذا القربان وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لا سيما فيمن اجتمعت فيه غربة وعزبة » .

والأمر اللافت للنظر ، هو في مدى إعجاب الراهبات والمرأة الأفرنجية بشكل عام بالحمامات الشرقية لنظافتها ولرسالتها الصحية والاجتماعية ، ونظراً لكثرة تردد الراهبات ، فقد احتج « جاك دوفتري » على الراهبات لخروجهن من الأديرة مخالقات بذلك أنظمة حياتهن ليذهبن الى الحمامات العامة وحضورهن مع عامة الناس أيضاً^(١) . وقد اشتهرت بلاد الشام بكثرة حماماتها العامة لأن ذلك كان مرتبطاً بالعقيدة الإسلامية القائمة على الطهارة والوضوء وقد عرفت عكا ونابلس وطبرية وصور وبيروت وطرابلس وحمص وحماه وحلب ودمشق ومعرة النعمان وسواها الكثير من هذه الحمامات . ويكفي أن نشير في هذا المجال الى ما ذكره الرحالة ابن جبير عن حمامات دمشق وأسواقها ومما قاله : « وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام فيها وفي ارباضها ، وفيها نحو أربعين داراً للوضوء يجري الماء فيها كلها ، وليس في هذه البلاد كلها بلدة أحسن منها للغريب . . . وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد وأحسنها انتظاماً وأبدعها وضعاً ولا سيما قيسارياتها ، وهي مرتفعات كأنها الفنادق . . . »^(٢) .

والحقيقة فإن أسامة بن منقذ يورد من جهة أخرى بعض الحوادث التي جرت معه أو بوجوده تدل على تأثر الأفرنج بعبادات وتقاليده وعقائد المسلمين ، ومنها أن بعضهم بدأ يكره أكل لحم الخنزير تأثراً بالمسلمين . ومما قاله أسامة بن منقذ في هذا الصدد : « ومن الأفرنج قوم قد تبلدوا وعاشروا المسلمين ، فهم اصلح من القريبي العهد ببلادهم ، ولكنهم شاذ لا يقاس عليهم » ثم أورد حادثة جرت مع

(١) د . زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ١٥٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢٠٢ .

أفرنجي دعي لغداء على مأدبة أفرنجي آخر في انطاكية « فأحضر مائدة حسنة وطعاماً في غاية النظافة والجودة. ورآني متوقفاً عن الأكل، فقال: كل طيب النفس. فأنا ما آكل من طعام الأفرنج، ولي طبابخات مصريات ما آكل إلا من طبيخنهن ولا يدخل داري لحم خنزير، فأكلت وأنا محترز وانصرفنا»^(١).

ومن الأمور المشتركة بين الأفرنج والمسلمين رحلات الصيد التي كانوا يقومون بها في المقاطعات والإمارات المشتركة أو القريبة أراضيها بعضها من البعض الآخر. كما كانوا يقومون ببعض المباريات الرياضية وسباقات الخيل واللعب بالرمح. وكانت هواية صيد الطيور والأسماك والغزلان والضباع والوحوش والحمير الوحشية من الهوايات التي شهدتها بلاد الشام ومصر. وقد أفرد أسامة بن منقذ فصلاً خاصاً عنها^(٢). وكثيراً ما جرت رحلات صيد اجتمع بها العرب بالأفرنج، على غرار ما جرى في طبرية ودمشق وبانياس، وكما جرى في عكا عندما اجتمع الأمير معين الدين وأسامه بن منقذ برجل صياد أفرنجي من الجنوبية (من جنوى) كان يحمل بازاً كبيراً، وقد أعجب الأمير بهذا الباز، فما كان من ملك عكا « ملك الأفرنج فلك بن فلك » إلا أن أخذه من الجنوبي وقدمه للأمير معين الدين. وهذا مما يدل من جهة أخرى على العلاقات السلمية التي كانت قائمة بين الأمراء المسلمين وملوك الأفرنج. ويبدو أن عادة تربية واقتناء الباز قد انتشرت في الشام لأن العرب والأفرنج كانوا يحرصون باستمرار على اصطحاب الباز في رحلات الصيد. وكانت هذه الرحلات قد أدت إلى إقامة صداقات بين الحجاج المسيحيين والأفرنج وبين القائمين في البلاد. ومما ذكره أسامة بن منقذ في صدد ذلك قوله « كان في عسكر الملك فلك بن فلك فارس محتشم أفرنجي قد وصل من بلادهم يحج ويعود. فانس بي وصار ملازمي يدعوني « أخي » وبيننا المودة والمعاشرة»^(٣).

(١) أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار، ص ١٤٠.

(٢) أسامة بن منقذ، المصدر نفسه، ص ١٩١ - ٢٢٦ (الباب الثالث).

(٣) أسامة بن منقذ، المصدر نفسه، ص ١٣٢.

وروى المؤرخ الدمشقي شهاب الدين أبو شامة بعض حوادث من العلاقات الإجتماعية والسلمية بين الجانبين، ومما قاله: « ولما طال القتال بين الطائفتين أمام عكا، انس البعض بالبعض بحيث أن الطائفتين كانتا تتحدثان وتتركان القتال وربما غنى البعض ورقص البعض لطول المعاشرة، ثم يرجعون الى القتال بعد ساعة، وسئموا يوماً فقالوا لي: كم يتقاتل الكبار وليس للصغار حظ. نريد أن يصطرع صبيان: صبي منا وصبي منكم. فأخرج صبيان من البلد الى صبيين من الفرنج، فوثب أحد الصبيين المسلمين على أحد الصبيين الكافرين، فاحتضنه وضرب به الأرض وأخذه أسيراً، فاشتراه منه بعض الفرنج بدينارين وقالوا: هو أسيرك حقاً، فأخذ الدينارين وأطلقه»^(١).

أما المؤرخ الحموي جمال الدين بن واصل والمؤرخ محمد بن علي بن نظيف والمؤرخ ابن شداد وسواهم فقد أشاروا في مؤلفاتهم إلى بعض المعلومات عن العلاقات السياسية بين الشرق والغرب، والتي سنبحثها لاحقاً.

والجدير بالذكر أن العلاقات السلمية والحضارية بين الافرنج والمسلمين والتي كانت تنعم بها بلاد الشام قد انعكست إيجاباً على العلاقات الإسلامية - المسيحية في جبل لبنان ومختلف المناطق اللبنانية - الشامية. وقد أشار الى ذلك الرحالة ابن جبير، ومما قاله عن نصارى جبل لبنان ومعاملتهم الحسنة للمسلمين قوله: « ومن العجب أن النصارى المجاورين لجبل لبنان إذا رأوا به المنقطعين من المسلمين جلبوا لهم القوات، واحسنوا إليهم ويقولون: هؤلاء ممن انقطع الى الله عز وجل فتجب مشاركتهم... وإذا كانت معاملة النصارى لضد ملتهم هذه المعاملة، فما ظنك بالمسلمين بعضهم مع بعض؟^(٢) وفي حال توتر العلاقات بين الكبار من الممالك الإفرنجية والإسلامية فإن هذا بدوره ينعكس سلباً على العلاقات المسيحية - الإسلامية، وبذلك يقول ابن جبير « ومن أعجب ما يحدث به أن نيران الفتنة

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ٢، ص ١٤٣.

(٢) ابن جبير: رحلة ابن جبير - تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، ص ٢٠١.

تشتعل بين الفئتين: مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان، ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم^(١). ولما تحدث المقدسي واصفاً بلاد الشام قال «... واكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهد الشام... وأما الجبال الشريفة فجبل لبنان وجبل الجولان فيها عباد...»^(٢).

ومما ذكره ابن جبير بعد معركة خاضها صلاح الدين الأيوبي ضد الأفرنج في نابلس قوله: «وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبهم يدخل بلاد المسلمين، ونأهيك من هذا الاعتدال في السياسة...»^(٣)، وبعد ان انتقل ابن جبير من داريا الى بانياس وجد شجرة بلوط كبيرة «فسألنا عن ذلك، فقل لنا هي حد بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحرامية الأفرنج - وهم الحواسة والقطاع - من أخذوه وراءها الى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أسر، ومن أخذ دونها الى جهة بلاد الأفرنج بقدر ذلك اطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به وهو من أظرف الارتباطات الأفرنجية وأغربها»^(٤).

وعن العلاقات الجيدة المشتركة بين المسلمين والأفرنج في منطقة هونين وبانياس، قال ابن جبير «وعمالة تلك البطحاء بين الأفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء، ومواشيهم مختلطة، ولا حيف يجري بينهم فيها»^(٥). ولما تحدث ابن جبير عن تبين قال: «سكانها كلها مسلمون وهم مع الأفرنج على حالة ترفيه.. وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً،

(١) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٠١.

(٢) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ٣٣، ١٨٩.

(٣) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٤) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

(٥) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٠.

ومساكنهم بأيديهم، وجميع أحوالهم متروكة لهم»^(١). ولما أشار الى تحاسد المسلمين فيما بينهم بسبب رفاهية البعض وفقير البعض، تعجب وقال بأن « هذه من الفجائع الطارئة على المسلمين أن يشتكي الصنف الإسلامي جور صنفه المالك له، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الأفرنج ويأنس بعدله ».

والأمر الملاحظ أن التسامح الديني بلغ في بعض الأحيان حداً لافتاً للنظر، حيث أن المسيحيين والمسلمين كانوا في بعض المناطق يقيمون الصلاة في مسجد ومكان واحد. وقد أشار الى ذلك أيضاً الرحالة المعاصر ابن جبير، عندما تحدث عن مدينة عكا، حيث يوجد في شريقها العين المعروفة بعين البقر « وعليها مسجد بقي محرابه على حاله، ووضع الأفرنج في شريقه محراباً لهم، فالمسلم والكافر يجتمعان فيه: يستقبل هذا مصلاه، وهذا مصلاه، وهو بأيدي النصاري معظم محفوظ وأبقى الله فيه موضع الصلاة للمسلمين»^(٢)، كما بقيت بعض المساجد بأيدي المسلمين منفردين بالصلاة فيها. وهذا ما أشار اليه ابن جبير بالقول: « وكانت راحتنا مدة مقامنا بصور، بمسجد بقي بأيدي المسلمين، ولهم فيها مساجد أخرى ». وكان بلدوين أمير الرها في حوالي ٥٠٢ هـ - ١١٠٩ م قد اطلق سراح عدد من الأسرى المسلمين كانوا معتقلين لديه، وسمح لمسلمي مدينة سروج بإعادة تعمير مسجدهم، وأعدم حاكم المدينة المسلم المرتد الذي تقوّل على الإسلام إرضاء لمسلمي المدينة^(٣).

كما تحدث ابن جبير عن مشاركة مسلمي صور للنصارى في أفراحهم واحتفالاتهم، وكما أشار أسامة بن منقذ الى دخول بعض الأفرنج في الدين الإسلامي، فقد أشار ابن جبير إلى دخول بعض المسلمين المغاربة الأسرى في بلاد

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٠.

(٢) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٢.

(٣) د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين ٤٩٣ - ٥٣١ هـ، ١١٠٠ - ١١٣٧ م، ص ٤٢.

الشام في الدين المسيحي . وقد انتقل جو التسامح والمشاركة الإجتماعية الى الاحتفالات التي كان يصادف وقتها والناس في السفن في البحر . وقد أوضح ابن جبير أنه اثناء سفره من عكا بجزاً في ليلة الخميس ٢٤ رجب - وهو أول يوم من نوفمبر العجمي على حد قول ابن جبير - « كان للنصارى عيد مذكور عندهم . احتفلوا له في أسراج الشمع ، وكاد لا يخلو أحد منهم - صغيراً أو كبيراً ذكراً أو أنثى - من شمعة في يده ، وتقدم قسيسوهم للصلاة في المركب بهم ، ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم ، والمركب يزهر كله أعلاه وأسفله سرجاً متقدة » . غير أن البداية لم تكن موفقة على متن المركب وذلك بسبب عزلة المسلمين عن الأفرنج فقد « حاز المسلمون مواضعهم بأنفراد عن الأفرنج وصعده من النصارى المعروفين بالبلغريين ، وهم حجاج بيت المقدس ، عالم لا يحصى .. أراح الله من صحبتهم بعاجل السلامة .. »^(١) .

وبالرغم من العلاقات الإجتماعية التي كانت قائمة بين الأفرنج والمسلمين ، غير أن هذه العلاقات كانت تشوبها السلبيات في بعض الأحيان ، لا سيما في فترة التوتر والصراع السياسي والعسكري ، حيث كان يضطهد المسلمون من قبل الأفرنج ويتعرضون للمشقات والأهوال والذلة و« المسكنة الذمية » على حد قول ابن جبير الذي أشار بأن المسلمين كانوا يعانون ويسمعون من الأفرنج السباب والشتائم ضد نبيهم « لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ، ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير وجميع المحرمات الى غير ذلك مما لا ينحصر ذكره ولا تعداده .. ومن الفجائع التي يعانيتها من حل بلادهم أسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك في أسواقهن خلاخيل الحديد ، فتنفطر لهم الأفئدة ، ولا يغني الأشفاق عنهم شيئاً »^(٢) . غير أنه كان باستطاعة اغنياء المسلمين فك الأسرى لقاء مبالغ طائلة ، وكان في دمشق رجلين من اغنياء

(١) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢١٦ .

(٢) ابن جبير ، المصدر نفسه ، ص ٢١٤ .

كبار التجار عملاً على فك الأسرى المسلمين، وهما: نصر بن قوَام وأبي الدر
ياقوت « شأنهما في الغنى كبير وقدرهما عند امراء المسلمين والأفرنجيين خطير ».
وقد حرص التجاران وسواهما من أغنياء المسلمين على فك الأسرى المغاربة
« لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عز وجل، فهم
الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك أهل هذه الجهات من المسلمين، والخواتين
من النساء، وأهل اليسار والثراء، إنما ينفقون أموالهم في هذه السبيل. وقد كان
نور الدين رحمه الله نذر - في مرضة أصابته - تفريق إثني عشر ألف دينار في فداء
أسرى من المغاربة... »^(١).

ولكن هذه الأوضاع كانت تتبدل في فترة السلم، لأن طبيعة العلاقات
الاجتماعية تحتم قيام تعاون بين الجانبين الأفرنجي والإسلامي رغم العداء بينهما.
ولذا فقد شهدت الفترة قيام علاقات جيدة بين امراء شيزر من آل منقذ وبين
روجار صاحب انطاكية، كما استمرت هذه العلاقات في عهد بغدوين الثاني
وريث روجار. وكان نجم الدين مالك بن سالم صاحب قلعة جعبر على علاقة
جيدة مع جوسلين الأول صاحب تل باشر.

كما استمرت هذه العلاقات زمن حكم الأسرة الأيوبية، حيث اتصفت معاملة
صلاح الدين الأيوبي - رغم انتصاراته - للأفرنج بالمعاملة الجيدة وبالتسامح
والكرم. كما عامل أسرى الحرب النصارى معاملة حسنة. وسنأتي على ذكر بعض
هذه العلاقات في إطار الحديث عن العلاقات السياسية بين الأفرنج والمسلمين،
وقد أشار الى ذلك ابن شداد وابن واصل وابن الفرات وابن الأثير والمقرئزي
وسواهم ممن أوردوا بعض ملامح العلاقات الإيجابية بين الطرفين. وكان صلاح
الدين الأيوبي حريصاً رغم عدائه مع الأفرنج على معاملتهم معاملة طيبة حينما
تستدعي الظروف. فقد حدث أن مرض ملك الإنجليز، فما كان من صلاح الدين
إلا أن أرسل إليه طبيباً وفواكه وهدايا تليق بالمرضى. ونظراً لمعاملة صلاح الدين

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٤.

الحسنة للأفرنج، فقد تودد إليه حاكم الساحل الفلسطيني « كندهري » ابن اخت ملك الإنجليز فأرسل الى صلاح الدين رسالة طلب فيها خلعة وقال : « أنت تعلم أن لبس القباء والتربوش عندنا عيب ، وأنا ألبسها منك محبة لك »^(١). أضيف الى ذلك فإن المفاوضات التي جرت بين المسلمين والأفرنج زمن لويس التاسع ، اسفرت عن إطلاق الأسرى الأفرنج ، غير أن المسلمين رفضوا إطلاق سراح الأسرى قبل أن يتناولوا طعامهم وقد أكد جوانفيل المعاصر للحدث ذلك بقوله : « فطلبنا اليهم ان يدعونا نذهب في سبيلنا ، فأبوا قائلين انهم لن يفعلوا ذلك حتى نتناول طعامنا » لأن خروجكم جوعى من سجننا سيكون سبة الدهر في جبين امرائنا ». كما حدث أنه اثناء مباحثات المفاوضات بين سلطان مصر ولويس التاسع ، قام مبعوث السلطان بزيارة الملك « وقدم إليه لبناً في جرار وزهوراً مختلفة الألوان والأنواع هدية من ابناء الناصر (Nasar) الذي كان سلطان مصر ، وقدم إليه هذه الاشياء ، وكان هذا المسلم يتكلم الفرنسية »^(٢).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٧٩ .

(٢) جوانفيل : مذكرات جوانفيل ، ص ١٧٣ ، ١٨٠ .

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية

الفصل الثالث

العلاقات الاقتصادية

شهدت فترة الحروب الصليبية حركة اقتصادية بين المسلمين والافرنج سواء على الصعيد الداخلي في بلاد الشام أو مع مصر^(١)، أم على صعيد العلاقات بين بلاد الشام والغرب، ونظراً للأهمية الاقتصادية لبلاد الشام، فقد اعتبر البعض بأن الحروب الصليبية هي في حقيقتها حروب اقتصادية.

الزراعة

بالرغم من الحروب في بلاد الشام فقد استمرت الزراعة متطورة ونشطة بسبب حاجة السكان والطارئين الى المواد الغذائية، وقد عرفت البلاد بعض الأنماط الغربية في العلاقات القائمة بين الإقطاعي والفلاحين. والواقع فإن استفادة الافرنج من الزراعة الشامية لم تقتصر على الجند والمدنيين في بلاد الشام، بل بدأ الافرنج بنقل بعض أنواع من الزراعة الى البلدان الأوروبية لم يسبق ان تعرفت إليها مثل السم (Sesame) والخروب (Carobe) وقصب السكر (Sucre) والليمون (Limon) والأرز (Riz) والقطن (Coton) وبصل عسقلان (Secallion) وسوى ذلك من النباتات والثمار والفواكه^(٢). علماً أن بلاد الشام كانت مليئة بأنواع

(١) يمكن الاطلاع على بعض الأحوال الاقتصادية في العهد الأيوبي، سواء في مصر أو في بلاد الشام في كتاب الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ١ (الأيوبيون)، ص ١٨٩ - ٢٠٩. د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٦٨ - ١٩٣. د. جوزف نسيم: دراسات في العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ص ٦٧ - ٧٥ وصفحات أخرى.

(٢) د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٧٨. انظر أيضاً: أرنست باركر: الحروب الصليبية، ص ١٥١.

المزروعات الأخرى مثال : التين والزيتون والقمح والشعير والذرة والعدس والفاول والرمال والتفاح والدراق واللوز والبطيخ والتوت والأجاص والخبوخ والمشمش وسوى ذلك من مزروعات تم نقل معظمها الى أوروبا . ويرى ستيفن رنسيان أن فواكه فلسطين النادرة مثال الليمون الحلو أو الرمال ، كانت تشاهد في بعض الأحوال على موائد الأثرياء في إيطاليا . وحينما وصل الصليبيون الى سوريا ، تبين لهم أن قصب السكر تكثر زراعته في مناطق ساحلية متعددة ، وفي وادي نهر الأردن ، فواصلوا زراعته . أضف الى ذلك أن بيروت وجبال لبنان كانت مليئة بأشجار الصنوبر والشربين والسرو .

ويصف ابن حوقل الزراعة والبساتين في مختلف بلاد الشام وذلك قبل الحروب الصليبية ومما قاله « .. ومياه فلسطين من الأمطار والطل ، وأشجارها وزرعها اعذاء نجوس لا سقي فيها إلا نابلس فيها مياه جارية . وفلسطين أزكى بلاد الشام ربوعاً .. » وعن القدس قال : « عليها شجيرات وهي من أخصب بلاد فلسطين على مرّ الأوقات » ، وعن جبال بيت لحم قال : « وأشجار هذه الجبال وأكثر جبال فلسطين زيتون وتين وجميز الى سائر الفواكه .. والجبال والشرارة بلدان في غاية الخصب والسعة » ، وعن الأردن ، وبحيرة الغور وبيسان قال ابن حوقل : « وبه فاكهة وأب ونخيل وعيون وأنهار » . وبعد أن تحدث عن جمال غوطة دمشق ومياهها العذبة « الفيحة » قال : « وهي مدينة كثيرة الخير والغلات والفواكه الجيدة ، بينه الخصب والرخص وهي قريبة من مدينة بيروت .. وبيروت هذه كان مقام الأوزاعي وبها من النخيل وقصب السكر والغلات المتوافرة ، وتجارات البحر عليها دائرة واردة وصادرة » وعن مدينة حمص فهي « خصبة .. ولها مياه وأشجار ، وكانت كثيرة الزرع والضرع ، وكانت أكثر زروع رساتيقها نجوساً اعذاء .. وشيزر وحماه .. نزهتان كثيرتا المياه والشجر والزرع والفواكه والخضر .. » أما قنسرين فهي « مدينة كثيرة الخير والسعة في التين والفسق وما شاكل ذلك من الكروم والأزبة » .

وعن أنطاكية فقد وصفها ابن حوقل بأنها « كانت بعد دمشق أنزه بلاد

الشام، وعليها الى هذه الغاية سور من صخر يحيط بها ويجبل مشرف عليها، فيه لهم مزارع ومراع وأشجار وأرحية». أما مدينة «بالس» على شط الفرات فلها بساتين فيما بينها وبين الفرات وأكثر غلاتها القمح والشعير، ويعمل بها من الصابون الكثير الغزير «بينما مدينة ملطية» بها مباح الجوز واللوز والكروم والرمان وسائر الثمار الشتوية والصيفية أما الحدث ومرعش ففيهما زروع وأشجار وفواكه، وكذلك الاسكندرونة وحصن التينات الذي كان فيها مقطع لخشب الصنوبر. وكذلك فإن عين زرية كانت مليئة بالثمار والزروع ومنها النخيل. وشرح ابن حوقل أوضاع الزراعة في المصيصة وطرسوس ومعان وحواران والبشينة وأكثر المناطق الشامية فأشاد بخصوبة أراضيها وحسن زراعتها وطيب ثمارها. وعلى سبيل المثال فقد وصف زبيب منبج المصنع بقوله: «ولها من ناطف الزبيب المعمول بالجوز والفسق والسهم ما لم أر له شبيهاً إلا ما ببخارى منه، فإنه يزيد عليه في الحلاوة...»^(١).

أما الرحالة الأندلسي ابن جبير فيبدو من كلامه بأن العلاقات الاقتصادية بين أهل البلاد وبين الأفرنج كانت علاقات مقبولة من الطرفين فقد جاء في حديثه عن مدينة بانياس «.. ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للأفرنج يسمى هونين، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ، وعمالة تلك البطحاء بين الأفرنج وبين المسلمين، لهم في ذلك حد يعرف بحد المقاسمة، فهم يتشاطرون الغلة على استواء ومواشيهم مختلطة، ولا صيف يجري بينهم فيها». ثم أشار ابن جبير إلى واد مليء بالأشجار فقال: «واجتزنا في طريقنا بين هونين وتبنين بواد ملتف بالشجر - وأكثر شجره الرند - بعيد العمق، كأنه الخندق السحيق المهوي تلتقي حافته ويتعلق بالسما أعلاه، يعرف بالأسطيل، لو ولجته العساكر لغابت فيه...»، ثم أشار ابن جبير إلى تلك العلاقة الاقتصادية الزراعية فقال: «.. ورحلنا

(١) للمزيد من التفاصيل حول الأحوال الاقتصادية والزراعية في بلاد الشام انظر ابن حوقل: المصدر السابق، ص ١٥٨ - ١٧٢. انظر أيضاً: د. علي عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، ص ١٦١ - ١٦٤.

من تبين.. وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة، سكانها كلها مسلمون، وهم من الأفرنج على حالة ترفيه... وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط، ولا يعترضونهم في غير ذلك، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم. وكل ما بأيدي الأفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل، رساتيقها كلها للمسلمين وهي القرى والضياع..»^(١).

وعن بساتين عكا وصور قال ابن جبر.. « والفواكه تجلب اليها من بساتينها التي بالقرب منها، ولها عمالة متسعة. والجبال التي تقرب منها معمورة بالضياع، ومنها تجبي الثمرات اليها، وهما من غر البلاد». وقال عن قنسرين « هي البلدة الشهيرة في الزمان.. فلم يبق إلا آثارها الدارسة ورسومها الطامسة، ولكن قراها عامرة منتظمة لأنها على محرث عظيم مد البصر عرضاً وطولاً..» وعن بلاد المعرة وهي سواد كلها شجر الزيتون والتين والفسق وأنواع الفواكه، ويتصل التفاف بساتينها وانتظام قراها مسيرة يومين، وهي من أخصب بلاد الله وأكثرها أرزاقاً.. وعن بساتين وزراعة حماه أشار ابن جبر إليها بقوله « مدينة شهيرة في البلدان.. أبصرت بشرقيها نهراً كبيراً.. قد انتظمت طريقه بساتين تهطل أغصانها عليه وتلوح خضرتها عذاراً بصفحته.. وبخارج هذه البلدة بسيط فسيح عريض قد انتظم أكثر شجرات الأعناب، وفيه المزارع والمحارث وفي منظره انشراح للنفس وانفساح، والبساتين متصلة على شطي النهر وهو يسمى العاصي..»^(٢)، وهذا الوصف كله يدل على مدى انتعاش وتطور الحياة الزراعية في بلاد الشام.

الصناعة

وفي ميدان الصناعة، تعرّف الأفرنج الى الكثير من المصنوعات العربية ونقلوها

(١) ابن جبر: الرحلة، ص ٢١٠ - ٢١١.

(٢) ابن جبر، المصدر نفسه، ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١.

الى بلادهم مثل الصناعات الزجاجية والخزفية والمرايا والحلي والسجاد والمنسوجات والأواني المعدنية والسباحات والأصباغ والعقاقير وصناعة الصابون والسكر وسوى ذلك. وذكر بأن طرابلس الشام كانت تحوي وقت الهجوم الصليبي عليها في مطلع القرن الثاني عشر نحو أربعة آلاف من مصانع الحرير والصوف، فضلاً عن مصانع الورق التي اعتبرت إحدى الصناعات الهامة في ذلك الوقت^(١).

وكان الأفرنج قد تعلموا من سكان الشام عملية استخراج السكر من القصب، وكان يوجد في عكا معصرة (Masaria) ضخمة للسكر، بالإضافة الى معصرتين في اريحا. فضلاً عن مصانع السكر في معظم مدن الساحل مثل صور التي كانت تعتبر المركز الرئيسي لصناعة السكر، ومن هذه المدن الساحلية قام الأفرنج بتصدير السكر بكميات كبيرة الى الغرب الأوروبي ومعظم ما كان يستهلك في أوروبا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر جاء من الشرق.

كذلك قام الصليبيون بتصدير الأقمشة من بلاد الشام الى أوروبا، وتصدير الملابس الحريرية والتيلية والمخمل والزجاج. والحقيقة فإن القماش يلي السكر في الأهمية من حيث التصدير من بلاد الشام الى الغرب الأوروبي، لأن تربية دودة القز كانت قد انتشرت في بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس، وقد انتشر معها زراعة أشجار التوت المعروف بالتوت البري. كما كان الكتان ينمو في سهول فلسطين، وقد جرى تصنيعه في تلك المناطق كما أقيم في عكا مصانع للحرير الشامي الذي شهد إقبالاً أوروبياً عليه، كما وجد في بيروت واللاذقية مثل هذه المصانع، واشتهرت صور بالصناعات النسيجية المعروفة باسم «صندل». كما اشتهرت صور بصناعة الصباغ الأرجواني، الذي اكتسبت شهرته منذ أيام الفينيقيين. وكان لكتان نابلس شهرة دولية نظراً لجودته وإمكانية استغلاله في الصناعات الكتانية المتنوعة ونظراً لانخفاض سعره ووفرة كمياته. وكان

(١) د. محمد مرسى الشيخ: الامارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلادية، ص ٤١٠. انظر أيضاً: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، ص ٩٦ - ٩٧.

الإيطاليون يقبلون عادة على شراء كتان نابلس وبقية المدن الشامية والمصرية، وتسويقه في الأسواق الأوروبية. وعرفت مدن الشام مثل بيروت ودمشق وصور وطرابلس مصانع لدبغ الجلود، ولهذا نجد مناطق عديدة تعرف باسم مناطق الدباغة، كما جرى تصنيع وتصدير الأواني الفخارية. وقد تعاون اليهود من أهل الشام مع بقية الطوائف في صناعة وتصدير الزجاج الشامي الذي كان يلقي في بعض الأحيان منافسة من الصناعة المصرية.

وتعتبر مدينة جنوى من أهم المراكز التجارية في أوروبا في العصور الوسطى لتمييزها بموقع استراتيجي هام، مما جعلها حلقة اتصال بين الشرق والغرب. وكانت التجارة الجنوبية مع العالم الإسلامي قد توثقت وازدهرت لا سيما أيام الدولة الفاطمية. وتطورت العلاقات الاقتصادية الجنوبية - الإسلامية، وقد ازدادت تطوراً زمن الحروب الصليبية نظراً لتأييد الجنوبية للحملات الصليبية إلى الشرق لا سيما الحملة الأولى، وقد أكسبهم ذلك وأعطاهم امتيازات تجارية. وأصبح تجار جنوى يرتادون بسهولة كافة المناطق الغربية والشرقية على السواء، وكثرت تجارتهم بين بروقانس وسردينيا وكورسيكا وناربون وشمبانيا وقطالونيا وبرجنديا وإنجلترا وفرنسا من جهة وبين الشرق الإسلامي من جهة ثانية. وأصبحت بضائع الشرق ترى بوضوح في الأسواق الأوروبية، كما ازدادت البضائع الأوروبية في الأسواق الشرقية. وكانت السلع المشرقية تتدفق على أسواق أوروبا عبر مصر وبلاد الشام بصورة أساسية وعبر البحر الأسود. وكانت الرحلات الجنوبية المتجهة إلى الشام ومصر وسواهما من موانئ الشرق الأدنى تتم عادة مرتين في العام: الرحلة الأولى وتسمى رحلة الربيع (Passagium Vernale) والثانية وتعرف برحلة الخريف (Passagium Augusti) ^(١).

والحقيقة فإن الجنوبية أصبحوا سادة التجارة الشرقية سواء في مصر أو الشام، لا سيما بعد أن عقدوا معاهدة تجارية مع السلطان قلاوون وولده الأشرف خليل في

(١) د. مصطفى الكناني: العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الإسلامي، ص ٢٩١ - ٣٠٤.

٢ جمادى الأولى ٦٨٩ هـ - ١٣ أيار (مايو) ١٢٩٠ م. وهي تعتبر أهم معاهدة تجارية عقدت في حينه ، حيث لم تستطع أية مدينة تجارية أخرى أن تعقد مثلها في تلك الفترة. وكان قد سبقها معاهدة هامة بين الجنوية والناصر صلاح الدين الأيوبي عام ٥٧٢ - ٥٧٣ هـ - ١١٧٧ م. وكان تجار جنوى يجلبون الى مصر وبلاد المشرق الفراء والجلود والزيوت والمنسوجات والماليك والجواري والخيول والأسلحة والحديد والنحاس والرصاص والأخشاب والحبوب. ونقلوا معهم الى الغرب سلع بلاد الشام والمشرق عامة ومنها : المنسوجات ، والملح والنطرون والمرجان واللازورد والبلسم أو البلسان والزمرد والشمع والعسل والسكر والتوابل والصبغة الزرقاء (النيل) والتمور والأسماك المملحة والفواكه والتين الجاف والعنب (الزبيب) والزيتون وأخشاب الأرز والملابس على اختلاف أنواعها. بالإضافة الى الأواني الزجاجية ، وذلك من مصنوعات المدن الشامية ابتداء من انطاكية شمالاً ، ومروراً بجلب ومدن الساحل الشامي ، وانتهاء بدمشق وبيت المقدس وسواها من مدن وسط وجنوبي الشام^(١).

وكانت العلاقات الاسلامية - الجنوية قد ازدادت توثقاً بعد اقامة مراكز تجارية جنوية في مدن الشام ومصر ، واقامة محطات تجارية اسلامية في جنوى . بل إن بعض احياء جنوى اتخذت أسماء عربية وأسماء بعض المدن الشامية والمصرية ومنها على سبيل المثال زقاق دمياط (Vlco Damiath) وزقاق جبيل (Vlco Gebello). تشير بعض الدراسات الى وجود مسجد للتجار المسلمين في مدينة جنوى ، وذلك لإقامة الشعائر الدينية وتأدية الصلاة ، في مقابل اقامة كنائس في بعض المناطق الاسلامية في الشرق للتجار المسيحيين الجنويين.

والأمر الملاحظ أن بعض ما ذكر عن الحركة الصناعية والتجارية ، قد أشار إليها الادريسي الذي تحدث عن حركة صناعية نشطة في بيروت وصور ويافا.

(١) د. مصطفى الكناني، المرجع السابق، ص ٣٠٥ - ٣٠٩. انظر أيضاً:

Thompson, J.W., Economic and Social History of the Middle Ages (300-1300).

Vol. I, p.405.

ودمشق، وأن صناعة الفخار كانت فيها متقدمة بجميل مصنوعاتنا وبديع منتجاتها، لما عرفت به من دقة في الصنعة وبهاء في المظهر. وكانت أشهرها الذي صدر إلى أوروبا باسم « فخار دمشق ». وبما قاله الادريسي عن صناعة الحرير « ... وكذلك فإن صور وطرابلس وانطاكية وطرطوس، قد حازت جميعها شهرة واسعة في الشرق والغرب بمصنوعاتنا الحريرية ». وأشار الادريسي إلى أن مصنوعات صور هي من أفخر الأجناس، لأنها تمتاز بجهاها عن غيرها من منتجات الشام. أما انطاكية فقد أشار الادريسي إلى أن أهلها يصنعون في هذه المدينة أقمشة جميلة بألوانها المنسجمة، ومن أبدع منسوجاتها الحريرية المبرقشة والديباج.

وكان الخزف الشامي من المصنوعات الهامة في تجارة المستعمرات الصليبية، وتظهر هذه الحقيقة من خلال مراجعة « مجموعة قوانين القدس » على حد قول فيليب حتي. كما يتضح ذلك من بنود معاهدة ١٢٢٣ التي عقدت بين إمارة بيروت وجمهورية جنوى التي نصت على « أن المصنوعات الفخارية المختلفة كانت من السلع المعفاة من الرسوم الجمركية »^(١).

أما الصابون، فقد اشتهرت بلاد الشام بصناعته لا سيما مدن فلسطين وخاصة نابلس وعكا، بالإضافة إلى طرابلس وعكا وأقليم الخروب في جبل لبنان، ذلك لأن صناعته ارتبطت إلى حد كبير بإنتاج الزيت والزيتون المتواجد في تلك المناطق، وقد أصبح للصابون النابلسي شهرة شامية وأوروبية بسبب جودته. وقد أنشئت مصابن عدة لصناعته في المدن الساحلية والجبلية بالإضافة إلى انطاكية وطرطوس. كما أقبل الأوروبيون على شراء المصنوعات الذهبية والنحاسية والفضية التي اشتهرت بها بلاد الشام لا سيما المصنوعات التي تميزت بالنقوش

(١) انظر: د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنجة خلال الحروب الصليبية، ص ١٧٨ - ١٨٤.

والحفر و اظهار الرسوم عليها .

وقد استفاد الافرنج من الأخشاب المتوافرة في بلاد الشام لا سيما غابات بيروت وجبل لبنان ، فصنعوا منها بعض سفنهم التجارية والحربية . وكان يوجد في بعض مناطق جبل لبنان مناجم للحديد ، غير أن انتاجها لم يكن من الوفرة ما يكفي للتصدير الى أوروبا ، ولكن مصر كانت تستورد الحديد من لبنان بدليل ما ذكره ابن بطوطة من أن بيروت كانت « تجلب منها الى ديار مصر الفواكه .. والحديد »^(١) .

وقام الافرنج بشراء وتصدير الأعشاب الطبية التي تعرفوا عليها أثناء تواجدهم في المنطقة ، ولمسوا منعوها الطبي . وكانت مادة « البلسان » المادة العشبية الأكثر أهمية بالنسبة لمسيحي أوروبا ، لأنها كانت تستخدم هناك في طقوس الكنيسة . وقد تطورت زراعة هذه المادة في عهد الصليبيين لا سيما في بيت المقدس ، غير أن المسلمين أهملوا زراعتها بعد أن أعادوا سيطرتهم على بيت المقدس في أواخر القرن الثاني عشر ، لأنها لم تكن ترتبط بعقيدتهم الدينية ، بالإضافة الى أن هذا النبات يحتاج إلى ري مستمر وكميات وفيرة من المياه ، غير أن بلاد الشام شهدت صناعات للمشروبات الروحية والكحولية مثل الجعة (البيرة) التي كانوا يصنعونها من الشعير ومن الذرة ، كما صنعوا مشروبات أخرى من العنب والفواكه .

التجارة

كانت التجارة بشكل عام قد ازدهرت بين البلاد الاسلامية والأوروبية ، وانتقلت المؤثرات الصناعية الشرقية الى مختلف مناطق أوروبا^(٢) . وقد جنى التجار أموالاً طائلة ، واشتد الطلب في أوروبا في العصور الوسطى على التجارة الشرقية كالتوابل والاصباغ والحرير والخزف والصابون ، والصناعات التي سبق أن أشرنا

(١) ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ، ج ١ ، ص ٨٢ ...

(٢) انظر : د . زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ١٨٥ - ١٩٣ .

بحرية تمتلك الأساطيل الكبرى والقواعد البحرية والبرية معاً. غير أنه من اللافت للنظر أيضاً، هو التصميم والإرادة والمثابرة العربية والإسلامية التي تمثلت في رفض التراجع عن الهدف، والعمل على تحقيقه ولو بعد ثمانين من الأعوام.

في عام ٢٩٧ هـ - ٩٠٩ م انتهى حكم الأغالبة في المغرب، وقضى الفاطميون عليهم في أفريقية، ومن ثم فقد دخلت صقلية تحت الحكم الفاطمي اسماً لا سيما في عهد أسرة الكلبيين (٩٤٨ هـ - ١٠٥٢ م). وقد تمتعت صقلية في هذا العهد باستقلال ذاتي. غير أن صقلية لم تنعم كثيراً بالاستقرار لا سيما بعد سقوط دولة الكلبيين^(١) عام ١٠٥٢ م، فقد شهدت اضطرابات وثورات وحروباً أهلية، كانت بوادرها وجذورها قد بدأت في عهد الكلبيين، وكان ذلك من أسباب تدهور الحكم العربي الإسلامي وضعفه، الأمر الذي أدى أخيراً إلى سيطرة النورمان (أهل الشمال) (North-Men) على جزيرة صقلية. وعلى حد قول المؤرخ ابن أبي دينار في كتابه: المؤنس، من أن أسباب هلاك مسلمي صقلية الحسد والشقاق.

ولا بد من الإشارة إلى أن انتهاء الحكم الإسلامي والعربي في صقلية^(٢) لا يعني انتهاء حضارتهم وعاداتهم وتقاليدهم ولغتهم. فقد تمتعت صقلية خلال العهدين الأغلي والفاطمي بحكم إسلامي مزدهر، فانتشر المسلمون فيها وانتشرت معهم الحضارة الإسلامية في بالرمو ومسينا وسرقوسة وسواها، وانتشرت فيها القصور والمساجد^(٣) والبيمارستانات والأسواق والأسوار والقلاع والقناطر، وصناعة الورق والسفن والحريير والفسيفساء والكبريت، واستخرج المسلمون النفط والرصاص والحديد. وشاركوا في ميادين التجارة والصناعة. ونشروا اللغة العربية، كما نشروا

(١) نسبة إلى المنصور الحسن بن علي بن أبي الحسين الكلبي.

(٢) انتهى الحكم العربي في صقلية قبل خروج العرب من إسبانيا بأربعمئة عام.

(٣) للمزيد من التفاصيل انظر: الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في إسبانيا وصقلية، ص ٨٩ -

وكانت مواليء عكا وصور واللاذقية من أهم مواليء بلاد الشام بالإضافة الى مواليء بيروت وطرابلس وانطاكية والسويداء ، وكانت تستورد الى هذه المواليء ويصدر منها مختلف أنواع السلع والمصنوعات . وقد أوجدت هذه الحركة التجارية طبقة من التجار المحليين ، وقد ذكر ابن جبير اثنين منها كانا يعملان على فك أسرى المسلمين المغاربة وهما : نصر بن قوام وأبي الدر ياقوت . ومما قاله ابن جبير في ثرائهما وتجارتهما « وقبض الله لهم [للأسرى] بدمشق رجلين من مياسر التجار وكبرائهم وأغنيائهم المنغمسين في الثراء : أحدهما يعرف بنصر بن قوام والثاني بأبي الدر ياقوت مولى العطافي . وتجارتهما كلها بهذا الساحل الأفرنجي ، ولا ذكر فيه لسواهما ولهما الأمناء من المقارضين ، فالقوافل صادرة وواردة ببضائعها ، وشأنها في الغنى كبير ، وقدرهما عند أمراء المسلمين والافرنجيين خطير ... »^(١).

كما أوجدت الحركة التجارية طبقة من التجار الأجانب ، بالإضافة الى أن منطقة الشام استأثرت باهتمام التجار المسلمين من غير بلاد الشام ، والذين وفدوا اليها باعتبارها منطقة التقاء حضاري وصناعي وتجاري ، حيث كان التجار يقصدونها بهدف شراء ما يعجزون عن شرائه أو وجوده في الخارج والحقيقة فإن التبادل التجاري المستمر بين بلاد الشام أو الممالك الصليبية فيها وبين البلدان الأوروبية ، ساعد على ازدياد النشاط المالي والصيرفي ، وأدى الى استحداث أساليب مالية جديدة مأخوذة عن المعاملات المالية المعمول بها في بلاد الشام . كما استحدثت أنواع من العملات المعدنية المتداولة بين الجانبين في المنطقة . كما اتبع أسلوب الديوان (الجمرك) حيث كان المسلمون مثلاً يدفعون ضريبة للصليبيين على بضائعهم الداخلة الى مينائي عكا وصور ومنطقة تبنين وسواها بمعدل قيراط عن كل سلعة ثمنها دينار واحد ، وكان الدينار يساوي ٢٤ قيراطاً .

وبالرغم من العداء القائم بين المسلمين والافرنج ، غير أن العلاقات التجارية كانت قائمة وبصورة ناجحة ، وكانت القوافل تنتقل بين أراضي الطرفين في

(١) ابن جبير : الرحلة . ص ٢١٤ .

سهولة. ولا بد في هذا المجال من أن نورد مشاهدات ابن جبير وملاحظاته حول العلاقات التجارية بين الجانبين. فبعد أن أشار الى خروج صلاح الدين الأيوبي لمنازلة حصن الكرك الافرنجي، لأنه المعترض في طريق الحجاز والممانع لسبيل المسلمين على البر قال:

«... واختلاف القوافل من مصر الى دمشق على بلاد الافرنج غير منقطع، واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك، وتجار النصارى أيضاً لا يمنع أحد منهم ولا يعترض».

ثم أضاف: «... وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم.. وتجار النصارى أيضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال، وأهل الحرب مشغولون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. هذه سيرة أهل هذه البلاد في حربهم. وفي الفتنة الواقعة بين أمراء المسلمين وملوكهم كذلك، ولا تعترض الرعايا ولا التجار، فالأمن لا يفارقهم في جميع الأحوال سلباً أو حرباً. وشأن هذه البلاد في ذلك أعجب من أن يستوفى الحديث عنه...»^(١).

ولما كان ابن جبير يعد السفر من دمشق إلى عكا، التمس ركوب البحر مع تجار النصارى «في قافلة كبيرة من التجار المسافرين بالسلع الى عكة. ومن أعجب ما يحدث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج، وسيهم يدخل الى بلاد المسلمين. شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً». وقد تعجب ابن جبير أنه بالرغم من الحروب القائمة بين المسلمين والصليبيين غير أن الوجه الآخر لعلاقاتهم التجارية، كان وجهاً قائماً على السلم بين الجانبين. ومما قاله «وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسيهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا، الاعتدال في السياسة»، ووصف ابن جبير الوضع في إحدى قرى عكا بقوله: «ورئيسها الناظر فيها من المسلمين، مقدم من جهة الافرنج على من فيها من عمارها من المسلمين..»

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢٠١.

فأضاف جميع أهل القافلة ضيافة حفيلة.. وأنالهم ألواناً من الطعام قدمها لهم..»^(١).

وعن الخانات التجارية والضرائب المفروضة على البضائع قال ابن جبير: «وحملنا الى الديوان، وهو خان معدّ لنزول القافلة وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الأبنوس المذهبة الخلي، وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها، ورئيسهم - صاحب الديوان والضامن له - يعرف بالصاحب: لقب وقع عليه لمكانه من الخطة. وهم يعرفون به كل محتشم متعين عندهم من غير الجند، وكل ما يجبي عندهم راجع الى الضمان، وضمان هذا الديوان بمال عظيم، فأنزل التجار رحالهم به ونزلوا في أعلاه، وطلب رجل من لا سلطة له لئلا يحتوي على سلعة له لئلا يحتوي على سلعة مخبوءة فيه، وأطلق سبيله فنزل حيث شاء، وكل ذلك برفق وتؤدة دون تعنيف ولا حمل، فنزلنا بها في بيت أكثريناه من نصرانية بإزاء البحر»^(٢).

ووصف ابن جبير ميناء عكا وتجارها قائلاً: «هي قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري المنشآت في البحر كالأعلام، مرفأ كل سفينة، والمشبهة في عظمها بالقسطنطينية، مجتمع السفن والرفاق، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطيء الأقدام، تستعر كفرةً وطغياناً.. انتزعها الافرنج من أيدي المسلمين في العشر الأول من المائة السادسة، فبكى لها الاسلام ملء جفونه..»^(٣). كما وصف مرفأ صور الذي اعتبره بأنه أفضل من مرفأ عكا ومما قاله ابن جبير عن برجى الميناء «ليس في البلاد البحرية أعجب وصفاً منها يحيط به سور المدينة من ثلاثة جوانب... فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها.. وتعرض بين البرجين المذكورين سلسلة

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١١.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١١.

(٣) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢١١.

عظيمة، تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج. وعلى ذلك الباب حراس وأمناء لا يدخل الداخل، ولا يخرج الخارج إلا على أعينهم». ثم أضاف واصفاً هذا المرفأ بقوله: «فشأن هذا الميناء شأن عجيب في حسن الوضع. ولعكة مثلها في الوضع والصفة، لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك، وإنما ترسي خارجها، والمراكب الصغار تدخل إليها، فالصورية أكمل وأجل وأحفل...»^(١).

وعن تجارة مدينة طبرية منها وإليها قال ابن جبير «وعلى بادية طبرية اختلاف القوافل من دمشق لسهولة طريقها، ويقصد بقوافل البغال على تبين لوغورتها وقصر طريقها...».

ومما قاله عن حصن تبين ووضع الضرائب فيه: «حصن كبير من حصون الافرنج يعرف بتبين. وهو موضع تمكيس القوافل، وصاحبه خنزيرة تعرف بالملكة، هي أم الخنزير صاحب عكة.. ومكس الناس تمكيساً غير مستقصى، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدينار الصورية على الرأس، ولا اعتراض على التجار فيه، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون، وهو محل التعشير، والضريبة فيه قيراط من الدينار، والدينار أربعة وعشرون قيراطاً. وأكثر المعترضين في هذا المكس المغاربة، ولا اعتراض على غيرهم من جميع بلاد المسلمين، وذلك لمقدمة منهم أحفظت الافرنج عليهم...»، وذلك بسبب وقوفهم الى جانب نور الدين في أثناء حصاره أحد حصون الافرنج «فجازاهم الافرنج بهذه الضريبة المكسية ألزموها رؤوسهم، فكل مغربي يزن على رأسه الدينار المذكور في اختلافه على بلادهم. وقال الافرنج: إن هؤلاء المغاربة كانوا يختلفون على بلادنا، ونسألهم ولا نرزأهم شيئاً. فلما تعرضوا لحربنا، وتألّبوا مع أخوانهم المسلمين علينا، وجب أن نضع هذه الضريبة عليهم. فللمغاربة في أداء هذا المكس سبب من الذكر الجميل في نكايتهم العدو يسهله عليهم ويخفف عنه عنهم»^(٢).

(١) ابن جبير، المصدر السابق، ص ٢١٢ - ٢١٣.

(٢) ابن جبير: الرحلة، ص ٢١٠.

ويلاحظ أيضاً بأن من مظاهر نشاط الحركة التجارية في هذه الفترة، كثرة الخانات والفنادق الخاصة بالتجار المسلمين والافرنج على السواء، فقد كان للتجار المسلمين خانات وفنادق خاصة يفضلون النزول بها مجتمعين، كما كان للتجار الايطاليين (نابولي، جنوى، بيزا، البندقية) والفرنسيين (ناربون، ومرسيليا) والاسبان (أراجون وقطالونيا) خانات وفنادق خاصة يجتمعون وينامون فيها ريثما تتم معاملاتهم وشراء بضائعهم أو بيع المستورد منها^(١). كما كان لكل طائفة تجارية أو قومية قنصل يرعى مصالحها، وكان يعرف في بلاد الشام باسم شهندر التجار أو بازار باشي وهو المسؤول عن مصالح التجار المسلمين. كما كان يوجد في هذه الفترة محاكم خاصة تفصل في القضايا العالقة بين التجار الأجانب والتجار المسلمين، أو بين التجار الأجانب وعمهاتهم من السكان المحليين، وقد نشأت بعض الخلافات بين الجانبين بسبب سوء معاملة التجار الايطاليين والافرنج عامة للعمال الموارنة والسريان واليعاقبة والبيزنطيين الروم والاقباط، لأن هؤلاء سخرُوا للقيام بالخدمات والأعمال الدنيا التي أنف الصليبيون الغربيون من القيام بها، باستثناء بعض الأرمن الذين نالوا الامتيازات من الصليبيين، وجرت زيجات مشتركة بينهم وبين الافرنج، كما تولى بعضهم مناصب هامة في الممالك الصليبية، ولعل مواقف الأرمن السابقة المعادية للسلاجقة أعداء الصليبيين، كانت من جملة الأسباب التي قربت بين الفئتين الأرمن والافرنج.

وبصورة عامة فقد أوجدت العلاقات التجارية بين المسلمين والافرنج محكمتين هما:

محكمة التجارة وتعرف باسم « محكمة الفندق » أو « محكمة السوق » و« محكمة الملاحة » أو « محكمة السلسلة » التي تقفل بها الموانئ. وكانت المحكمتان مختلطتين ومؤلفتين من سوريين وافرنج (أربعة سوريين وافرنجين) بالإضافة الى ذلك فقد وجدت محكمة خاصة بالشاميين تسمى « محكمة الرئيس » وهو المسؤول عن التجار

(١) د. زكي النقاش، المرجع السابق، ص ١٩٢ - ١٩٣.

كمنصب شهندر التجار أو بازار باشي ، وكانت مهامها فض الخلافات المحلية حسب القوانين المحلية^(١) .

واتبع الصليبيون مع تجار المسلمين في بلاد الشام قاعدة الموازين والمكايل المستعملة في البلاد من قبل وأبقوا على وظيفة المحتسب الاسلامية ، التي يقوم صاحبها بمراقبة الأسواق ومنع الغشوش فيها ومراقبة الموازين والمكايل والصنع (المعايير) ومراقبة جميع الباعة وأصحاب المهن . وكان المحتسب هو المسؤول الفعلي في الادارة المحلية الاسلامية .

أما النقود المتداولة في الامارات الصليبية ، فكانت تتمثل بالدينار الاسلامي الذي ضرب لاستخدامه في التجارة مع المسلمين ، وقد اشتهر منه الدينار السوري الذي اعتمده ثم قام بسكه البنادقة في مدينة صور ، وهو عملة ذهبية عليها بعض النقوش العربية والآيات القرآنية . ولم يلبث هذا الدينار السوري أن صار أكثر العملات انتشاراً بسبب جودته . وبالإضافة إلى مدينة صور ، فقد وجدت دور للسكة وضرب النقود في كل من عكا وطرابلس وانطاكية ، حيث كان الافرنج يسكنون النقود لا سيما الدينار الاسلامي تقليداً للدينار الفاطمي ، وما لبث هذا الدينار أن حمل الشعار النصراني بالأحرف العربية . وكان تجار الشام والعراق يتعاملون بهذا الدينار تسهيلاً لأعمالهم التجارية . وهناك رأي يشير إلى أن تعامل الأوروبيين بمثل هذا الدينار الذهبي كان أول تعامل من نوعه مع مثل هذه النقود^(٢) .

ولم يكن للدينار الاسلامي قوة تجارية فحسب ، بل كانت له قوة سياسية ، لذا حرص الافرنج على تغيير العبارات والآيات القرآنية الواردة فيه ، ذلك أنه عندما زار الملك لويس التاسع الامارات الصليبية في الشام بعد حملته الفاشلة على مصر في

(١) د . زكي النقاش : العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية ، ص ٣٥ - ٣٦ .

(٢) للمزيد من التفاصيل حول العملات المتداولة وأسائها انظر : د . مصطفى الكناي : العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الاسلامي ، ص ٣١١ - ٣١٥ .

منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، كان الدينار السوري لا يزال متداولاً ومعمولاً به في الشام بعباراته الإسلامية. وكان البابا « انوسنت الرابع » قد حرّم استخدام هذا الدينار، فما كان من لويس التاسع إلا أن تدخل وتوسط مع المعنيين الأفرنج وتوصل إلى حل وسط وهو الأبقاء على هذا الدينار وقيّمته الشرائية، على أن يتم تغيير الآية القرآنية بعبرة مسيحية تكتب بالعربية حتى يقبل المسلمون على التعامل به.

وكان الإيطاليون بالتعاون مع الداوية والاستبارية قد أصبحوا من أصحاب أكبر البيوتات والمصارف المالية في طرابلس وعكا وقيسارية. وقد ساهم في ذلك الصفقات التجارية بين أوروبا والشرق، مع ما رافقها من صفقات غير مباشرة فيما يعرف باسم « البورصة » (Bourse) التي كانت تقام عادة في الفندق (Fondica) حيث ملتقى التجار. وقد شارك في أعمال الصيرفة إلى جانب الإيطاليين فئات من اليهود، فتطورت حركة التبادل التجاري، ووجد نظام الرهونات والشك (الصك) والمعاملات التجارية المتنوعة وقد أوجدت هذه الحركة التجارية أيضاً أوراقاً مالية وشيكات تجارية باتت مقبولة في مختلف بلاد الشام وأوروبا. كما أدى التبادل التجاري بين الشرق والغرب إلى قيام علاقات رسمية بين التجار. وذلك عبر معاهدات رسمية ضمنت قيام التجارة وحقوقها وحقوق التجار في كلا الجانبين. كما تمخضت عن هذه الحركات التجارية قيام نظام المصارف أو البنوك التي ساعدت التجار بامدادهم بالقروض، وأمدتهم بأذون الصرف (ال شيكات) وبالسفاتج أي الحوالات المالية.

وكان من نتائج النشاط التجاري أيضاً بين الشرق والغرب في فترة الحروب الصليبية، ظهور عدة مدن أخرى سواء في الشرق أو الغرب، بالإضافة إلى أن هذا النشاط مهد لانحيار النظام الاقطاعي، بعد اجتذاب الفلاحين للمشاركة في الأعمال التجارية لا سيما في هذه المدن الجديدة أو المتطورة في بلدان غربي أوروبا.

الفصل الرابع

المؤثرات الثقافية والطبية

الفصل الرابع

المؤثرات الثقافية والطبية

إن إقامة الصليبيين لفترة تقارب مئتي سنة في بلاد الشام، أدت إلى التبادل الثقافي مع المسلمين، كما استفادوا كثيراً من الطب العربي المعمول به في المنطقة. والواقع فإن طبيعة الاتصال البشري أدت إلى تعرف الأفرنج إلى علوم العرب، وتعرف العرب إلى العادات والتقاليد الطبية عند الأفرنج.

ففيما يختص بالمؤثرات الثقافية، فقد بدأ الأفرنج يتعلمون اللغة العربية ويستخدمونها أحياناً في علاقاتهم مع الإمارات الإسلامية المحيطة بهم، كما أن المسلمين تعلموا اللغات الأفرنجية سواء الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية، بدليل أن الأصفهاني^(١) وابن جبير وابن منقذ قد أعطى كل واحد منهم بعض الدلائل على ما أشرنا إليه، فمن جهة استخدم أسامة بن منقذ في كتابه «الاعتبار» عدة كلمات غير عربية أفرنجية، كان الأفرنج يستخدمونها، ومنها على سبيل المثال استخدامه لكلمة «سرجنت» (Sergeant) في قوله: «فحرد دنكري وقال: أنتم فرساني، وكل واحد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم، وهاولاً «سرجند» ما تقدرتون تقلعونهم من موضعهم» ثم استخدمها ثانية عندما قال عن أحدهم «فوقف وكان سرجندياً...» ولما تحدث عن صاحب طرابلس وعن جنده استخدم أسامة كلمة

(١) استخدم الأصفهاني في كتابه: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٠٣، بعض العبارات الأجنبية ومنها: تركبولى، وسرجندي، وباروني. واسبتاري، وفريري... كما استخدم في صفحات أخرى (ص ٤٦٠) عبارة براكيس وهي مأخوذة من الكلمة الإيطالية Barcoso وتعني السفينة الحربية.

« تركبول » (Turcopole) وهم جند في خدمة الافرنج آباؤهم من العرب أو الأتراك وامهاتهم من اليونان أو بالعكس. وقال إن صاحب طرابلس خرج « في ثلاثمائة فارس ومائتي تركبولي وهم رماة الافرنج ». كما استعمل اسامة كلمة البرنس (Prince) عندما تحدث عن « صاحب البيت المقدس بغدوين البرونس ». واستعمل كلمة المدام والداما (Dame), (Madame) في قوله « بحق دينك اعمل للداما ... قل للداما أن تجيء... »، كما استعمل كلمة « الفيكونت » (Viscount) عندما تحدث عن محاكمات الافرنج بقوله « فجاء البسكند وهو شحنة البلد ... » بالإضافة إلى ذلك فقد استخدم اسامة بن منقذ في كتابه عبارة « بورجوازي » (Bourgeoisie)، فعندما حاولت إحدى النساء اتهام اسامة بقتل أخيها، فما كان من أحد الافرنج إلا أن دافع عن أسامة وقال للمرأة « هذا رجل برجاسي لا يقاتل ولا يحضر القتال... »، كما أن أسامة استخدم عدة تعابير يونانية منها: « سقلاطون » وتعني الثياب الكتانية الموشاة، وكلمة « قنطارية » وتعني الرمح، وكلمة « زربول » أو « زربول » وتعني الحذاء^(١).

كما أن الملك الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ، ١٢٦٠ - ١٢٧٧) أو كاتبه، قد استخدم تعابير أجنبية لاتينية في رسائله، ومنها رسالة إلى بوهمند السادس أمير انطاكية وطرابلس سنة (٦٦٧ هـ - ١٢٦٩ م)، ومن التعابير التي استخدمها في رسالته تعبير « كنداسطيل » وهو لفظ لاتيني معناه حاكم القلعة بقوله: « ... وفي حال النزول خرجت عساكر كرك للمبادرة فكسروا، وتناصروا فما نصروا، وأسر من بينهم كنداسطيل... » كما استخدم لفظ « المرشان » وهو لفظ لاتيني أيضاً ويعني الحفلات، كما استخدم اللفظ اللاتيني « القسطلان »، ويعني حارس القصر، وذلك في قوله: « .. ففي بعض ساعة مرّ شأن المرشان، وداخل الرهب الرهبان، ولأن للبلاء القسطلان، وجاءهم الموت من كل مكان... »^(٢).

(١) انظر: أسامة بن منقذ: كتاب الاعتبار. صفحات: ٥١، ٦٧، ٧٥، ١١٩، ١٣٩، ١٤١.

(٢) انظر: المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٩٦٦ - ٩٦٩.

كما استخدم الملك المنصور قلاوون أو كاتبه محيي الدين بن عبد الظاهر كاتب الانشاء بعض التعابير اللاتينية في الهدنة الموقعة مع افرنج عكا ، فقد استخدم كلمة « السنجال » (Senechal) وهي كلمة لاتينية تعني نائب المملكة أو الكفيل . كما استخدم المسلمون في فترة العهد الصليبي كلمة (Empereur) « الأنبرور » (الامبراطور) كثيراً ، كقول أحمد بن عبد السيد صلاح الدين الاربلي إلى الملك الكامل بعد التفاوض مع فريدريك الثاني :

زعم الزعيم « الأنبرور » بأنه سلم يدوم لنا على أقواله

ولا بد من الإشارة الى أنه بالرغم من تأثر أهل الشام باللغات الأجنبية التي استخدمها الصليبيون لا سيما الفرنسية ، غير أن تأثير اللغة العربية في الافرنج كان أشمل وأكثر اتساعاً نظراً لقلّة الصليبيين إذا ما قيسوا بعدد سكان المنطقة ، ثم بسبب مصالحهم التجارية والسياسية رأوا أنه من الأجدي لهم تعلم واستخدام اللغة العربية ، وقد دخل الى اللغات الأوروبية أكثر من ألف كلمة عربية ^(١) . وقد أشار ابن جبير الى استخدام الافرنج ومعرفتهم للغة العربية ، عندما تحدث عن موظفي الديوان (الجمرك) في عكا . فقال عن خان عكا التجاري ومصاطبه « فيها كتاب الديوان من النصارى .. وهم يكتبون بالعربية ويتكلمون بها .. » ^(٢) بالإضافة الى أن المولدين وسادة الاقطاعات قد اتقنوا اللغة العربية ^(٣) . وذلك للتفاهم والتعامل مع اتباعهم المحليين ولادارة البلاد . ومن تعلم اللغة العربية واطلع على تاريخ العرب « رينو الصيداني » الذي حرص على الاتيان بمرجم وقارىء عربي ، يفهمه ويفسر

(١) د . سعيد محمود عمران : العلاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥٥ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ٢١١ .

(٣) يذكر جوانثيل في مذكراته عن حملة لويس التاسع الكثير من المترجمين الذين كانوا يتقنون اللغتين العربية والفرنسية على السواء . انظر مثلاً ، ص ١٦٨ ، ١٨٠ ، ٢٠٠ ، ٢٤٧ . كما أشار الدواداري في : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٨ ، ص ١٢٥ ، من أنه كان لبيبرس كتاباً يكتبون بالافرنجي يحتاج اليهم عند مراسلة ملوك الافرنج . كما استخدم الدواداري عدداً من الألفاظ الافرنجية السائدة .

له بعض الأمور . وكان الأمير « همفري الرابع » صاحب تبنين يتقن العربية وكان ترجان « ريشار » الى الملك العادل في المفاوضات التي دارت بينها قرب أرصوف ثم قرب يافا سنة ١١٩٢ م ، وقد قام بالمهمة نفسها بلدوين الابليني للقديس لويس التاسع في فترة أسره في مصر . كما أن نقولا العكاوي من الافرنج كان يتقن العربية وكان وسيطاً و مترجماً بين المسلمين والصليبيين في مصر أثناء الاعداد للهدنة بين الجانبين . فضلاً عن أن مبعوث سلطان مصر الى الملك لويس كان مسلماً يتقن الفرنسية والعربية على السواء . وكان نصرانياً افرنجياً سبق له أن دخل الاسلام^(١) .

إضافة الى ذلك فإن أحد مبعوثي فريديريك الثاني إلى الملك الكامل كان يتقن العربية . وكان هذا المبعوث هو « الأخ ايثنز » (Ylves) البريطاني من جماعة الاخوان المبشرين ، وكان يعرف اللسان العربي^(٢) . كما أن الملك « بلدوين الثالث » والملك « امليوك الأول » شغفا بالآداب العربية ، واهتم سيد صيدا « رينالد » بالعلوم الإسلامية .

والحقيقة فإن عصر الحروب الصليبية قد أنجب أيضاً نخبة من المؤرخين المعاصرين لهذه الحروب سواء من الشرقيين أو الغربيين ، ويمثل كل منهم وجهة نظره في تلك الحروب ، وقد تركوا لنا تراثاً فكرياً هاماً وسجلاً حافلاً وملامح من التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والعلمي والسياسي والعسكري^(٣) . فمن بين المؤرخين الافرنج « فوشيه دو شارتر » (F. de Chartres) صاحب كتاب (Historia Hierosolimitana) ووصف فيه تاريخ مملكة القدس الى سنة ١١٥٧ م ، وكذلك فقد ترك مؤرخ فرنسي تاريخاً عن الحروب الصليبية وهو يعرف باسم النورماندي . ومنهم أيضاً غليوم (وليم) الصوري ، وله « تاريخ فيما وراء البحار » (Historia Transmarina) وهو (٣٣) مجلداً ، تناول فيه الأحداث إلى سنة

(١) مذكرات جوانفيل ، ص ١٦٨ ، ١٨٠ . للمزيد من التفصيلات انظر : د . عمر تدمري : الحياة

الثقافية في طرابلس الشام خلال العصور الوسطى ، صفحات متعددة من الكتاب .

(٢) مذكرات جوانفيل ، ص ٢٠٠ .

(٣) انظر : د . زكي النقاش ، المرجع السابق ، ص ٢٠٠ - ٢٠١ .

١١٨٣ م. وقد أصبح هذا الكتاب بعد ترجمته الى الفرنسية أهم مرجع لتاريخ الحروب الصليبية . وبالإضافة الى تاريخ الافرنج في بلاد الشام ، فقد ألف غليوم الصوري أيضاً كتاباً عن تاريخ الأمراء المسلمين منذ ظهور النبي : « History of the Muslims Princes to the Appearance of the Prophet » . وظهر من المؤرخين الافرنج المعاصرين غليوم الطرابلسي الذي كتب في تاريخ الحروب الصليبية ، كما ترك كتاباً في « حالة العرب » (Tractatus de Statu Sarracenorum) وذلك سنة ١٢٧٣ م ، ويضم هذا الكتاب ايضاً بعض ما جاء في كتاب غليوم الصوري « الأمراء المسلمون منذ ظهور النبي » . كما ظهرت مؤلفات أخرى عالجت الحملات الصليبية ومنها كتاب صدر باللغة اللاتينية وعنوانه : (Tinerarium Regis Ricardi) وقد ألفه رجل انجليزي من لندن اسمه (Richard of the Holy Trinity) ، كما ظهرت قصائد حول الحروب الصليبية باللغة الفرنسية القديمة « لأمبرواز » وعنوانها : « تاريخ الحرب المقدسة » (L'Estoire de la guerre Sainte) ، ووجد تقرير يمثل وجهة النظر الفرنسية ، كان قد أعده « ريجور » وعنوانه : (Gesta a Philipe Angusti) وهناك مؤلفات المانية تصف حملة فريديريك بربروسة الصليبية منها ما كان تحت عنوان : (Expedition Frideric) والأمر الملاحظ أن بعض الجنود الصليبيين تركوا لنا مذكراتهم ويومياتهم عن الحروب الصليبية كانت لها أهمية كبرى في التأريخ للحملات الصليبية على غرار مذكرات الحملة الصليبية الرابعة .

أما الحملة الصليبية الخامسة ، فقد استفيد من رسائل الكاردينال « جيمس فيتري » وتاريخ دمياط الذي ألفه « أوليفر بادينورن » الذي كان كاتباً للكاردينال بيلاجيوس . وهناك كتاب « تاريخ القديس لويس » لمؤلفه « يوحنا سير جوانفيل » (Jean Sire de Joinville) (وهو يهتم بحملة لويس القديس) ، كما اعتبرت المراسلات والتقارير البابوية القائمة بين البابوات وزعماء الطوائف والملوك والأمراء من المصادر الهامة . أضف الى ذلك بأن الحروب الصليبية خلّفت أيضاً مجموعة من المؤلفات الدستورية المهمة بالاجراءات القانونية والتجارية والمحاكمات

وطبيعة العلاقات التشريعية القائمة بين بلاد الشام وأوروبا.

ولا بد من الإشارة الى وجود بعض المصادر الأرمنية التي اهتمت بالتاريخ للحروب الصليبية، ومنها كتاب الأمير الأرمني هايتون (هيثوم كوريكوس) الذي ألفه باللغة الفرنسية بعد التجائه الى فرنسا في أوائل القرن الرابع عشر وهو المعروف باسم: (Flor des Estoires de la terre d'orient). كما كتب ابن العبري باللغتين السريانية والعربية وهو يعتبر من أهم المؤرخين الذين كتبوا عن القرن الثالث عشر (١٢٦٦ - ١٢٨٦). ووجدت مصادر فارسية اهتمت بالحقبة الصليبية والمغولية والسلجوقية ومن مؤرخي تلك الحقبة: ابن ببي الذي أرخ لسلاجقة الروم، وتاريخ رشيد الدين عن المغول.

كما أفرزت الحروب الصليبية عدداً من المؤرخين الشرقيين ومنهم على سبيل المثال: أسامة بن منقذ، ابن جبير، ابن الأثير، ابن شداد، وابن واصل، ابن الفرات، ابن العميد القبطي، ابن عساكر، أبو شامة، القلقشندي، محمد بن علي بن نظيف (صاحب التاريخ المنصوري)، والمقرئزي وسواهم. وقد عكف المؤرخون الأوروبيون في العصر الحديث على جمع المواد الوفيرة من هذه الكتب الغربية والشرقية، وذلك في موسوعة علمية تحت عنوان: «مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية».

(Recueil des Historiens des croisades) Paris 1841-1960

وهي تنقسم إلى مجموعتين:

- المجموعة الأولى وتضم ما كتبه المؤرخون الشرقيون في خمسة مجلدات وهي تحت عنوان (Historiens Orientaux).
- المجموعة الثانية وتضم ما كتبه المؤرخون الغربيون في خمسة مجلدات أخرى وهي تحت عنوان (Historiens Occidentaux) ^(١).

(١) للمزيد من التفاصيل الوافية عن مؤرخي ومصادر ووثائق الحروب الصليبية انظر: أرنت باركر: الحروب الصليبية، ص ١٨٥ - ٢٠٤. انظر أيضاً: د. جمال الدين الشيال: التاريخ الاسلامي وأثره في الفكر التاريخي الاوروي، ص ٦٨ - ٧٦.

كما تأثرت أوروبا بالعلوم الرياضية السائدة في المشرق . ويقول أرنست باركر إنه بالرغم من أن أقوى ما تأثرت به أوروبا إنما جاء من المسلمين بإسبانيا ، غير أنها تأثرت أيضاً بما جاء من المسلمين في المشرق . فالمعروف أن أول عالم مسيحي في الجبر هو ليوناردو فيبوناتشي (Leonardo Fibonacci) الذي ارتحل الى بلاد الشام (سوريا) ومصر . وبدأ في دراسة اللغات الشرقية ، لارتباطها بالبعثات التبشيرية في المشرق . كما أن المبشر الدؤوب ريموند لل (Raymundus Lullus) حثّ جمع فيينا سنة ١٣١١ على اتخاذ قرار بإنشاء ست مدارس للغات الشرقية في أوروبا . وبالإضافة إلى هذه المؤثرات العلمية هناك المؤثرات الأدبية ، إذ توافر الكثير من القصائد الجديدة التي عاجلت الحروب الصليبية ، إما عن طريق الرواية ، كالتى اشتهرت بها قصيدة امبرواز (Ambroise) التى تروي تاريخ الحملة الصليبية الثالثة ، وإما في روح شاعرية حرة ، كالتى انبعثت من قصيدة انطاكية^(١) .

وبالإضافة الى تلك النتائج ، فقد شهدت الفترة الصليبية إنتاجاً من الفكر الجغرافي ، كما أقيمت المؤسسات العلمية لا سيما المدارس ، سواء الصليبية أم الاسلامية ، وشهدت الفترة ذاتها مدارس مختلطة ضمت أبناء من المسلمين والصليبيين ومن المولدين . وقد قام هذا الجيل بدور نشط في نقل التراثين الغربي والشرقي ، كما كان له دور بارز في الحياة الاجتماعية والعلمية والسياسية ، وشهدت فترة الحروب الصليبية تنوعاً في المدارس في الامارات الاسلامية ، ومنها مدارس تدريس الفقه الاسلامي ، تخصص معظمها لتدريس فقه مذهب واحد من المذاهب الأربعة : الشافعي ، المالكي ، الحنفي ، والحنبلي . وكانت أكثر المدارس في بلاد الشام للحنفية ، ثم للشافعية ثم الحنابلة فالمالكية . وأنشئت في دمشق وحلب كما في القاهرة مدارس خاصة بالطب^(٢) ، كما كان الطب يدرس الى جانب مواد أخرى

(١) أرنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٥٠ ، ١٥١ .

(٢) يعتبر ابن العبري (المتوفى ٦٨٥ هـ - ١٢٨٦ م) صاحب كتاب : تاريخ مختصر الدول من أشهر المؤرخين والأطباء في ملطية . ومن أطباء ملطية أبو سالم يعقوبي الملطي المعروف بابن كرايا . للمزيد من التفاصيل انظر : د . علي عبد السميع الجزوري : الثغور البرية الاسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى ، ص ١٧٨ - ١٨٢ .

في بعض المدارس. ومن بين هذه المدارس « المدرسة النورية » التي أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي سنة ٥٦٣ هـ. وقد زار هذه المدرسة ابن جبير بعد عودته من الحج، وقد أعجب بفخامتها وبكثرة المدارس في دمشق، ومما قاله: « وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة. ومن أحسن مدارس الدنيا منظراً مدرسة نور الدين رحمه الله، وبها قبره ونوره الله. وهي قصر من القصور الأنيقة، ينصب فيها الماء في شاذروان وسط نهر عظيم، ثم يمتد الماء في ساقية مستطيلة الى أن يقع في صهريج كبير وسط الدار، فتحار الأبصار في حسن ذلك المنظر، فكل من يبصره يجدد الدعاء لنور الدين رحمه الله »^(١).

ويلاحظ بأن بلاد الشام في هذه الفترة كانت متطورة من الناحية العلمية، وكانت مقصد طلاب العلم. وقد أكد ابن جبير ذلك، وطلب من أبناء دياره المغاربة طلب العلم من الشام، ومما قاله: « فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا، فليرحل إلى هذه البلاد، ويتغرب في طلب العلم، فيجد الأمور المعينات كثيرة: فأولها فراغ البال من أمر المعيشة - وهو أكبر الأعوان وأهمها - فإذا كانت المهمة، فقد وجد السبيل الى الاجتهاد، ولا عذر للمقصر، إلا من يدين بالعجز والتسويق، فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب عليه، وإنما المخاطب كل ذي مهمة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من الطلب العلمي. فهذا المشرق باب مفتوح لذلك، فأدخل أيها المجتهد بسلام. وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد... »^(٢).

ومن بين تلك المدارس الشامية وبالذات الدمشقية مدارس: الصادرية، النورية الكبرى، العزيزية، القليجية، الأمينية، التقوية، العادلية، الشامية البرانية، العذراوية، الشريفة، العمرية، الصلاحية، الأشرفية، الوجيهية، ومن مدارس الطب المدرسة الدخوارية، وكانت في الأصل داراً للطبيب عبد الرحيم بن علي الدخوار، وقفها لتكون مدرسة للطب، ووقف عليها ضياعاً وأماكن عدة، يستغل

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٩٨.

(٢) ابن جبير، المصدر نفسه، ص ٢٠٠.

منها ما ينفق في مصالحتها وفي مرتب المدرس ، ومرتبات المشتغلين فيها . وكان أول طبيب درس فيها هو واقفها نفسه عبد الرحيم الدخوار الذي صنف كتباً عدة في الصناعة الطبية ، وقد توفي سنة ٦٢٨ هـ . وكانت هناك مدارس أخرى في حلب وحماه وحمص وحران والقدس^(١) وقد رأى ابن جبير بعض هذه المدارس وتحدث عنها . ومما ذكره عن مدارس حلب حينما زارها عام ٤٨٠ هـ وصفه « مدرسة للحنفية تناسب الجامع حسناً .. وهذه المدرسة من احفل ما شاهدناه من المدارس بناء وغرابة صنعة .. وللبلدة سوى هذه المدرسة نحو أربع أو خمس ولها مارستان .. » .

والحقيقة فإن الظروف العلمية في فترة السلام في العهد الصليبي شهدت ولادة الكثير من العلماء ، ليس في ميدان الفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا فحسب ، وإنما أيضاً في مجالات الرياضيات والفلك والكيمياء وبقية العلوم . ففي الرياضيات مثلاً ألف علي بن خليفة لصاحب بعلبك كتاباً سماه : الموجز المفيد ، كما ألف كتاباً في المساحة ، ووضع نجم الدين اللبودي المتوفى سنة ٦٢١ هـ كتاباً في الحساب سماه : كافية الحساب ، كما ألف نجم الدين كتاباً في الجبر والمقابلة سماه : الرسالة الكاملة ، واختصر في الهندسة كتاب إقليدس . ووجد مهندسون بارعون منهم ابراهيم بن غنائم المصري باني المدرسة الظاهرية في دمشق . أما الكيمياء ، فقد شهد عصر الحروب الصليبية رجالاً كانوا يدرسونها ، ويقومون بتجارها ، بهدف تحويل المعادن الخسيسة الى الذهب . وقد اهتدى بعض العلماء المسلمين الى اختراعات حربية ، كذاك الاختراع الذي أحرق أبراج الأفرنج على أبواب عكا . وأشهر عالين في الرياضيات والكيمياء كانا من طبقة الأطباء وهما : نجم الدين بن اللبودي المولود في حلب وبلمظفر نصر بن محمود . ومن الأطباء الذين توزعوا ما بين

(١) أحد أحد بدوي : الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ص ٦١ - ٦٩ .
للمزيد من التفاصيل الوافية يمكن العودة الى الدراسة المتخصصة التي أصدرها الدكتور حسن شمساني تحت عنوان : مدارس دمشق في العصر الأموي . انظر أيضاً : محمد كرد علي : خطط الشام ، ج ٦ ، ص ٦٦ - ١٢٩ .

أنطاكية وطرابلس والقدس : ميخائيل أسقف حلب اليعقوبي ، وتيودور الأنطاكي طبيب فريدريك الثاني ، وباسيل الحلبي ويعقوب النسطوري الطرابلسي^(١) .

وهناك علماء كثر في الفلك والنجوم والموسيقى والطب . وكان الطب الشرقي أو العربي والإسلامي قد بات طباً متطوراً أخذ الأفرنج عنه الكثير . ومن الأطباء العرب المعروفين في تلك الفترة : مهذب الدين عبد الرحيم بن علي ، الذي طبب الملك العادل من المرض الذي ألمّ به ، واسعد بن الياس ، وابراهيم بن أبي الوحش ، وعدنان بن نصر ، وموسى بن ميمون ، وأبي الحكم المغربي نزيل دمشق . وهناك اطباء وصيادلة كثر مما لا يسمح المجال بذكرهم جميعاً ، علماً أن المؤلفات الطبية كانت عديدة بدورها^(٢) . وقد بلغ الطب المشرقي من التطور ما دعاه للاهتمام بمداواة الحيوانات وهو ما يعرف بالطب البيطري ، وكانت قوانين « المملكة اللاتينية » تنظم حالة الاطباء في الممالك الأفرنجية في البلاد المقدسة ، على غرار ما كان معمولاً به في البلاد الإسلامية ، من ذلك انها لم تكن تسمح لأي طبيب مزاوله المهنة ، قبل أن يؤدي امتحاناً تحت إشراف نقيب أطباء المملكة ، وفي مجلس يرأسه الأسقف .

هذه الجذور العلمية والخلفية الثقافية ، هي التي أدت إلى تطور الطب العربي وتأثر الأفرنج بهذا الطب ، في وقت كانوا يرزحون فيه تحت قيود التقاليد والعادات والمعالجات الوهمية والماورائية . وقد أكد أسامة بن منقذ في كتابه ملامح وشواهد من الطب العربي والطب الأفرنجي ومما قاله عن الطب الأفرنجي^(٣) « ومن عجيب طبهم أن صاحب المنيطرة كتب الى عمي يطلب منه إنفاذ طبيب يداوي مرضى من أصحابه . فأرسل اليه طبيباً نصرانياً يقال له ثابت ، فما غاب عشرة أيام حتى عاد فقلنا له : ما أسرع ما داويت المرضى ، قال : احضروا عندي فارساً قد

(١) للمزيد من التفاصيل انظر : أحمد أحد بدوي ، المرجع السابق ، ص ٢٩٩ - ٣٠٥ .

(٢) انظر : أحمد أحد بدوي ، المرجع السابق ، ص ٣٠٧ - ٣٢٣ .

(٣) أسامة بن منقذ ، المصدر السابق ، ص ١٣٢ - ١٣٣ .

طلعت في رجله دملة وامرأة قد لحقها نشاف، فعملت للفارس لبيخة ففتحت الدملة وصلحت. وحميت المرأة ورطبت مزاجها. فجاءهم طبيب افرنجي فقال لهم: هذا ما يعرف شيء يداويهم. وقال للفارس أيما أحب إليك تعيش برجل واحدة أو تموت برجلين؟ قال: أعيش برجل واحدة، قال: أحضروا لي فارساً قوياً وفأساً قاطعاً. فحضر الفارس والفأس وأنا حاضر، فحط ساقه على قرمة خشب وقال للفارس: إضرب رجله بالفأس ضربة واحدة إقطعها، فضربه، وأنا أراه، ضربة واحدة ما انقطعت. ضربه ضربة ثانية فسال مخ الساق، ومات من ساعته، وأبصر المرأة فقال: هذه امرأة في رأسها شيطان قد عشقها. احلقوا شعرها، فحلقوه. وعادت تأكل من مآكلهم الثوم والخردل. فزاد بها النشاف، فقال: الشيطان قد دخل في رأسها، فأخذ موسى وشق رأسها صلياً وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح، فماتت في وقتها. فقلت لهم: بقي لكم إلى حاجة؟ قالوا: لا. فجئت وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن اعرفه.

وروى أسامة بن منقذ قصة أخرى تبين مدى تأخر الطب الأفرنجي ومما قاله: «ومن عجيب طبهم ما حدثنا به كليام دبور صاحب طبرية، وكان مقدماً فيهم. واتفق انه رافق الأمير معين الدين رحمه الله، من عكا الى طبرية وأنا معه. فحدثنا في الطريق قال: كان عندنا في بلادنا فارس كبير القدر فمرض وأشرف على الموت. فجئنا الى قس كبير من قسوسنا قلنا: تجيء معنا حتى تبصر الفارس فلاناً؟ قال نعم، ومشى معنا، ونحن نتحقق انه إذا حط يده عليه عوفي. فلما رآه قال: اعطوني شمعاً، فأحضرنا له قليل شمع، فليته وعمله مثل عقد الأصبع. وعمل كل واحدة في جانب أنفه. فمات الفارس، فقلنا له: قد مات. قال: نعم كان يتعذب سددت أنفه حتى يموت ويستريح»^(١).

ويلاحظ بأن أسامة بن منقذ كان منصفاً، ففي الوقت الذي أشار فيه الى تأخر الطب الأفرنجي، أشار في مكان آخر واعترف بمهارة بعض أطباء الأفرنج في

(١) أسامة بن منقذ، المصدر السابق، ص ١٣٧ - ١٣٨.

علاج بعض الأمراض ، ومما قاله : « وقد شاهدت من طبهم خلاف ذلك . كان للملك خازن من فرسانهم ، يقال له برناد - لعنه الله - من ألعن الأفرنج وأرجسهم . فرمحه حصان في ساقه فعمّلت عليه رجله وفتحت في أربعة عشر موضعاً . والجراح كلما ختم موضع فتح موضع ، وأنا ادعو بهلاكه . فجاء طبيب أفرنجي ، فزال عنه تلك المراهم وجعل يغسلها بالخل الحاذق . فختمت تلك الجراح وبرأ وقام مثل الشيطان »^(١) . ثم ذكر أسامة حادثة أخرى وقعت لأبي الفتح في شيزر يستفاد منها تقدم الطب الأفرنجي ، كما ذكر حوادث أخرى تشير إلى مدى تقدم الطب الأفرنجي ، وإلى أسماء بعض الأطباء العرب مثل يوحنا بن بطلان من حلب « الطبيب المشهور بالمعرفة والعلم والتقدم في صناعة الطب » ، والطبيب الشيخ أبو الوفاء تميم الذي عالج أسامة بن منقذ نفسه عندما ألم به مرض في شيزر . غير أن أطباء الملك « أمريك الأول » كانوا من السوريين ، ولما عاد للاعتماد على الأطباء الأفرنج ، مرض مرضاً خطيراً ، ثم ما لبث أن توفي^(٢) .

وهكذا يلاحظ من خلال ما أورده أسامة بن منقذ بأن العلاقات العلمية والطبية كانت قائمة في بلاد الشام بين الأفرنج وبين العرب ، وأن المؤثرات المتبادلة بين الجانبين قد ظهرت من خلال حاجات السكان إلى أطباء من العرب أو الأفرنج ، علماً أن الطب الأفرنجي بصورة عامة لم يكن طباً متطوراً أو ناجحاً ، مع الإشارة إلى أن كثيرين من الأطباء الأفرنج قد تأثروا بالطب العربي وبالنوصفات والكتب الطبية العربية التي اطلعوا عليها ، ومنها على سبيل المثال كتاب المالكي لعلي ابن عباس الذي ترجمه ستيفن البيزوي في انطاكية سنة ١١٢٧ م إلى اللغة اللاتينية . والكتاب الآخر هو « سر الأسرار » الباحث في طب العيون والمنسوب لأرسطو حيث ترجم من العربية إلى اللاتينية في انطاكية أيضاً سنة ١٢٤٧ م .

ولما تحدث ابن جبير عن مدارس دمشق ، وبممارساتها (مستشفياتها) وصفه

(١) أسامة بن منقذ ، المصدر السابق ، ص ١٣٤ .

(٢) أسامة بن منقذ ، المصدر السابق ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٥ .

ملاح من تقدم الطب العربي وتحدث عن أحد هذه البيارستانات وكيفية معالجة المرضى فيه ومعاينة الاطباء ومداواتهم، كما تحدث عن البيارستانات الخاصة بالمجانين ومما قاله « وجرايته في اليوم نحو الخمسة عشر ديناراً، وله قومة بأيديهم الأزيمة المحتوية اسماء المرضى، وعلى النفقات التي يحتاجون اليها في الأدوية والأغذية وغير ذلك. والأطباء يبكرون اليه في كل يوم، ويتفقدون المرضى، ويأمرون بإعداد ما يصلحهم من الأدوية والأغذية حسبما يليق بكل انسان منهم.. وللمجانين المعتقلين أيضاً ضرب من العلاج، وهم في سلاسل موثوقون - فعون بالله من المحنة وسوء القدر - وتندر من بعضهم النوادر الظريفة حسب ما كنا نسمع به...»^(١).

كما أشار ابن الأثير وأبو شامة في « كتاب الروضتين » الى هذه البيارستانات في ايام نور الدين لا سيما بيارستان الملك العادل الذي بناه في دمشق « فإنه عظيم كثير الخرج، بلغني أنه لم يجعله وقفاً على الفقراء حسب، بل على كافة المسلمين من غني وفقير... » وأشار الى حادثة جرت معه عندما كان مريضاً فقصد ذلك البيارستان، ومما قاله: « .. فركبت ودخلت البلد وسألت عن طبيب، فدللت على طبيب هذا البيارستان، فأتيته فيه وهو يكتب نسخاً للمرضى الذين به.. سألتني عن حالتي فوصفتها له، فكتب لي نسخة.. فقال: يا مولاي، لا أشك انك في غنى عن هذا، ولكن لا يأنف أحد من صدقة نور الدين وانعامه، والله أن أولاد السلطان صلاح الدين وأهله ليأخذون من الأدوية من هذا البيارستان.. أنه وقف على كافة المسلمين غنيهم وفقيرهم... ».

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٩٨. ويذكر محمد كرد علي عن أحد بيارستانات حلب في: خطط الشام، ج ٦، ص ١٦٠ - ١٦١ ما يلي:

« ان كل مجنون يخص به خادمين يخدمانه فينزعان عنه ثيابه كل صباح ويحمانه بالماء البارد، ثم يلبسانه ثياباً نظيفة ويحملانه على أداء الصلاة ويسمعانه قراءة القرآن يقرأه قارئ حسن الصوت ثم يفسحانه في الهواء الطلق ويسمع في الآخر الأصوات الجميلة والنغمات الموسيقية الطيبة... انظر أيضاً: د. محمد مرسى الشيخ: الامارات العربية في بلاد الشام، ص ٤١٥. للمزيد من التفاصيل عن البيارستانات، انظر محمد كرد علي، المرجع السابق، ص ١٥٦ - ١٦٣.

الفصل الخامس

المؤثرات المعمارية العسكرية والمدنية

الفصل الخامس

المؤثرات المعمارية العسكرية والمدنية

عندما تحدث الرحالة عن بلاد الشام أشاروا الى وجود المنشآت المعمارية من حصون وقلاع ومساجد وحمامات وخانات وقيساريات ورساتيق وشوارع منتظمة ، وذلك قبل قيام الحروب الصليبية أو في اثنائها أو بعدها ونعطي أمثلة موجزة عن هذا الواقع من خلال ما كتبه بعض الرحالة ومن بين هؤلاء المقدسي الذي وصف على سبيل المثال حصص بقوله : « حصص ليس بالشام بلد أكبر منها وفيه قلعة متعالية عن البلد ترى من خارج ... وما كان منها على الساحل حصينة ... »^(١) . أما ابن حوقل فقد وصف مدينة صور بقوله : « مدينة صور من أحصن الحصون التي على شط البحر .. وإن عامة حكماء اليونانية منها » وعن بيروت فقال عنها « وهي مع حصنها حصينة منيعة السور جيدة الأهل » . وعن مدينة حصص قال : « جميع طرق حصص من أسواقها وسككها مفروشة بالحجارة مبلطة » . أما قنسرين ، فكان فيها سور حصين « وكان لها أسواق حسنة وحمامات وفنادق كثيرة ومحال وعراص فسيحة » وكانت طرسوس « وتشتمل من الخيل والرجال والعدة والعتاد والكرراع والسلاح والعمارة والخصب والغلات والأموال والسعة في جميع الأحوال على حال لم يتصل بمثله ثغر من ثغور المسلمين لكافر ولا مسلم ... »^(٢) وكان فيها الفنادق والدور والحمامات والخانات ... وتحدث عن حصن برزويه « وهو حصن حصين

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص ١٥٦. انظر أيضاً ما ذكره عن عكا وصور ...، ص ١٦٢ - ١٦٣.

(٢) ابن حوقل: صورة الأرض، ص ١٦٠، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤ ...

وحجر منيع، وقف عليه الروم غير وقت فاستحسنوه، ولم يتعرضوه، ثم هادنوا أهله خوفاً مما علق ببلاد المسلمين من الخذلان وهلاك السلطان وقلة الإيمان، وإن بقيت الحالة على ما نحن به فالأمر سهل والخوف المتوقع أعظم وأجل...».

وأشار الرحالة ابن جبير المعاصر للحروب الصليبية الى المظاهر العمرانية في بلاد الشام، ومما قاله على سبيل المثال لا الحصر عن عمران مدينة حصص « وأسوار هذه المدينة في غاية العتاقة والوثاقة، مرصوص بناؤها بالحجارة الصم السود، وأبوابها أبواب حديد سامية الأشراف هائلة المنظر، رائعة الإطلال والأنافة، تكتنفها الأبراج المشيدة الحصينة... حصص كلها مارستان». ثم تحدث عن عمائر دمشق ومدارسها ومارستاناتها « وهذه المارستانات مفخر عظيم من مفاخر الإسلام، والمدارس كذلك... وأما الرباطات التي يسمونها الخوانق فكثيرة، وهي برسم الصوفية، وهي قصور مزخرفة، يطرد في جميعها الماء على أحسن منظر يبصر... ولهذه البلدة قلعة يسكنها السلطان... وبهذه البلدة أيضاً قرب مائة حمام... وأسواق هذه البلدة من أحفل أسواق البلاد.. ولا سيما قيسارياتها وهي مرتفعات كأنها الفناديق»^(١)، ثم تحدث ابن جبير عن أبراج صور وعكا والمظاهر العمرانية في مختلف بلاد الشام.

ولما جاء الصليبيون الى بلاد الشام، وأقاموا ممالك لهم فيها، كان من الطبيعي أن يتأثروا بالفن المعماري الإسلامي، فاتخذوا في بناء بيوتهم وقصور الأمراء والملوك منهم الطراز العربي، المنسجم مع مناخ وظروف البلاد فسكنوا في الأبنية ذات الأفنية والإيوانات الفسيحة، تحيط بها الغرف والقاعات وتتوسطها « النوفرة» يتدفق منها الماء وينطلق من النافورة عالياً. كما تأثر الفرنج بفنون الزخرفة المنزلية، فقاموا بتصفيح الجدران والسقوف بالرخام والفسيفساء، وتمويهها بالذهب والألوان المعدنية الأخرى. كما كانت الزخرفة تغطي الجدران

(١) ابن جبير: الرحلة، ص ١٨٢، ٢٠٢. حول القلاع والهندسة المعمارية في بلاد الشام في العهد الصليبي. انظر: محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٥، ص ٢٧٨ - ٢٧٩.

على شكل توريقات وتكوينات هندسية تعرف بالأرابسك (Arabesque) .

ثم اتخذ الأفرنج لبيوتهم وقصورهم من الأثاث ما يتلاءم معها ومع الروح الشرقية العربية، فافترشوا الطنافس والسجاد، وزينوا منازلهم بالرياش الفاخر والأواني النحاسية والآنية الزجاجية والخزفية المصنوعة في الساحل الشامي لا سيما صور .

والحقيقة فإن أول ما احتاجه الصليبيون من العماثر، كان ما يتعلق منها بأسباب الدفاع عن أنفسهم، فكان لا بد من الاهتمام بالقلاع وأسوار المدن للحراسة ولاستخدامها كمراكز إدارية عسكرية - مدنية. ثم قاموا بإصلاح بعض العماثر مثل أسوار بيت المقدس التي سبق أن شيدها الفاطميون، وكذلك برج داوود الذي أدخلوا عليه بعض التعديلات والتحسينات. ومن القلاع التي أقامها الصليبيون القلعة التي شيدها ريمونت كونت تولوز عند جبل الحجاج سنة ١١٠٤ لاتخاذها مقراً لقيادته في طرابلس الإسلامية. كما تم في الفترة ذاتها بناء قلاع طبرية وتبنين. غير أن العهد الزاهر لتشييد القلاع إنما بدأ في العقد الثاني من القرن الثاني عشر في عهد بلدوين الثاني، واستمر زمن فولك « فلك » حين أقيم من الحصون الرائعة أمثال قلاع مؤاب وهونين وصهيون ومعقل يهودا والصفافية وبينة. وقد اكتشف الصليبيون أن العمارة الحربية بلغت من التطور في الشرق ما يفوق ما كان موجوداً في الغرب، علماً أن المسلمين سبق لهم واقتبسوا بعض الأنظمة المعمارية عن البيزنطيين. وكانت العمارة البيزنطية - العربية قد تطورت عبر مراحل عديدة، فما كان من الصليبيين إلا أن أخذوا عند استقرارهم في الشرق نظام تلك العمارة المشتركة والتي قام العرب والمسلمون بتطويرها، فأضاف الصليبيون إلى تلك العمارة بعض الملامح المعمارية التي تطلبتها الظروف العسكرية في المنطقة.

هذا وقد لاحظ الصليبيون بأن العمارة الإسلامية لها مميزات كثيرة يمكن الأخذ بها من خلال الأنظمة المعمارية الماثلة في المساجد والقصور والمساكن والحصون والحمامات والأسوار والمدارس. وكانت هذه العمارة قد ابتكرت عناصر عديدة منها العقود متعددة المظاهر والتركيب بعكس العقد الروماني الذي كان نصف

دائري فحسب، ومن تلك العقود الإسلامية: العقد المنفرج والعقد المدبب والعقد المطول والمنفرج والمنبعج والمنبطح وسوى ذلك من الخطوط الهندسية والدلايات والمقرنصات والصنج المعشقة والمكعبات والمضلعات والنقوش على الجص بواسطة الحفر أو الصب، والنحت والزخرفة على الأحجار أو الأخشاب، والتي تضمنت صوراً للنباتات والحيوانات والطيور وأحياناً صور الإنسان. كما أعجب الصليبيون بالمضلعات النجمية وأشكال التوريق والتوشيح المعروف باسم الأرابسك. كما لفت نظرهم الخط العربي الذي كتب على الجدران بأساليب بارعة ومتعددة شكلت رسوماً آية في الجمال^(١).

ولا بد من الإشارة بأن المؤثرات المعمارية الإسلامية انعكست على الحصون والقلاع والمباني الصليبية التي اقيمت في الشام وفي الغرب. وفيما يلي بعض هذه العناصر المعمارية التي اقتبسها الصليبيون من الشرق وهي:

١ - اقتبس الصليبيون عنصراً زخرفياً متصلاً بالعقد المنفوخ، وهو إحاطة هذا العقد بإطار مستطيل يوضح حدوده ومعالمه، وهو عنصر ابتكرته الهندسة المعمارية الإسلامية التي انتشر استعمالها في بلاد المشرق والمغرب معاً.

٢ - الشرفات البارزة أو « السقاطات »^(٢) وهي من المؤثرات الإسلامية في

(١) في وصف المقدسي لجامع دمشق بعض التفاصيل المعمارية والفنية ومما قاله عنه: « والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم، ولا يعلم لهم مال يجتمع أكثر منه، قد رفعت قواعده بالحجارة الموجهة كباراً مؤلفة وجعل عليها شرف بهية، وجعلت أساطينها أعمدة سوداً ملساً على ثلاثة صفوف واسعة جداً. وفي الوسط إزاء المحراب قبة كبيرة وأدير على الصحن أروقة متعالية بفراخ فوقها. ثم بُلط جميعه بالرخام الأبيض وحيطانه إلى قامتين بالرخام المجزّع. ثم إلى السقف بالفيسفساء الملونة في المذهبة، صور أشجار وأمصار، وكتابات على غاية الحسن والدقة ولطافة الصنعة، وقل شجرة أو بلد مذكور إلا وقد مُثِّل على تلك الحيطان وطلبت رؤوس الأعمدة بالذهب. وقناطر الأروقة كلها مرصعة بالفيسفساء نقوش وطروح. والسطوح كلها ملبسة بشقاق الرصاص، والشرافيات من الوجهين بالفيسفساء. وعلى الميمنة في الصحن بيت مال على ثمانية عمد مرصع حيطانه بالفيسفساء... ومن أعجب شيء فيه تأليف الرخام المجزّع كل شامة إلى أختها... » المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم، ص ١٥٧ - ١٥٨.

(٢) انظر: د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، ص ١٠٩.

العمارة الأوروبية، وكانت هذه الشرفات قد استخدمت للمرة الأولى على بوابة قصر الحيرة الشرقي في بلاد الشام في سنة (١١٠ هـ - ٧٢٩ م)، واستخدمت فيما بعد في بوابة النصر في القاهرة، في سنة (٤٨٠ هـ - ١٠٨٧ م)، ثم استخدمت بكثرة في الحصون الشامية في العصر الأيوبي، ومنها انتقلت إلى أوروبا بواسطة احتكاك الصليبيين بالمسلمين وتأثرهم بالعمارة الإسلامية. ونجد أمثلة من هذا التأثير في فرنسا في قصر « جايار » (Chateau Gaillard) وفي « شاتيون » (Chatillon) وفي إنجلترا في « نورويتش » (Norwich) وفي « ونشستر » (Winchester). ولم تلبث هذه الأنواع من الشرفات أن انتشرت بكثرة في أوروبا في أواخر القرن الثاني عشر وفي القرنين التاليين، الثالث عشر والرابع عشر، ويتجلى ذلك في بوابة حصن « فيلف أفينيون » في فرنسا - (Villeneuve - Les Avignons).

ولقد انتقلت هذه الشرفات أو السقاطات إلى الغرب باسم (Machicoli). وكانت عادة شرفة صغيرة من الحجارة أو الخشب تبرز عن الجدار ولها فتحات من أسفل، وتقام عادة فوق أسوار الحصن وفي أعلى مداخله، فيصبح باستطاعة الجنود من خلال هذه الفتحات إلقاء المقذوفات أو السوائل الكيميائية أو الزيتية الحارة على المهاجمين. وكان المسلمون قد استخدموا السقاطات على نطاق واسع في شمال الشام، ثم ما لبث أن تأثر بها الصليبيون فنقلوها إلى أوروبا.

٣ - المدخل ذي المرافق المتعددة، المتمثلة بالمنحنيات والمنعطفات، وهدفها توفير إمكانيات الدفاع والتحكم في العدو المهاجم من باب الحصن عبر هذه الممرات الضيقة الطويلة. وكان المسلمون قد استخدموا هذا المدخل منذ بناء بغداد في عهد أبي جعفر المنصور العباسي في القرن الثامن الميلادي. واستمر هذا الأسلوب يظهر في مرافق المسلمين المعمارية. وقد بدا واضحاً مدى تأثر الصليبيين بهذا الطراز من الفن المعماري، وطبقوه على القلاع التي أقاموها في بلاد الشام مثل حصن الأكراد الواقع في شمالي شرقي طرابلس الشام.

٤ - المقرنصات (Squinches)^(١) وهو أسلوب من أساليب النظام المعماري الإسلامي ، وكانت أول قبة إسلامية قائمة على مقرنصات معقودة هي قبة المحراب في المسجد الجامع بالقيروان التي بنيت في سنة (٢٢١ هـ - ٨٣٦ م). كما استخدمت في كثير من عمائر المسلمين . والمقرنصات عبارة عن طبقات مصفوفة ببراعة فنية ولا يقصد فيها الزخرفة فحسب ، بل هي ركن هام في الهندسة المعمارية لا سيما في بناء القباب والمآذن . وهي في المآذن تستخدم عادة أسفل دورات المؤذن لإيجاد البروز الذي يتحرك فيه المؤذن . فهي بمثابة الكوابيل التي نشاهدها في أسفل الشرفات لحملها . وتظهر المقرنصات بشكل واضح في مسجد الحمراء في قرطبة وبشكل ملفت للنظر . وقد اعتمدها الصليبيون في بناء قلاعهم وحصونهم وكنائسهم وأبنيتهم عامة . وقد أشار ابن جبير الى هذه المقرنصات عندما تحدث عن جامع حلب فقال : « وقد استفرغت الصنعة القرنصية جهدها في منبره ، فما أرى في بلد من البلاد منبراً على شكله وغرابة صنعته .. »^(٢) .

٥ - المتراس (Portcullis) وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام المعماري الإسلامي ، وهو عبارة عن إطار من الحديد مدبب الأطراف من أسفله ، وهو ينزلق عمودياً في جانبي باب الحصن كالشبكة ويسدل بواسطة سلاسل حديدية أو حبال متينة عند محاولة العدو لفتح القلعة .

٦ - البربقان (Barbican) والبربقان أو البرنجان كلمة عربية فارسية الأصل ، تطلق على البرج الكبير الذي يبنى على مسافة من باب الحصن أو قنطرته المقامة فوق الخندق المليء بالماء والمحيط بالحصن . وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام فطبقوه على قلاعهم في بلاد الشام ، كما نقلوه معهم الى أوروبا . ومما قاله ابن جبير عن نظام الأسوار والخنادق المطبق في قلعة حلب « ... سوران حصينان من الجانب الذي ينظر للبلد ، ويعترض دونها خندق لا يكاد البصر يبلغ مدى عمقه ، والماء ينبع فيه » .

(١) د . أحمد مختار العبادي ، المرجع السابق ، ص ١١٠ .

(٢) ابن جبير : الرحلة ، ص ١٧٩ .

٧ - الأبراج، ولقد عرف المسلمون هذا النظام وطبقوه في عمائرهم العسكرية والدينية، وكانت أبراج الكنائس في طليطلة صورة مطابقة لأبراج ومآذن المغرب والأندلس، وتبين بأن بعض الأبراج الأوروبية بدت كأنها مآذن أندلسية. وكانت قلعة حلب في بلاد الشام من القلاع العسكرية الهامة، وقد تميزت بسورها وتعدد أبراجها، وقد تأثر الصليبيون بهذا النظام في بلاد الشام. ومما قاله ابن جبير عن قلعة حلب: «وشأن هذه القلعة في الحصانة والحسن أعظم من أن تنتهي الى وصفه، وسورها الأعلى كله أبراج منتظمة فيها العلالي المنيفة والقصاب المشرفة، قد تفتحت كلها طبقاناً. وكل برج منها مسكون، وداخلها المساكن السلطانية، والمنازل الرفيعة الملوكية».

ومن المفيد واعتماداً على منهج الدراسة التاريخية المقارنة، كان لا بد من الإشارة الى أوضاع العمارة والمظاهر العمرانية بعد انتهاء الحملات الصليبية وانتهاء الوجود الصليبي في بلاد الشام، وذلك من خلال ما ذكره الرحالة ابن بطوطة في الرحلة التي بدأها ابتداء من السنة (٧٢٥ هـ - ١٣٢٦ م). فقد أشار الى وضع سور مدينة القدس بقوله: «وكان الملك الصالح الفاضل صلاح الدين بن أيوب جزاه الله عن الإسلام خيراً لما فتح هذه المدينة هدم بعض سورها، ثم استنقص الملك الظاهر هدمه خوفاً ان يقصدها الروم فيمتنعوا بها»^(١). أما وضع مدينة عكا حسبما وصفه ابن بطوطة فقال: «فوصلت الى مدينة عكا، وهي خراب، وكانت عكة قاعدة بلاد الأفرنج بالشام ومرسى سفنهم.. ثم سافرت منها الى مدينة صور وهي خراب..» وبعد أن أشار الى مدينتي صيدا وطبريا، وصف مدينة بيروت وأسواقها «ثم وصلت الى مدينة طرابلس، وهي إحدى قواعد الشام وبلدانها الفخام... تملكها الروم زماناً، فلما استرجعها الملك الظاهر خربت..»^(٢)، أما مدينة حلب فقد جاء فيها وصف لقلعتها بقوله: «لها قلعة شهيرة الامتناع بائية

(١) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ١، ص ٧٦.

(٢) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٨١، ٨٢، ٨٣، ٨٧.

الارتفاع، تنزهت حصانة من أن ترام أو تستطاع...»، ثم اكمل وصف ابن جبير لهذه القلعة التي سبق أن أشرنا اليه.

وبعد أن وصف ابن بطوطة حلب وجبله، تحدث عن حصن القصير فقال فيه «هو حصن حسن، أميره علاء الدين الكردي... ثم سافرت الى حصن الشجر بكاس، وهو منيع في رأس شاهق. أميره سيف الدين الطنطاش...»^(١). وبالمناسبة فقد أشار ابن بطوطة الى استمرار العلاقات الطيبة بين المسلمين والمسيحيين بعد انتهاء الحروب الصليبية، ومما قاله: «وبخارج اللاذقية الدير المعروف بدير الفاروص، وهو أعظم دير بالشام ومصر، يسكنه الرهبان، ويقصده النصارى من الآفاق. وكل من نزل به من المسلمين فالنصارى يضيفونه.. وميناء هذه المدينة عليها سلسلة بين برجين...»^(٢) أما حصن المرقب فهو «من الحصون العظيمة يماثل حصن الكرك، وبنائه على جبل شامخ وخارجه ربض ينزله الغرباء، ولا يدخلون قلعته، وافتتحه من يد الروم الملك المنصور قلاوون...»^(٣).

وهكذا يلاحظ استمرار بعض الملامح العمرانية في زمن ابن بطوطة بينما دمر أو خرب البعض الآخر، علماً أن بعض المناطق شهدت تطورات عمرانية تبعاً لتطور الظروف العسكرية والسياسية، أو تبعاً للمقتضيات السكانية.

ويذكر ابن الجيعان المعاصر للمماليك أوضاع بعض القلاع الشامية في عهد السلطان قايتباي الذي اطلع على هذه القلاع خلال رحلته (٨٧٢ - ٩٠١ هـ - ١٤٦٧ - ١٤٩٦ م) ومما قاله عن عمائر وميناء وحمامات اللاذقية «هي بناء عظيم محكم، بها دكاكين كثيرة خراب وعامر، وضع الروم، كان بها ثلاث قلاع متلاصقات، وإلى الآن خراب، وهي واسعة الغناء، عالية البناء، بمينة مستديرة، بها مخازن وبرجان على فوهتها، بها سلسلة عظيمة... ومينتها مستديرة تسع من

(١) ابن بطوطة، تحفة النظار، ج ١، ص ٩٢.

(٢) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٩.

(٣) ابن بطوطة، المصدر نفسه، ج ١، ص ٩٩.

داخل السلسلة سبع مراكب متلاصقة كبار ، وبها حمامات عامرة وخراب .
وأضاف ابن الجيعان بأن المسلمين نقلوا عن الأفرنج بعض الصناعات منها
الطواحين . ومما قاله : « ان باللاذقية طاحوناً تدور مع الريح حيث كان يمينا
وشمالاً ، شرقاً وغرباً ، ويطحن بها على عادة طواحين الفرنج الى الآن ، وإذا
طحنت مستمرة في طول اليوم والليلة تطحن اثني عشر اردباً بالكيل المصري
وعمل الطاحون المذكورة شخص من اللاذقية كان أسر ببلاد الفرنج وشاهدها
عندهم ، ولما خُلصَ وحضر إلى بلده عملها وهي اعجوبة »^(١) .

(١) ابن الجيعان : القول المستظرف في سفر مولانا الملك الأشرف ، ص ٥٨ - ٥٩ . وحول العمارة
الاسلامية الى فترة العهد العثماني . انظر مقالنا : « العمارة في العهد العثماني من خلال سجلات
المحكمة الشرعية في بيروت » في المجلة المعمارية - العدد الأول ١٩٨٥ ، ص ٨٥ - ٨٩ . كلية
الهندسة المعمارية - جامعة بيروت العربية .

الفصل السادس

المفاوضات السياسية والسلمية بين المسلمين والإفرنج

الفصل السادس

المفاوضات السياسية والسلمية بين المسلمين والأفرنج

كان من طبيعة الحروب أن يجري خلالها أو بعدها الاتصالات والمفاوضات السياسية، وقد جرى مثل هذه الاتصالات بين المسلمين والأفرنج خلال الحروب الصليبية في بلاد الشام، وكان لهذه الاتصالات طابع الحدة حيناً، وطابع اللين حيناً آخر. وكانت الاتصالات في إحدى مراحلها عبارة عن تهديدات واتهامات، بينما كانت في مراحل أخرى تعبر عن مدى تفهم الجانبين لبعضهما البعض.

فبعد موقعة حراّن بين الصليبيين والمسلمين في عام ٤٩٧ هـ - ١١٠٤ م وانتصار المسلمين، كان من بين الأسرى بلدوين أف بورج أمير الرها، وجوسلين صاحب تل باشر وبندكت رئيس أساقفة الرها وقد وقعوا أسرى في قبضة جكرمش صاحب الموصل. وبعد حوالي خمس سنوات أي عام ١١٠٩ م أطلق سراح جوسلين الذي سعى لإطلاق سراح بلدوين أف بورج. وكانت الفدية التي تقررت على بلدوين سبعين ألف دينار، فأخذ جوسلين معه ثلاثين ألف وذهب إلى قلعة جعبر ووضع نفسه رهينة مكان بلدوين وأخرجه من سجنه. ولما علم صاحب الموصل بأن جوسلين عاد إلى السجن تعجب وطلب رؤيته واللقاء به لما سمعه عن وقاره وهيبته. فلما رآه صاحب الموصل خفض الفدية عشرة آلاف دينار، فرجع جوسلين ثم سجد على الأرض تعبيراً عن تقديره واحترامه وشكره لصاحب الموصل، فخفض له عشرة آلاف دينار أخرى. وفي اليوم التالي ألتقى صاحب الموصل بجوسلين وطلب منه الركوب على حصانه وإعطاء سلاحه، ثم أعاد له كل

ما قدمه من فدية، فما كان من جوسلين إلا أن جدد شكره، وعاد مسروراً^(١).

وكانت الاتصالات قد استمرت الى عهد صلاح الدين الأيوبي وخلفائه من بعده، ومن بين هذه الاتصالات رسالة امبراطور الروم « ايساكيوس » الى صلاح الدين، تضمنت التحذير من عبور ملك الألمان بجيشه بلاد الروم في طريقه الى بلاد الشام، كما تضمنت المودة القائمة بين الشخصين ومما جاء في هذه الرسالة: « المحبة والمودة، وقد وصل خط نسبك الذي انفذت الى ملكي وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي.. ولا بد لنسبتك أن تهتم بإنفاذ رسول الى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفى.. وما اظن انه سمع نسبك اخباراً ردية. وأنه قد سار في بلاد الألمان، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم... وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادهم. وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون الى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثرة، لا يقدرّون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبك. وبعد ذلك كله العجب كيف نسيت الذي بيني وبينك؟ وكيف ما عرفت للملكي شيئاً من المقاصد والمهمات؟ ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم. ولا بد لنسبتك، كما قد كتبت للملكي في كتابك الذي قد أنفذت إلينا من انفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث، ويكون ذلك بأسرع ما يمكن، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم، فإن إدارهم على قدر نيتهم وآرائهم^(٢).

والأمر الملاحظ في هذه الفترة أن ملك الأرمن كاغيكوس صاحب قلعة الروم

(١) Michael Le Syrian; Chronique, Vol. III, p. 195-196, Ed. chabot 1899-1910

د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين، ٤٩٣ - ٥٣١ هـ، ١١٠٠ - ١١٣٧ م، ص ٣٥، انظر أيضاً: ص ٦٨.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٣٢ - ١٣٣. انظر أيضاً: د. محمد ماهر حادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الاسلامي، ص ١٨٢ - ١٨٣.

الواقعة على أطراف الفرات ، أرسل رسالة إلى السلطان صلاح الدين الأيوبي حذّره فيها وأخبره عن تحركات ونشاطات ملك الألمان ، كما أرسل له عدة تقارير حول التحركات الألمانية في المنطقة . وهذه دلالة على أن ملك الأرمن كان في هذه الفترة من مؤيدي السلطان صلاح الدين ضد الفرنج^(١) .

وبعد معارك عكا وانتصار الصليبيين جرت مفاوضات بين الفرنج وبين صلاح الدين دارت حول فك الأسرى المسلمين مقابل مائة ألف دينار تدفع على ثلاث دفعات . ومما قاله صلاح الدين في رسالته الى ملك الصليبيين في عكا : « أما أن ترسلوا إلينا أصحابنا ، وتتسلموا الذي عيّن لكم في ذلك النجم ، ونعطيك رهائن على الباقي ، تصل إليكم في نجومكم التالية ، وأما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه اليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا » . غير أن الصليبيين لم يتجاوبوا مع مطالب صلاح الدين .

وأثر ذلك جرت مراسلات بين ملك الإنجليز وبين صلاح الدين ، أوردها ابن شداد في « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » وقد طلب ملك الإنجليز الذي احتل عكا عقد اجتماع للتفاهم مع السلطان صلاح الدين ، فما كان من الأخير إلا أن أرسل إليه رسالة حدد فيها مفاهيم وقواعد الاجتماع ومما قاله : « الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة ، وما يحسن منهم الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة ، وإذا أراد ذلك فلا بد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة ، ولا بد من ترجان نشق فيه في الوسط ، يفهم كل واحد منا ما يقوله الآخر . فليكن الرسول بيننا ذلك الترجان فإذا أسفرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى »^(٢) . وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين عبر الملك العادل شقيق صلاح الدين . وفي إحدى رسائل ملك الإنجليز عرض الصلح على المسلمين ، ومما قاله لصلاح الدين عبر الملك العادل : « إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت البلاد وخرجت من يد

(١) انظر : ابن شداد : النوادر ، ص ١٢٤ - ١٢٦ .

(٢) ابن شداد : النوادر ، ص ١٦٣ .

الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه، ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب، فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم».

فما كان من صلاح الدين الأيوبي إلا أن رد على هذه الرسالة بقوله: «القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها ما دام الحرب قائماً... ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها»^(١).

فما كان من الملك الإنجليزي إلا أن أرسل رسالة أخرى إلى صلاح الدين تضمنت ضرورة التفاهم على تقسيم البلاد بينه وبين الملك العادل، ومما قاله: «إني أحب صداقتك ومودتك، وإنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك، فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه، ولا بد أن يكون لنا علة بالقدس الشريف.. ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين، وتقسم البلاد بيني وبينه، ولا عليّ لوم من الأفرنجية»^(٢). وأردف الملك الإنجليزي هذه الرسالة برسالة أخرى حول القدس وتقسم مناطق النفوذ بطريقة سلمية وقال: «أنا قد وافقنا على مقاسمة البلاد، وإن كل من في يده شيء فهو له، فإن كان ما في أيدينا زائداً، أخذتم في مقابلته ما يقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان ما في أيديكم أكثر فعلنا كذلك، ويكون القدس لنا، ولكم فيه الصخرة»^(١). ومما قاله لصلاح

(١) ابن شداد: النوادر، ص ١٩٤.

(٢) ابن شداد، المصدر نفسه، ص ٢٠٢.

الدين في رسالة أخرى « .. والأصلح حقن الدماء ، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني ، بل المصلحة .. » .

هذا وقد استمر الملك الإنجليزي في مفاوضاته ومراسلاته مع صلاح الدين مبدئياً ضرورة إحلال السلام في المنطقة ، ومما قاله في إحدى رسائله : « لا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم . وهذا ابن اختي الكندھري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشنق سمعوا وأطاعوا . أن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طالبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو اعطيتني مفرعة أو خربة لقبلتها وقبّلتها » ^(٢) .

والحقيقة فإن القدس كانت من أهم الموضوعات الدينية والعسكرية والسياسية التي تضمنتها المفاوضات بين الجانبين . وقد أشار رسول ملك الإنجليز في رسالته إلى صلاح الدين بقوله : « إن الذي اطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون رجلاً ، وإن من سكن من النصارى والأفرنج لا يتعرض إليهم . وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطأة والبلاد الجبلية لكم . وأخبرنا الرسول من عند نفسه مناصحة أنه قد نزل عن حديث القدس ما عدا الزيارة ، ولكن يقول ذلك لضعفنا وأنهم راغبون في الصلح ، وأن الانكثار لا بد له من الرواح إلى بلده » ^(٣) وقد أرفق الملك مع هذه الرسالة هدية .

هذا وقد أبدى صلاح الدين تجاوباً مع العروض الأفرنجية حول السلام ، فقد جاء في رسالته إلى ملك الإنجليز : « إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول ، فما جزاء

(١) ابن شداد ، النوادر ، ص ٢٠٥ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٢١٨ - ٢١٩ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٧٧ .

الإحسان إلا الإحسان. ابن اختك يكون عندي كبعض أولادي، وسيلغك ما أفعل في حقه من الخير، وأنا اعطيك أكبر الكنائس وهي القيامة، وبقية البلاد نقسمها، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا. وما بين العاملين تكون مناصفة، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم، وإن أردتم قراها تكون لكم، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان»^(١). وقد جاءه رد بموافقة الملك الإنجليزي على هذه المقترحات، غير أن صلاح الدين اشترط شرطاً حول القدس وهو أنه ليس للأفرنج حق السيطرة عليها، باستثناء السماح لهم بزيارتها. وقد وافق الملك الإنجليزي على ترك القدس كلية، وأفراغها أيضاً من الرهبان والقساوسة باستثناء كنيسة القيامة، وبذلك «يكون الصلح عاماً... وينتظم الحال ويروح.. وإن لم ينتظم الصلح، فإن الفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم».

وفي سنة ٥٨٨ هـ - ١١٩٢ م عقد صلح الرملة بين السلطان صلاح الدين الأيوبي والافرنج بعد معارك في مناطق عديدة. وقد أشار المقرئزي إلى هذا الصلح بقوله: «... وعقدت هدنة عامة في البر والبحر... على أن يكون للفرنج من يافا إلى صور وطرابلس وانطاكية ونودي في الوطاقات وأسواق العسكر؛ ألا أن الصلح قد انتظم فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل. وكان يوم الصلح مشهوراً عمّ فيه الطائفتين الفرح والسرور، لما نالهم من طول الحرب. فاختلفت عسكر الفرنج بعسكر المسلمين، ورحل جماعة من المسلمين إلى يافا للتجارة، ودخل جلق عظيم من الفرنج إلى القدس بسبب الزيارة، فأكرمهم السلطان ومدّ لهم الأطعمة وباسطهم. ورحل ملوك الفرنج إلى ناحية عكا، ورحل السلطان إلى القدس...»^(٢).

وبعد فترة جرت مراسلات بين الجانبين، تضمنت مدى الخلاف الواقع حول

(١) ابن شداد، المصدر السابق، ص ٢١٨ - ٢١٩.

(٢) المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ١١٠.

عسقلان وما يجاورها ، وحول الصلح مع انطاكية . واستمرت المفاوضات بين مد وجزر ، فما كان من صلاح الدين إلا أن هاجم يافا وأوشك إسقاطها ، فاضطر ملك الإنجليز الى التدخل مجدداً لدى صلاح الدين متوسلاً الصلح ، ومما قاله : « بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا امر لا بد له من آخر ، قد هلكت بلادني وراء البحر ، وما دام هذا لا مصلحة لنا ولا لكم » . ثم استمرت المفاوضات السابقة بين الجانبين حول قضية عسقلان ومن سيحكمها .. فرفض صلاح الدين التنازل عن عسقلان ، فما كان من الملك الإنجليزي إلا أن قال : « لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني ، وأنا كنت أحرص حتى أعود الى بلادني .. »^(١) ، ومما اقترحه للملك العادل حول الصلح المقترح ، اعطاؤه عسقلان « فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية » . غير أن صلاح الدين لما علم بأمر هذا العرض رفضه وقال لأخيه : « إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم » . ثم انتهت الأمور الى احتلال المسلمين لعسقلان .

وكثيراً ما التجأ قادة الافرنج الى صلاح الدين لحمايتهم من ظلم جماعتهم . ومن بين هؤلاء « المركيس » صاحب صور الذي التجأ ليلاً وزوجته هرباً من الأفرنج . ويقول ابن شداد في « النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » أن صاحب صور « أخلد الى السلطان والاعتضاد به . وكان في ذلك مصلحة للمسلمين لانقطاع المركيس عن الافرنج فإنه كان أشدهم بأساً ، وأعظمهم للحرب مراساً ، واثبتهم في التدبير أساساً . وحيث اتصل خبر وصول هذا الرسول بالسلطان أمر بإجلاله واحترامه . فضربت خيمة وضرب حولها شقة ووضع فيها من الطرح والفرش ما يليق بعظائهم وملوكهم وأمر بإنزاله في الثقل يستريح ثم يجتمع به »^(٢) .

وبعد أن وصل الى صلاح الدين من بيروت خمسة وأربعون أسيراً من الافرنج ، وتحادث السلطان مع شيخ هرم من بينهم ، وسأله عن سبب مجيئه الى

(١) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، ج ٤ ، ق ٢ ، ص ٨١ .

(٢) ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ١٥٧ .

بلاد الشام، فرد الافرنجي قائلاً: « وإنما خرجت بقصد كنيسة القيامة لأظفر بالحج المبرور ». فما كان من السلطان إلا أن رقى له ومنّ عليه بإطلاق سراحه، « وقد أخرجه من ذل الرق الى عز العتاق. ورده إلى الفرنج راكباً على فرس، ولم ير قتله ولا أسره، حيث رأى نفساً مرتبهة بنفس ». كما منع السلطان بعض الشبان من قتل بقية الأسرى ولما سئل عن سبب ذلك قال: « لئلا يجترئوا من الصغر على سفك الدم »^(١).

وبعد احتلال المسلمين لعسقلان ويافا عقد الصلح مع الافرنج وصور صلاح الدين وضع الافرنج بعد الهزيمة في رسالة أرسلها الى العزيز قال فيها: « .. واقتنعوا بيافا وعكا وصور، واستبدلوا من تطاولهم وقدرتهم العجز والقصور، ورأوا عزهم في ذلم، وصونهم في بذلم، وسلامتهم في سلمهم وغناهم في عدمهم، ولانوا بعد الاشتداد ودانوا للانقياد، وهانوا بعد الاعتزاز .. مدة الهدنة التي أخذوا بها اليد وأعطوا اليمين: ثلاث سنين وثمانية أشهر .. ولقد كان الخادم للمسلم متكرها، ولا يرى أن يكون كشيمة ملوك العصر عن الغزو مترفها، ولكنه اجمع من عنده من الأمراء وذوي الآراء على أن المصلحة في المصلحة راجحة، وأن صفة الكفر فيها خاسرة، وصفقة الإسلام راجحة. وأن في إطفاء هذه الجمرة، وقد وقدت، سكوناً عاماً وأمناً تاماً، وتفريقاً لجمع الكفار بشمل النصر عليهم ضاماً، فهي سلم انكى من الحرب فيهم، وإنها تقصيههم من هذه الديار بل تنفيهم »^(٢).

وبعد تمام الصلح بين الجانبين أمر المنادي أن ينادي في الوطاقات والأسواق إلى أن الصلح قد انتظم في سائر البلاد « فمن شاء من بلادهم أن يدخل إلى بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل إلى بلادهم فليفعل ... إن طريق الحج قد فتح من الشام ... ».

(١) الأصفهاني: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٤٧١.

(٢) الأصفهاني، المصدر نفسه، ص ٦٠٦ - ٦٠٩.

وكان أمير انطاكية قد أظهر المودة والسلام لصالح الدين الذي استقبله استقبالا لائقاً وقد وصف الاصفهاني هذا اللقاء بقوله: «إن الابرنس الانطاكي قد وصل الى الخدمة، مستمسكاً بجبل العصمة، داخلاً حكم الذمة... وإذن للابرنس في الدخول، وشرفه في حضرته بالمشول، وقربه وآنسه، ورفع مجلسه. وأظهر له البشاشة والهشاشة... وكان معه من مقدمي فرسانه أربعة عشر بارونياً... أجزل له ولهم العطاء، وأبدى بهم الاعتناء... وانصرف المذكور مسروراً، بين أسرته مذكوراً، محبوباً بالمنح والمنن محبوباً»^(١).

وفي العام ٦٢٦ هـ - ١٢٣٠ م، بدأت المفاوضات بين امبراطور صقلية فريدريك الثاني وبين الملك الكامل، ودارت حول قضية القدس^(٢). والمعروف عن فريدريك الثاني انه كان ضد الحملات الصليبية الى المشرق، وعرف عنه صلاته الحميمة مع المسلمين - وقد فصلنا ذلك في دراستنا السابقة عن صقلية - وقد طلب في إحدى رسائله إلى الملك الكامل عدم إحراج موقفه أمام البابا والافرنج، وسأله إذا كان يوجد إمكانية لتسليم القدس مقابل دفع دخلها للملك الكامل، ومما قاله: «اني عتيقك، وتعلم إني أكبر ملوك الفرنج، وأنت كاتبتي بالمجيء، وقد علم البابا والملوك باهتمامي، فإن رجعت خائباً انكسرت حرمتي. وهذه القدس فهي أصل دين النصرانية، وانتم قد خربتموها، وليس لها طائل، فإن رأيت أن تنعم علي بقصبة البلد ليرتفع رأسي بين الملوك، وأنا ألتزم بحمل دخلها إليك»^(٣). وكان فريدريك الثاني قد تعهد بتطبيق ما جاء في المعاهدة - التي عقدت فيما بعد - من بنود وقد قيل في ذلك التعهد ما يلي:

زعم الزعيم الانبرور بأنه	سلم يدوم لنا على أقواله
شرب اليمين فإن تعرض ناكثاً	فليأكلن لذاك لحم شماله

(١) الأصفهاني، المصدر السابق، ص ٦١٨.

(٢) انظر: مذكرات جوانفيل، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) انظر: د. محمد ماهر حادة، المرجع السابق، ص ٢٤٧ - ٢٤٨. نقلاً عن: الذهبي، كتاب العبر

في خبر من عبر، ج ٥، ص ١٠٢.

غير أن الملك الكامل امتنع عن تسليم القدس إلا وفق شروط منها « إنه يبقى خراباً، ولا يجدد سوره، وأن لا يكون للفرنجة شيء من ظاهره البتة، بل يكون جميع قراياه للمسلمين، وللمسلمين وال عليها يكون مقامه بالبيرة من عمل القدس من شماليه، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدي المسلمين، وشعار المسلمين فيه ظاهر، ولا يدخلها الفرنجة إلا للزيارة فقط، ويتولاه قوام المسلمين... ». ورأى الملك الكامل « إنه إن شاقق الانبرطور ولم يف له بالكلية ان يفتح له باب محاربة مع الفرنجة، ويتسع الخرق ويفوت عليه كلما خرج سببه، فرأى أن يرضي الفرنجة بمدينة القدس خراباً ويهادنهم مدة، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء »^(١).

ويصف ابن واصل ردود الفعل الإسلامية ضد قرار الكامل بقوله: « لما نودي بالقدس بخروج المسلمين، وتسليم القدس إلى الفرنجة، وقع في اهل القدس الضجيج والبكاء، وعظم ذلك على المسلمين، وحزنوا لخروج القدس من أيديهم. وانكروا على الملك الكامل هذا الفعل، واستشنعوه منه، إذ كان فتح هذا البلد الشريف واستنقاذه من الكفار من أعظم مآثر عمه الملك الناصر صلاح الدين - قدس الله روحه - لكن علم الملك الكامل رحمه الله ان الفرنجة لا يمكنهم الامتناع بالقدس مع خراب أسواره، وإنه إذا قضى غرضه واستتب الأمور له، كان متمكناً من تطهيره من الفرنجة وإخراجهم منه » وقد دافع الملك الكامل عن موقفه بالقول: « إنا لم نسمح لهم إلا بكنائس وآدر خراب والحرم وما فيه من الصخرة المقدسة وسائر المزارات بأيدي المسلمين على حاله، وشعار الإسلام قائم على ما كان عليه، ووالي المسلمين متحكم على رسائيقه واعماله »^(٢).

ويبدو أن فريدريك شعر بما يعانيه الكامل منه من إحراج امام المسلمين. فلما

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ج ٤، ص ٢٤١ - ٢٤٢. انظر أيضاً عن ردود الفعل الإسلامية:

Grousset; op. cit. III, p.300.

(٢) ابن واصل، المصدر نفسه، ج ٤، ص ٢٤٢ - ٢٤٤. انظر أيضاً عن ردود الفعل، ص ٢٤٥ -

٢٤٦. انظر أيضاً: المقرئزي: السلوك، ج ١، ص ٢٣١.

نزل القدس وقام بزيارة المسجد الأقصى ، رأى قسيساً ويده الإنجيل ويهمّ لدخول المسجد ، فما كان من فريدريك إلا أن صرخ في وجه القسيس امام جمهرة المسلمين قائلاً له : « ما الذي اتى بك إلى هاهنا ، والله لئن عاد أحد منكم يدخل إلى هاهنا بغير إذني لآخذت ما في عينيه . نحن ممالك هذا السلطان الملك الكامل وعبيده ، وإنما تصدق عليّ وعليكم بهذه الكنائس على سبيل الإنعام منه ، ولا يتعدى أحد منكم طوره . فمضى ذلك القسيس وهو يرعد خيفة منه . ومضى الانبرطور إلى الدار التي عُيّن نزوله فيها ، فنزل بها » ^(١) في ٦٢٧ هـ - ١٩ آذار (مارس) ١٢٢٩ - وتوج نفسه امبراطوراً في كنيسة القيامة ، ثم قفل عائداً إلى عكا ، ثم ما لبث ان انصرف إلى غربي اوروبة ^(٢) .

ولما توفي الملك الكامل وتولى الحكم ابنه الملك العادل سيف الدين استمرت المراسلات والمفاوضات بين الجانبين وقد عقد اجتماع بين الملك العادل وبين الملك الانجليزي ، وقد ضرب الملك العادل ثلاث خيام ، « أعد فيها كل ما يراد من فاكهة وحلاوة وطعام » . وقد طالت المباحثات بين الملكين انتهت باتفاقهما « ثم افترقا عن موافقة أظهرهما ، ومصادقة قرراها ... » وكان قد وصل صاحب صيداء من صور برسالة المركيس « وإنه يرغب في سلوك نهج التأنيس . وأن يكون للسلطان مصالحاً ، وله على الطاعة مصافحاً ، حتى يقوى يده على ملك الإنكتير [الإنجليز] ويتفرد هو بالملك والتدبير . وعرف ملك الانكتير بالحال ، فوصل رسوله ايضاً بالإحفاء بالسؤال . ومضى العدل مع صاحب صيداء إلى المركيس على شرائط قررت ، ونسخ إيمان حررت » ^(٣) .

(١) ابن واصل ، المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ . المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ .
حول مشكلة تسليم القدس أنظر ايضاً : المقريري : السلوك ، ج ١ ، ص ٢٣١ .

Runciman: History of the Crusades, II, p.169, 184-185.

Wiet; G; L'Egypte arabe. Histoire de la Nation Egyptienne IV, pp.352-355.

Stevenson; The Crusaders in the East, p.314. (٢)

(٣) الأصفهاني : الفتح القسي في الفتح القدسي ، ص ٥٦٠

واستمرت العلاقات السياسية والعسكرية والمفاوضات السلمية في عهد المماليك ، وكان هذا العهد كالعهد الأيوبي ، يتخلله الحرب والسلام بين المسلمين والصليبيين . ففي عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦ هـ ، ١٢٦٠ - ١٢٧٧ م) جرت حروب ومفاوضات مع الفرنج ، ومنها حروبه ومفاوضاته من اجل طرابلس وعكا . فبعد أن نقض الافرنج المعاهدة المعقودة مع بيبرس ، زحف السلطان إلى عكا لإحتلالها ، فما كان منهم إلا أن طلبوا مجدداً العمل بالهدنة السابقة ، ومما قاله في رسالته إليهم : « من يريد أن يتولى أمراً ينبغي أن يكون فيه يقظة .. فأني شيء تعلمون ؟ وماذا تحيطون علماً ؟ ولم لا أعطيتم لوالي غزة الكتاب الذي كنا سترناه لكم بتمكين رسولكم إذا حضر » ^(١) .

ولما تولى شارل حكم صقلية ، تفاوض مع الملك الظاهر بيبرس ، وكانت المفاوضات تدور حول نية الملك شارل بعقد معاهدة تجارية مع دولة المماليك ، وأن يكون نفوذ شارل مقبولاً عند المماليك ، وأن يكون نفوذ بيبرس مقبولاً في صقلية . كما جرت مراسلات بين بيبرس وملك قبرص دارت حول نتائج بعض المعارك العسكرية التي خاضها المسلمون ضد القبارصة ، ولم تخل هذه المراسلات من الحدة والتحدي .

ومن يطلع على القلقشندي يطالع الهدنة المعقودة بين الملك بيبرس وبين مقدمي الاستتارية المسؤولين عن عكا وحصن الأكراد وحصن المرقب وبعض مدن الساحل الشامي . وقد عقدت هذه الهدنة في عام (٦٦٥ هـ - ١٢٦٧ م) ، وكانت مدتها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات . ومما جاء في مقدمتها : « .. على أن جميع المملكة الحمصية والشيزرية والحموية وبلاد الدعوة

(١) المقرئزي : السلوك ، ج ١ ، ص ٤٨٣ . انظر أيضاً رسالة أخرى أرسلها بيبرس للفرنجة حول موضوع قلعة الشقيف انظر : الدواداري : كنز الدرر وجامع الغرر ، ج ٨ ، ص ١٢٥ . وبعد السيطرة على انطاكية انظر الرسالة المميزة التي أرسلها بيبرس الى صاحب انطاكية في المصدر نفسه ، ص ١٢٨ - ١٣١ .

المباركة واقع عليها الاتفاق المبارك ومستقرة لها هذه الهدنة الميمونة بجميع حدود هذه الممالك المعروفة وبلادها الموصوفة وقراها وضياعها وسهلها وجبلها وعامرها وغامرها وفروعها ومعطلها وطرقاتها ومياها وقلاعها وحصونها، على ما يفصل في كل مملكة ويشرح في هذه الهدنة المباركة للمدة المعينة الى آخرها». ولوحظ في هذه المعاهدة، اهتمام الجانبين بالعوامل الاقتصادية التي تتحكم بالجانبين، كتوزيع الغلات الزراعية بينهما مناصفة في المناطق التي حددتها المعاهدة. ومما جاء في خاتمها: «على أن هذه الهدنة تكون ثابتة مستقرة، لا تنقضي بموت أحد من الطرفين ولا بوفاة ملك ولا مقدم الى آخر المدة المذكورة»^(١).

كما جدد بيبرس المعاهدة التي سبق ان عقدها مع ملكة بيروت، التي اعطته الحق بحكم بيروت في حال غيابها عن المدينة. فبينما تضمنت المعاهدة الجديدة التي عقدت سنة (٦٦٧ هـ - ١٢٦٩ م) الاستمرار في الموائيق المعقودة بين الأفرنج وبين الأيوبيين. ومما جاء فيها أيضاً: «ويكون جميع المترددين من هذه البلاد وإليها آمنين مطمئنين على نفوسهم وأموالهم وبضائعهم، من الملكة فلانة وغلماها، وجميع من هو في حكمها وطاعتها: برأً وبحراً، ليلاً ونهاراً، ومن مراكبها وشوانيتها. وكذلك رعية الملكة فلانة، وغلماها يكونون آمنين على أنفسهم وأموالهم وبضائعهم من السلطان ومن جميع نوابه وغلماه ومن هو تحت حكمه وطاعته: برأً وبحراً، ليلاً ونهاراً...»^(٢).

وفي عهد السلطان الملك المنصور قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩ هـ، ١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) استمرت حالات التوتر والحروب والمفاوضات أيضاً بين الأفرنج والمسلمين. وقد عقد قلاوون هدنة مع الملك بوهمند صاحب طرابلس الشام، وذلك في العام (٦٨٠ هـ - ١٢٨١ م) وقد تضمنت ايضاً ضرورة إحلال الأمن والسلام في المناطق المنصوص عنها في الهدنة، والحفاظ على مصالح الرعايا من

(١) القلقشندي: صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٣١ - ٣٩.

(٢) القلقشندي، المصدر نفسه، ج ١٤، ص ٤٠ - ٤٢.

الجانبين^(١). كما عقدت هدنة بين السلطان قلاوون وبين مملكة عكا وصيدا في (٦٨٢ هـ - ١٢٨٣ م) تضمنت عدم التعدي على رعايا الافرنج والمسلمين في مختلف المناطق المنصوص عنها في الهدنة، والحفاظ على سفن التجار من الجانبين. ثم اقسم ملوك عكا وصيدا على احترام الهدنة، ومما جاء في نص القسم الافرنجي: «والله والله والله، وبالله وبالله وبالله، وتالله وتالله وتالله، وحق المسيح... وحق الصليب... وحق الأقاليم الثلاثة... انني من وقتي هذا وساعتي هذه قد أخلصت نيتي وأصفيت طويتي في الوفاء للسلطان المنصور ولولده الملك الصالح ولأولادهما بجميع ما تضمنته هذه الهدنة المباركة... وانني والله وحق ديني ومعبودي اسلك في المعاهدة والمهادنة والمصادقة وحفظ الرعية الإسلامية والمتريدين من البلاد السلطانية والصادرين منها وإليها طريق المعاهدين المتصادقين الملتزمين كف الأذية والعدوان عن النفوس والأموال، وألتزم الوفاء بجميع شروط هذه الهدنة... ومتى خالفته... يكون عليّ الحج الى القدس الشريف ثلاثين حجة حافياً حاسراً، ويكون عليّ فك ألف أسير مسلم من أسرى الفرنج وإطلاقهم...»^(٢).

كما أن الملك المنصور قلاوون أقسم بدوره على تنفيذ ما جاء في هذه الهدنة، ومما قاله في نص القسم: «والله والله والله... وحق القرآن ومن أنزله ومن أنزل عليه وهو محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم... انني أفي بحفظ هذه الهدنة المباركة... وأحفظها وألتزم بجميع شروطها المشروحة فيها... وإن نكثت في هذه اليمين فيلزمني الحج الى بيت الله الحرام بمكة المشرفة حافياً حاسراً ثلاثين حجة، ويلزمني صوم الدهر...»^(٣).

-
- (١) انظر: ابن الفرات، المصدر السابق، ج ٢، ص ٢٠٥ - ٢٠٦.
(٢) د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية، ص ٣٠٦ - ٣١٣، نقلاً عن: ابن عبد الظاهر: كتاب تشریف الأنام والعصور، ص ٣٤ - ٤٢.
(٣) تاريخ ابن الفرات، ج ٧، ص ٢٧٠ - ٢٧٢. من يطلع على مذكرات جوانفيل في اطار المعاهدات بين المسلمين والصليبيين إثر حملة لويس التاسع على مصر عام ١٢٤٨ م، يرى تشابهاً في نصوص القسم عند المسلمين فعندما أقسم الأمراء المسلمون للملك على مراعاة المعاهدة معه =

وفي العام (٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م) توالى عقد المصالحات ، فعقد الملك قلاوون هدنة بينه وبين ملكة صور « مرغريت بنت السير هنري ابن الملك بوهمند » ، وكان لها بنود اقتصادية وسياسية تتعلق بالتجار والمسافرين والمقيمين و حدود المناطق والغلات ، وكيفية دفع الديات بين الجانبين^(١) .

هذه النماذج من العلاقات السلمية والمفاوضات والاتصالات السلمية حثمت انعقادها الظروف العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التي سادت المنطقة سنين طويلة ، فأثرت إيجاباً أو سلباً على القاطنين في بلاد الشام من المسلمين والافرنج ، فاضطرتهم أحياناً الى إحلال السلام ، كما كانت تضطربهم في أحيان أخرى إلى مواصلة القتال . مع الإشارة الى أن طبيعة الحروب تؤدي عادة إلى مفاوضات سلمية وليس بالضرورة الى السلام . ولهذا فقد استمر المسلمون على قناعاتهم بضرورة استرجاع أملاكهم وأراضيهم ، الى أن حققوا ذلك وأجلوا الصليبيين عن بلادهم بعد إقامة استمرت ما يقارب مائتي عام .

وهكذا ، يلاحظ بأن الحروب الصليبية في بلاد الشام ، وما رافقها من علاقات عسكرية وسياسية واجتماعية واقتصادية وعلمية في الفترة الممتدة بين ١٠٩٨ - ١٢٩١ م ، قد اعطت نتائج هامة في ميدان الحرب والسلام ، وفي تاريخ العلاقات الغربية - الشرقية ، والمسيحية - الإسلامية . ويلخص « رنسيان » مفهومه لنتائج الحرب الصليبية فيقول : « إن الحملات الصليبية قد جرى توجيهها لإنقاذ العالم

= قالوا له : « فإنهم يفقدون شرفهم ويصبحون أشبه بالرجل الذي تحمله خطيئته الى أن يحج الى مكة عاري الرأس ... » وبالمقابل فإن الملك أقسم على تنفيذ بنود المعاهدة . للمزيد من التفاصيل انظر : مذكرات جوانفيل : القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ص ١٦٧ - ١٦٩ .

(١) د . محمد ماهر حمادة ، المرجع السابق ، ص ٣١٦ - ٣٢٣ . نقلاً عن : ابن عبد الظاهر : تشریف الانام والعصور ، ص ١٠٣ - ١١٠ . للمزيد من التفاصيل عن نماذج من هذه المعاهدات الى عهد خليل بن قلاوون انظر : كتاب تشریف الانام والعصور بسيرة السلطان الملك المنصور . المكتبة الصقلية ، ص ٣٣٩ - ٣٥٢ .

المسيحي الشرقي من المسلمين ، فلما انتهت الحروب الصليبية أضحى العالم المسيحي الشرقي خاضعا لحكم المسلمين.. أن فترة الحروب الصليبية تعتبر من اهم المراحل في تاريخ المدنية الغربية. فحينما بدأت ، لم تكد أوروبا تخرج من مرحلة غارات المتبربرين الطويلة الأمد ، والتي يطلق عليها العصور المظلمة. فلما انتهت ، كانت براعم ما نطلق عليه النهضة الأوروبية تأخذ في الظهور.. « ويرى « لوبون » في نتائج الحروب الصليبية الشيء الكثير ، ويلخص ذلك ، بقوله : وإذا نظرنا الى الحروب الصليبية من حيث هدفها القريب الذي هو فتح فلسطين رأيناها لم تسفر عن أية نتيجة ، على الرغم مما خسرتة أوروبا في قرنين من المال والرجال ، وقد بقي المسلمون سادة لتلك الأماكن التي أرادت أوروبا الاستيلاء عليها بأي ثمن.. فأما الشرق فكان يتمتع بفضل العرب بحضارة زاهرة ، وأما الغرب فكان غارقاً في بحر من الجهالة والهمجية.. إن تأثير الشرق في تمدن الغرب كان عظيماً بفعل الحروب الصليبية ، وإن ذلك التأثير كان في الفنون والصناعات والتجارة أشد منه في العلوم والآداب... إن الشرقيين هم الذين أخرجوا الغرب من ظلمات التوحش إلى نور الحضارة وانه انبثق من خلال ما كانت تستعين به جامعات أوروبا من علوم العرب وآدابهم عصر النهضة الحديث^(١). ورأى العلامة المتدين مسيو « بارتلمي سان هيلر » (Barthelmy Saint Hilaire) أثر المسلمين والعرب في أوروبا كبيراً وهاماً ومما قاله :

« لقد هذبت طبائع امرائنا الإقطاعيين الخشنة الغليظة في القرون الوسطى بفضل علاقاتهم التجارية بالعرب وتقليدهم لهم ، لقد تعلم أشرافنا وفرساننا رقة العواطف ولين الطبائع وحسن الأخلاق من العرب دون أن يفقدوا شيئاً من شجاعتهم. واني لأشك في أن النصرانية كانت تستطيع وحدها أن تأتي مثل ذلك التأثير مهما يبالغ في كرمها »^(٢)..

(١) لوبون : حضارة العرب ، ص ٣٦٢ - ٣٦٣ وصفحات متفرقة .

(٢) د . سعيد عاشور : المدنية الاسلامية وأثرها في الحضارة الاوربية ، ص ٢١٠ . نقلاً عن :

Barthelmy saint Hilaire; Mahomet et le Coran.

وأوضح العلامة جوستاف فون جروينباوم (Grunebaum) رأيه في مدى أثر الإسلام في أوروبا سواء في إبان فترة الحروب الصليبية أو سواها من الفترات، ومما قاله: «... وعلى حين كان للحروب الصليبية أثر أقوى على الأدب العربي بل وعلى العواطف الشعبية بوجه الإجمال، فمن الجلي أنها أثرت في الفكر الأوروبي والمثل العليا الأوروبية، وكذلك في أنواع الأدب الأوروبي المختلفة تأثيراً أعمق كثيراً وأكثر دواماً»، وأضاف قائلاً: «وليس ثمة ميدان من ميادين الخبرة الإنسانية لم يضرب فيها الإسلام بسهم، ولم يزد ثروة التقاليد الغربية فيها غنى.. وكانت الحروب الصليبية، من كثير من النواحي، أعظم مغامرة أقدم عليها الإنسان في العصور وأبعدها أثراً... قد تركت جميعاً آثارها ببلاد الغرب في القرون الوسطى»^(١).

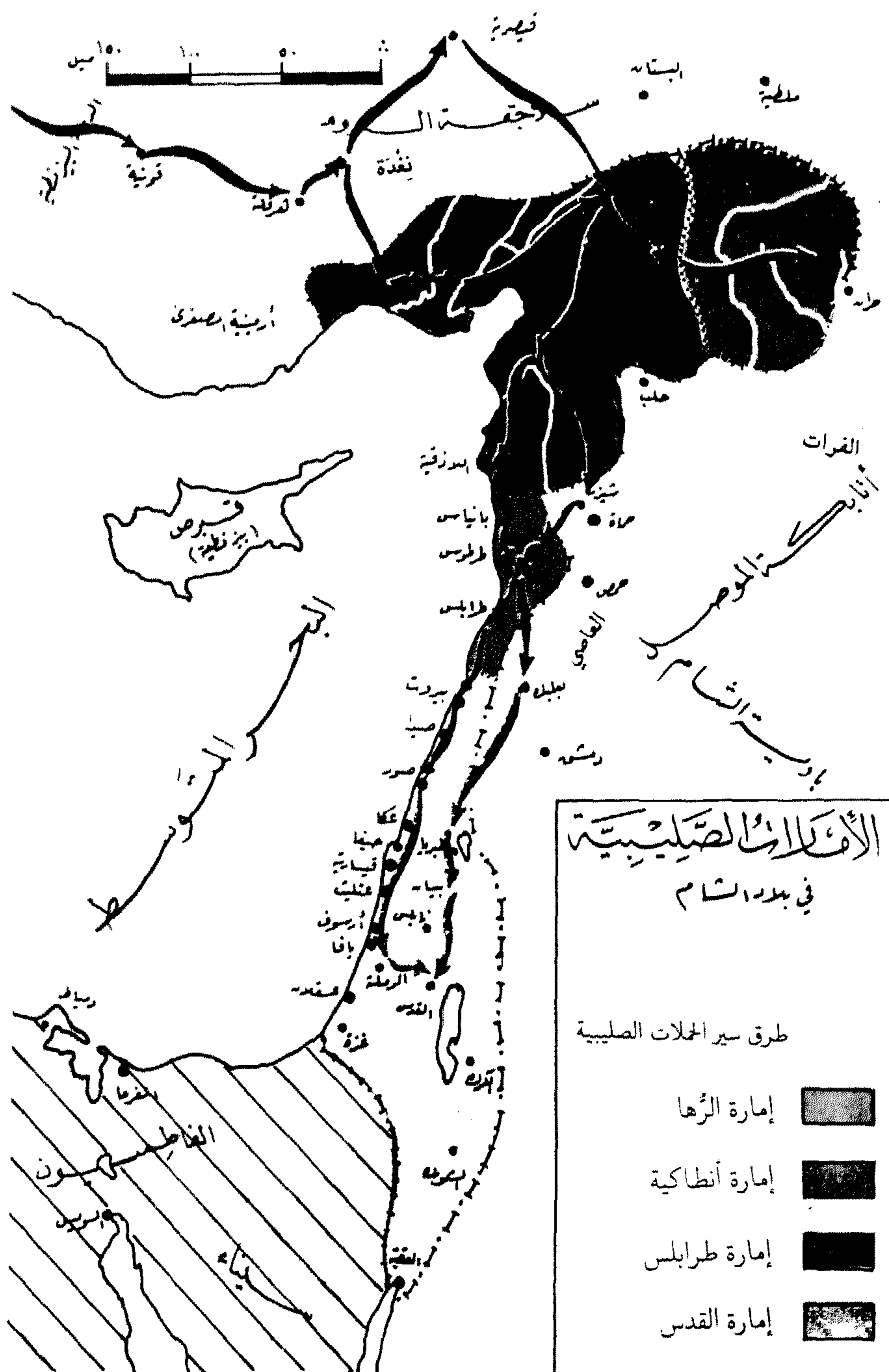
ويكفي ان نختتم هذه الدراسة في قول «لوبون» مبدياً رأيه في دولة الإسلام والعرب ودينهم وثقافتهم وعلومهم وأثرهم على أوروبا، ومما قاله: «إن الأمم التي فاقت العرب تمدنا قليلة الى الغاية، وان ما حققه العرب في وقت قصير من المبتكرات العظيمة لم تحققه امة، وأن العرب أقاموا ديناً من أقوى الأديان التي سادت العالم، ولا يزال الناس يخضعون لها، وأنهم أنشأوا دولة تعد من أعظم الدول التي عرفها التاريخ، وأنهم مدّنوا أوروبا ثقافة وأخلاقاً، وأن الأمم التي سمت سمو العرب وهبطت هبوطهم نادرة، وأنه لم يظهر كالعرب شعب يصلح ليكون مثلاً بارزاً لتأثير العوامل التي تهيمن على قيام الدول وعظمتها وانحطاطها»^(٢).

(١) للمزيد من التفاصيل انظر: جروينباوم: حضارة الاسلام، ج ٢، ص ٥٢ (الأدب والتاريخ)، ص ٣٢٨ - ٣٧٢.

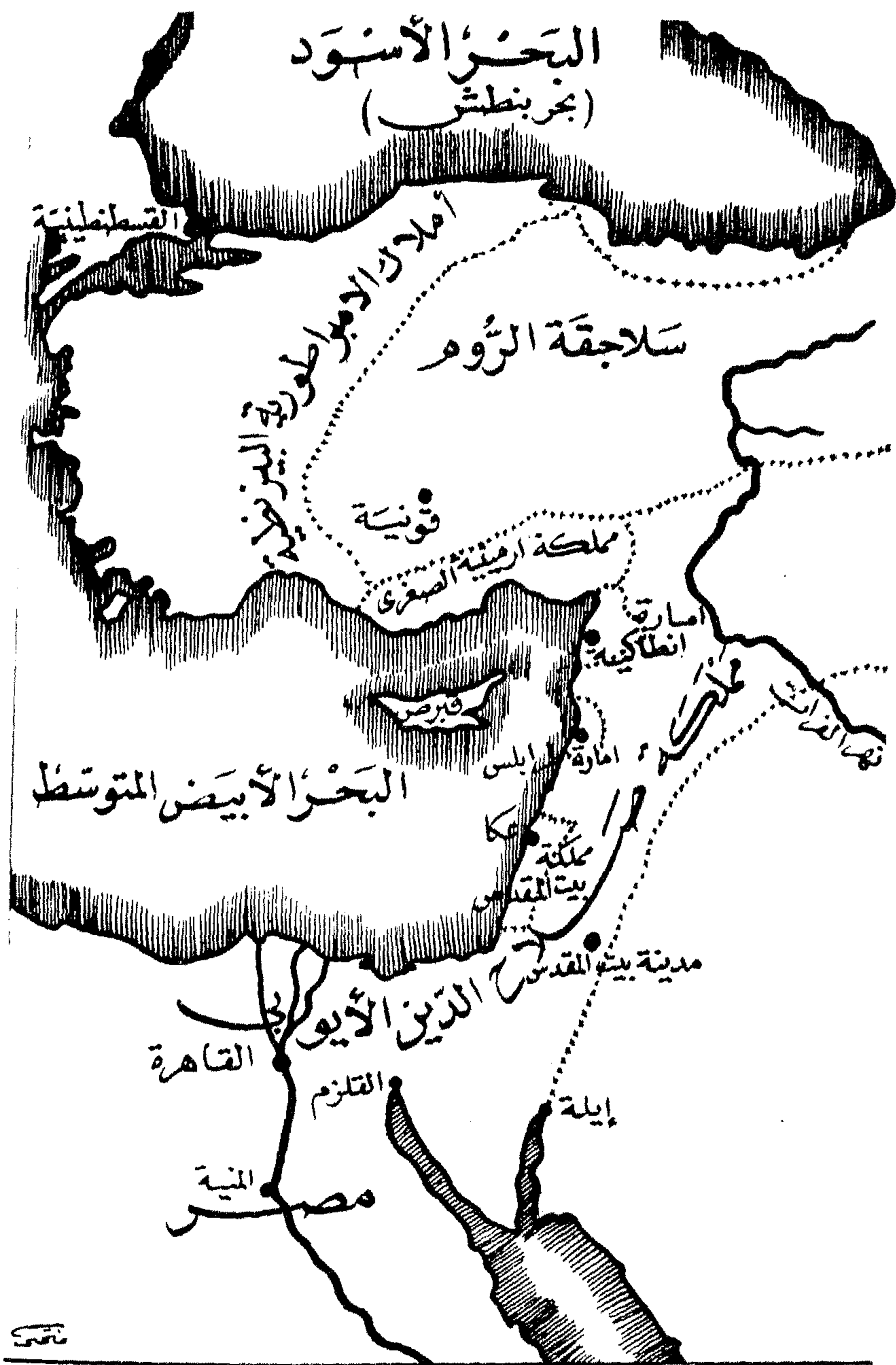
(٢) لوبون: حضارة العرب، ص ٦٤٣. للمزيد من التفاصيل الوافية أنظر أيضاً: الفرد جيوم: تراث الإسلام، ج ١، ج ٢، لجنة الجامعيين لنشر العلم - مصر ١٩٣٦. انظر أيضاً: شاخت وبوزورث: تراث الإسلام، ٣ أجزاء المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت ١٩٧٨.

الخرائط والصور^[*]

(*) هذه الخرائط والصور مأخوذة من : أرنست باركر : الحروب الصليبية ، شوقي أبو خليل : اطلس التاريخ العربي ، محمد العمروسي المطوي : الحروب الصليبية في المشرق والمغرب ، د . عمر تدمري : تاريخ طرابلس السياسي والحضاري . د . السيد عبد العزيز سالم : دراسة في تاريخ مدينة صيدا في العصر الإسلامي ، ملصقات وبطاقات بريدية .



خريطة الامارات الصليبية في بلاد الشام

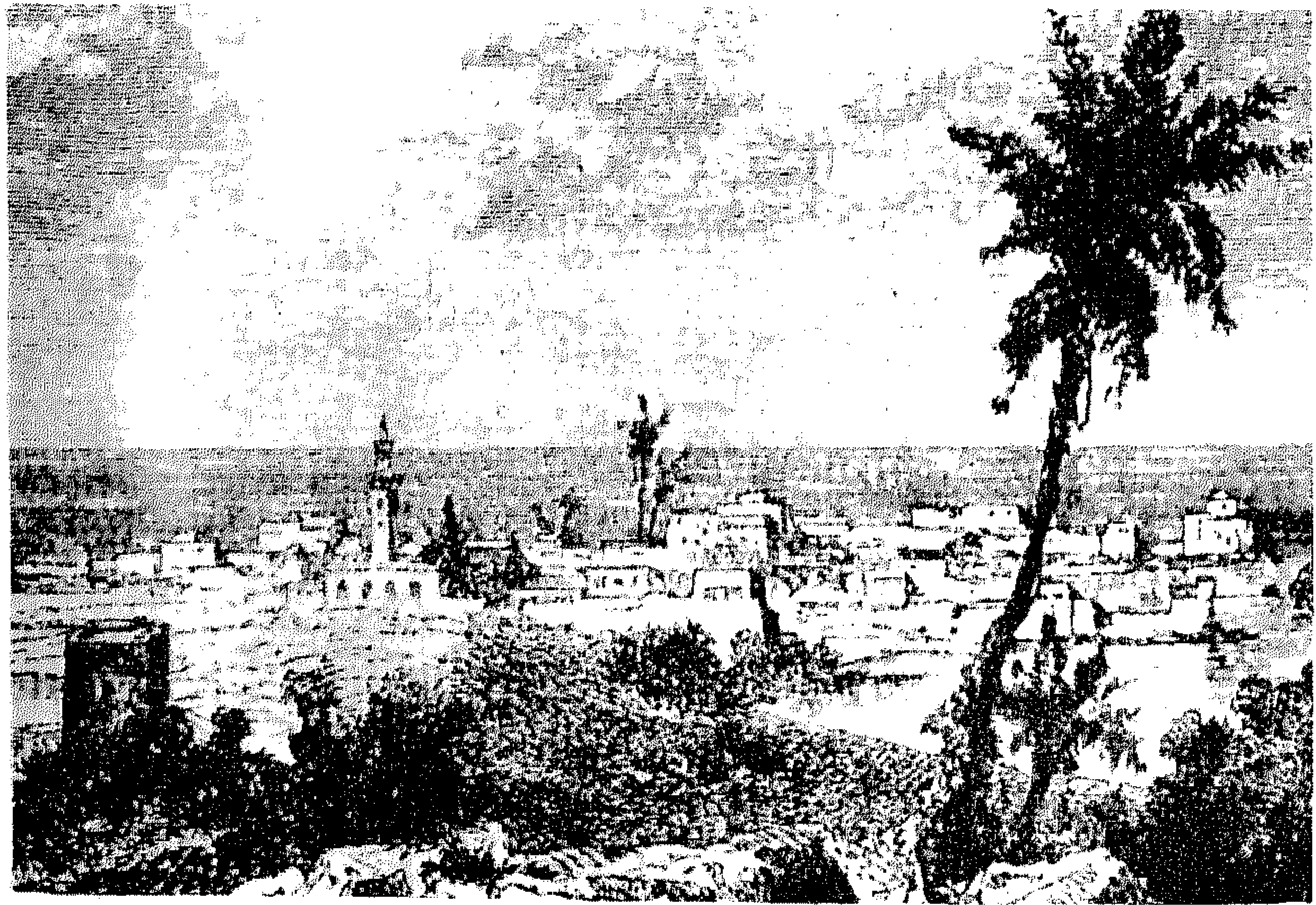


خريطة الإمارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي
بعد الحرب الصليبية الثالثة.

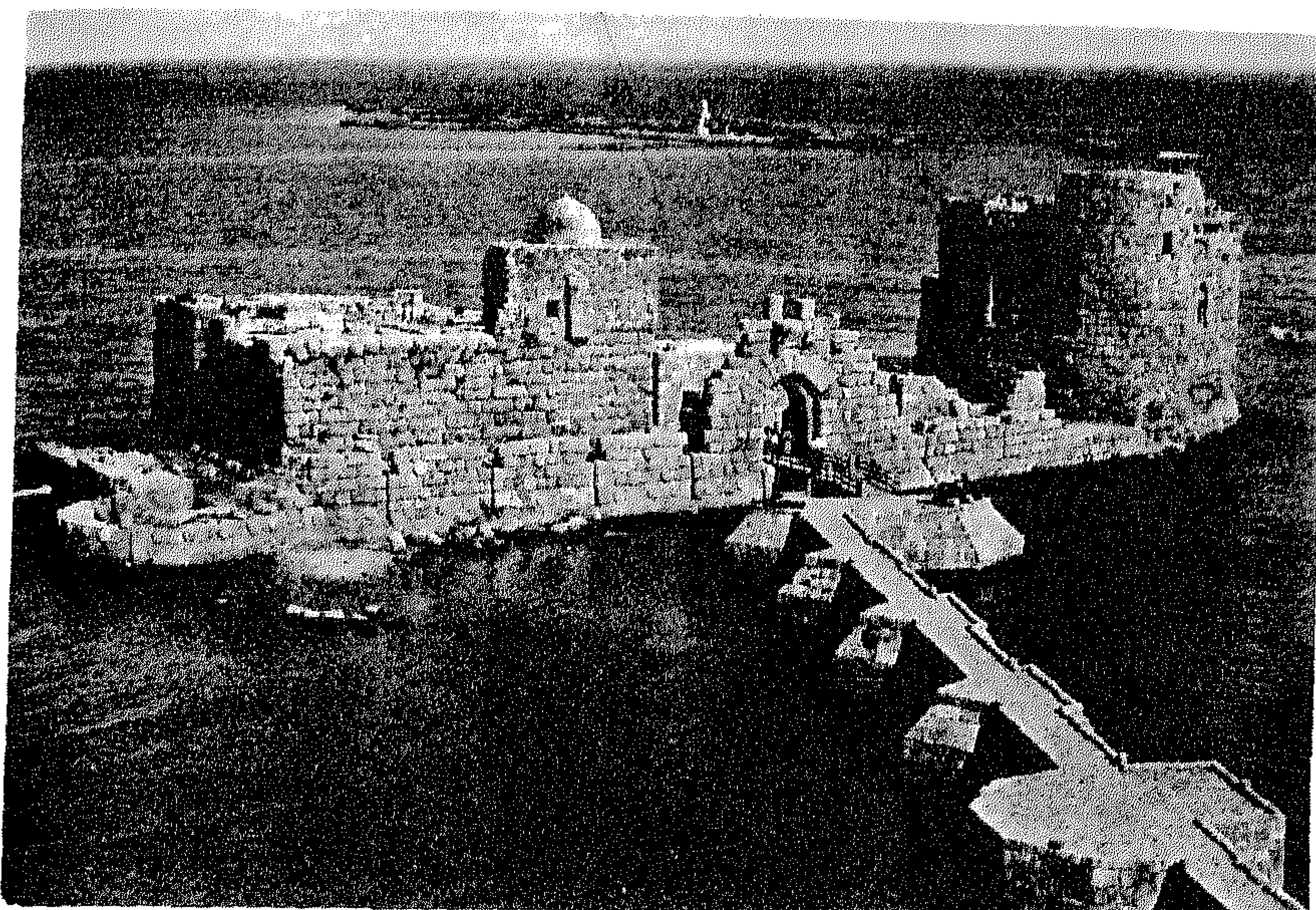
خريطة الإمارات الصليبية ومملكة صلاح الدين الأيوبي بعد الحرب الصليبية الثالثة.



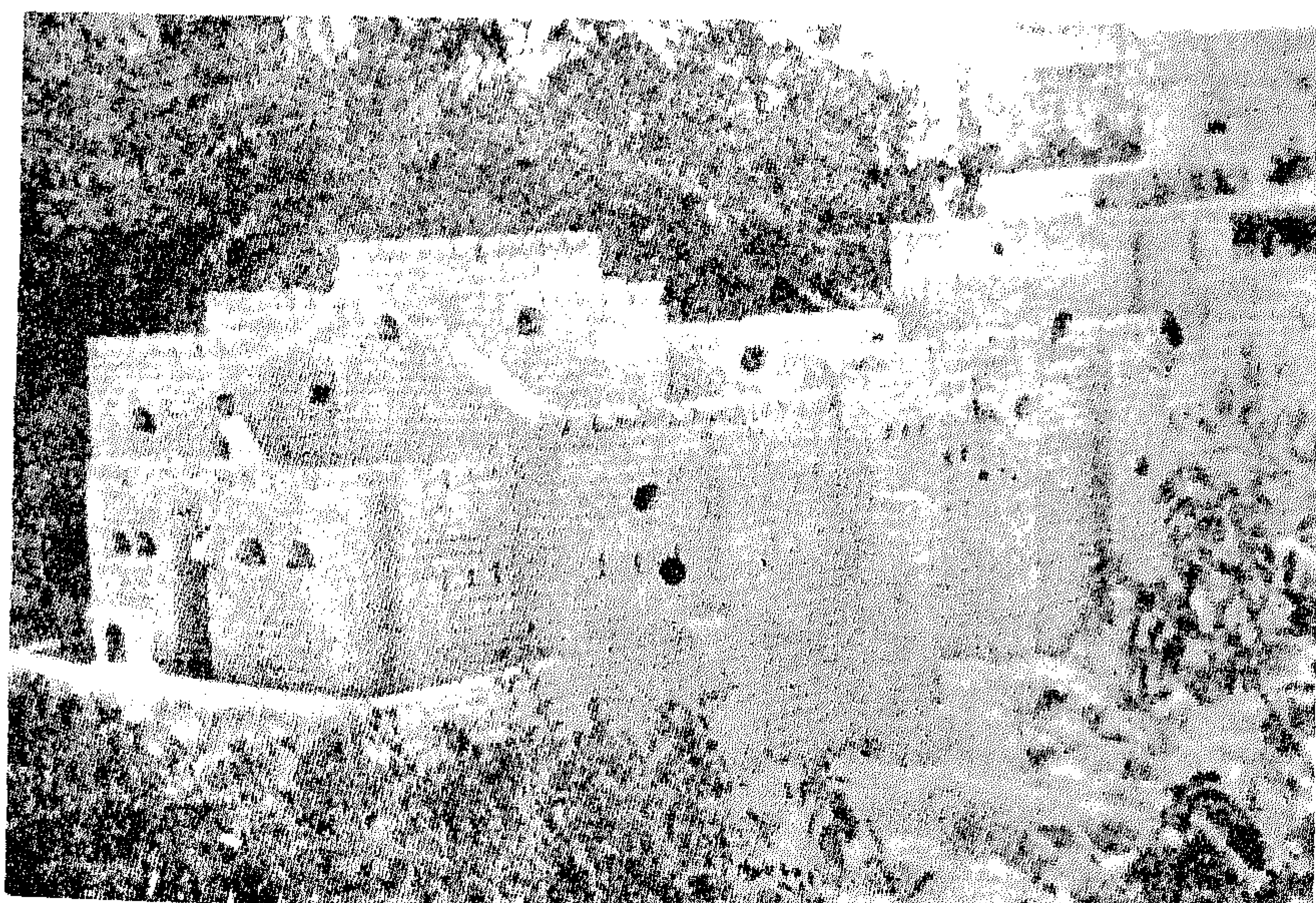
مدينة بيروت



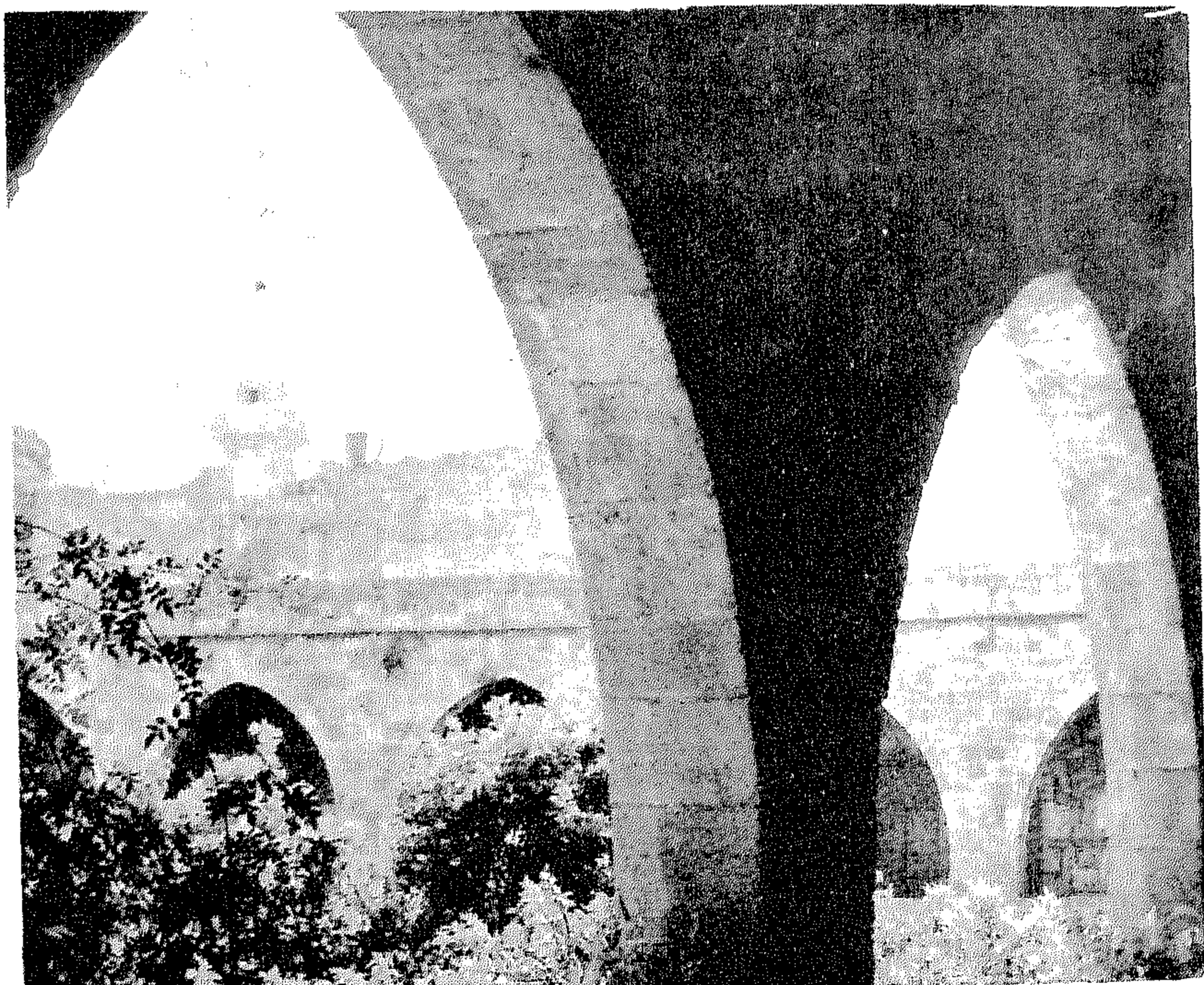
مدينة صور



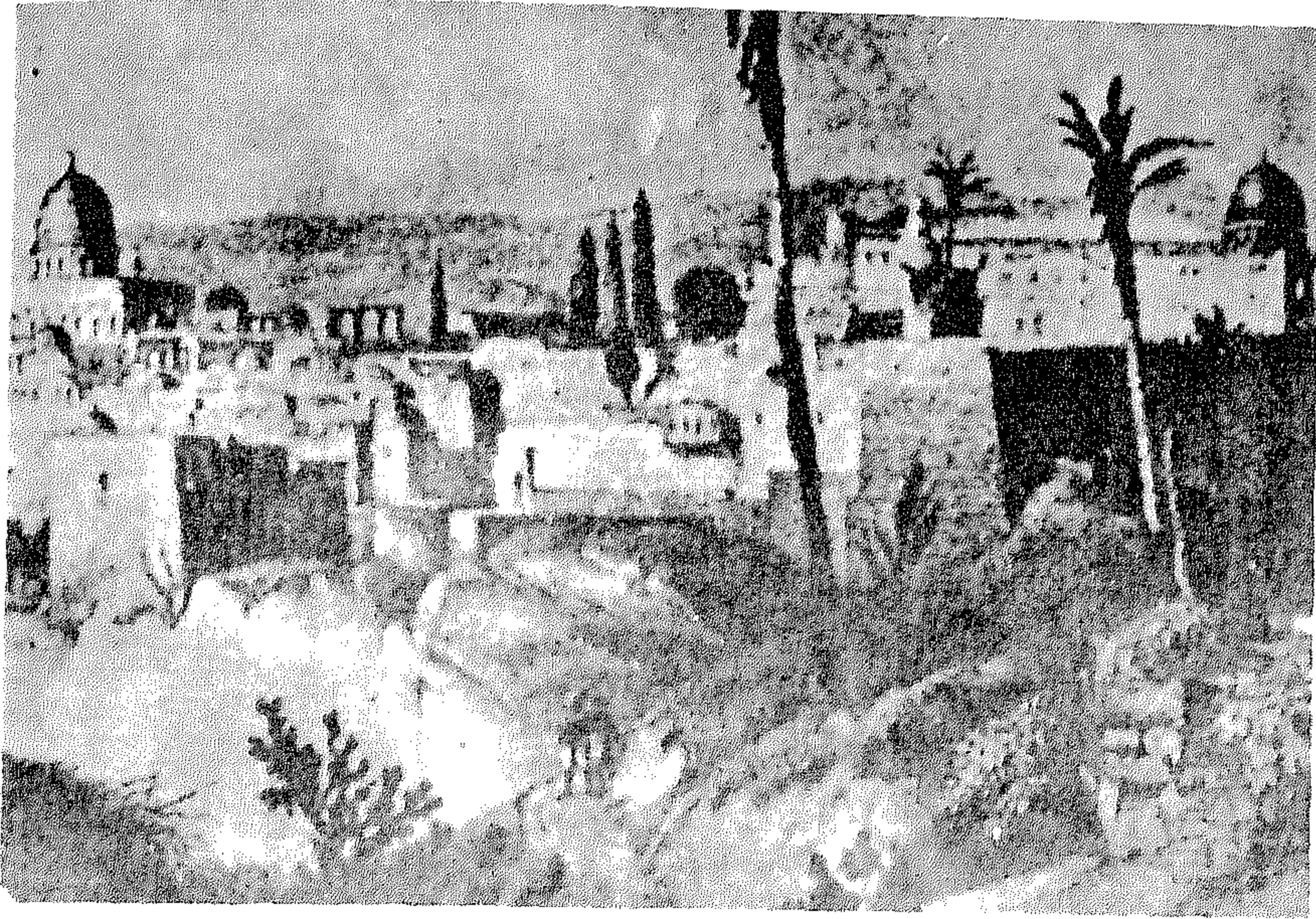
قلعة صيدا



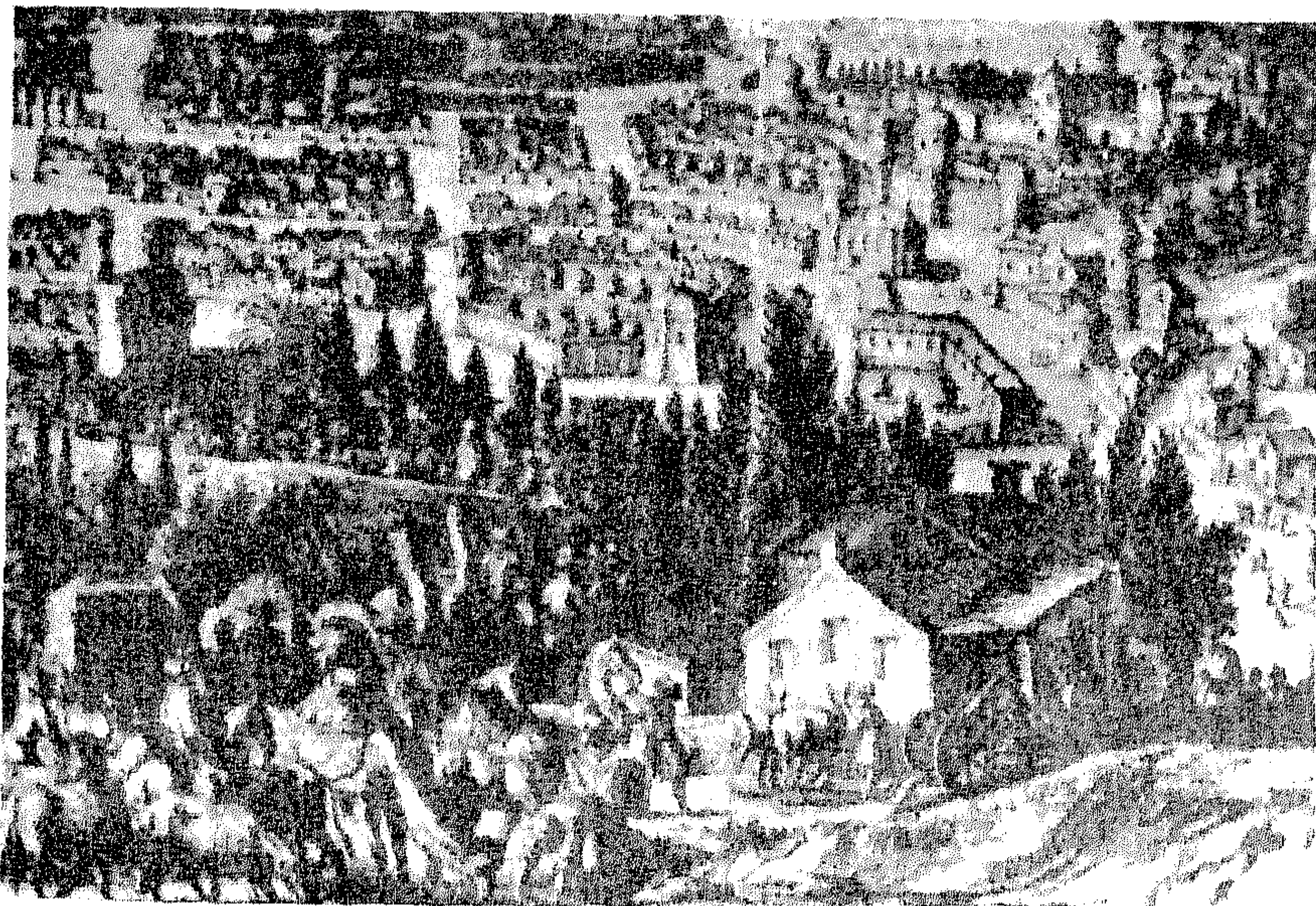
قلعة طرابلس



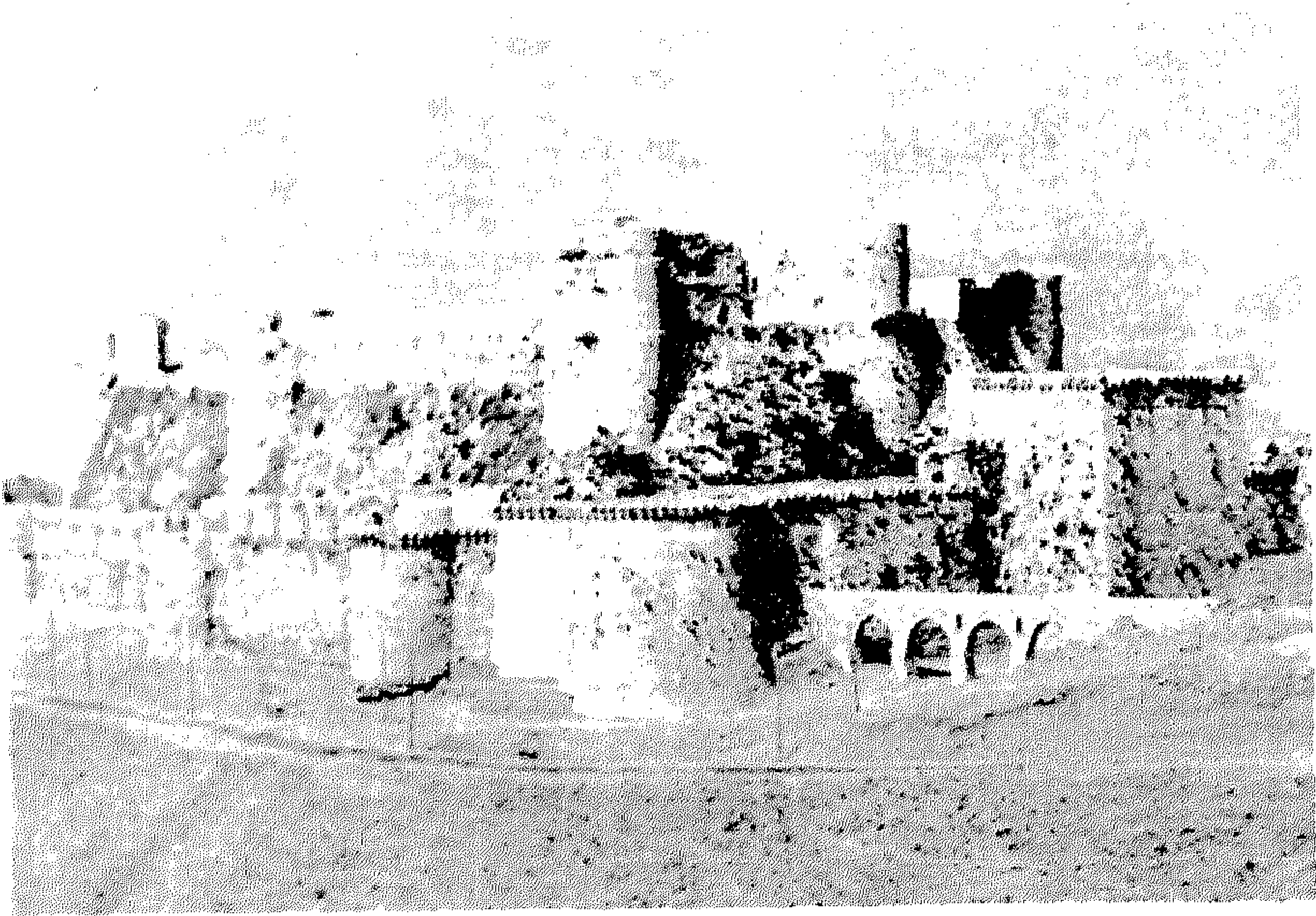
خان الافرنج في صيدا



القدس الشريف



الرملة في فلسطين



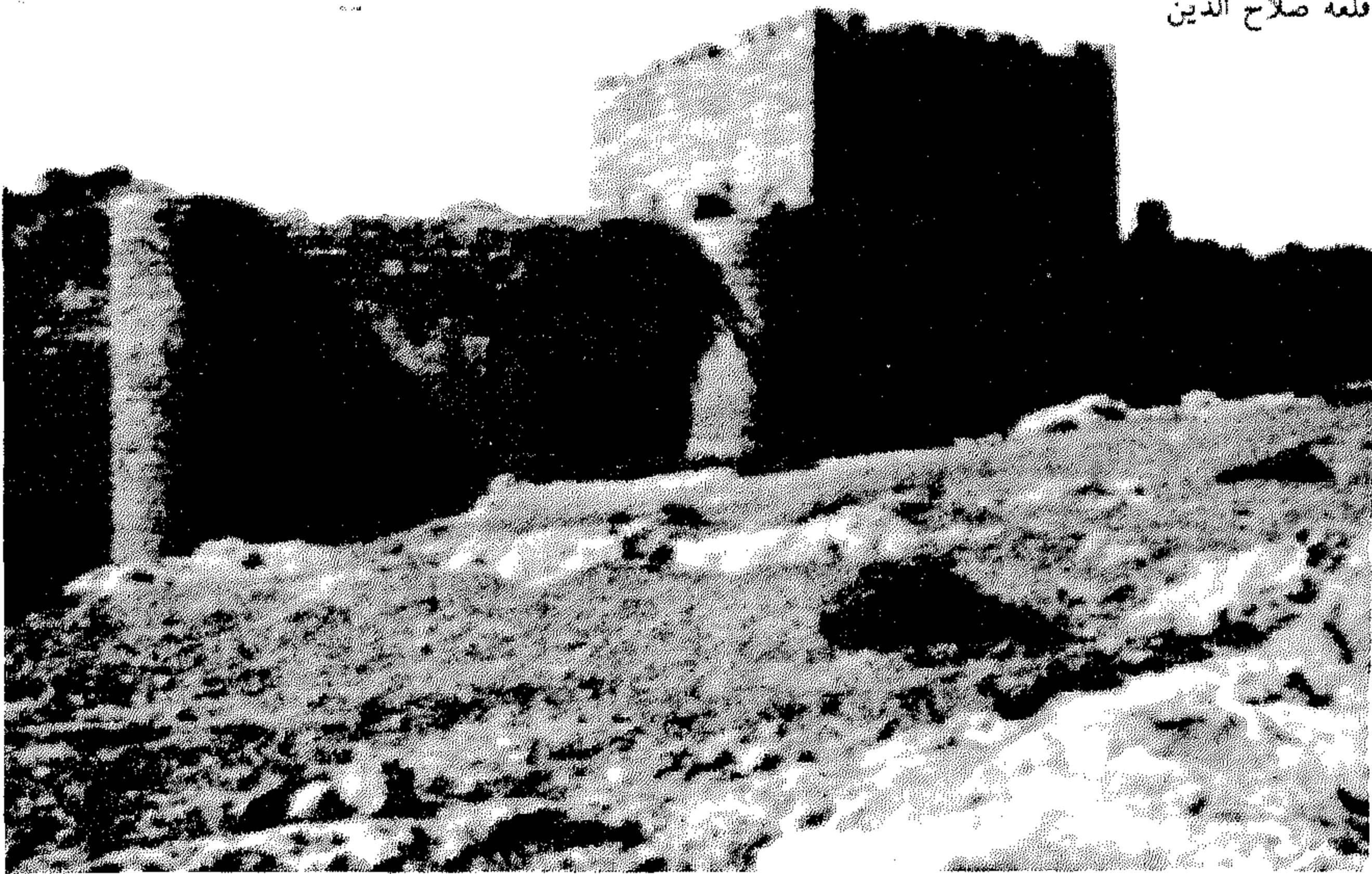
قلعة الحصن في الشام

المرقب



قلعة المرقب في الشام

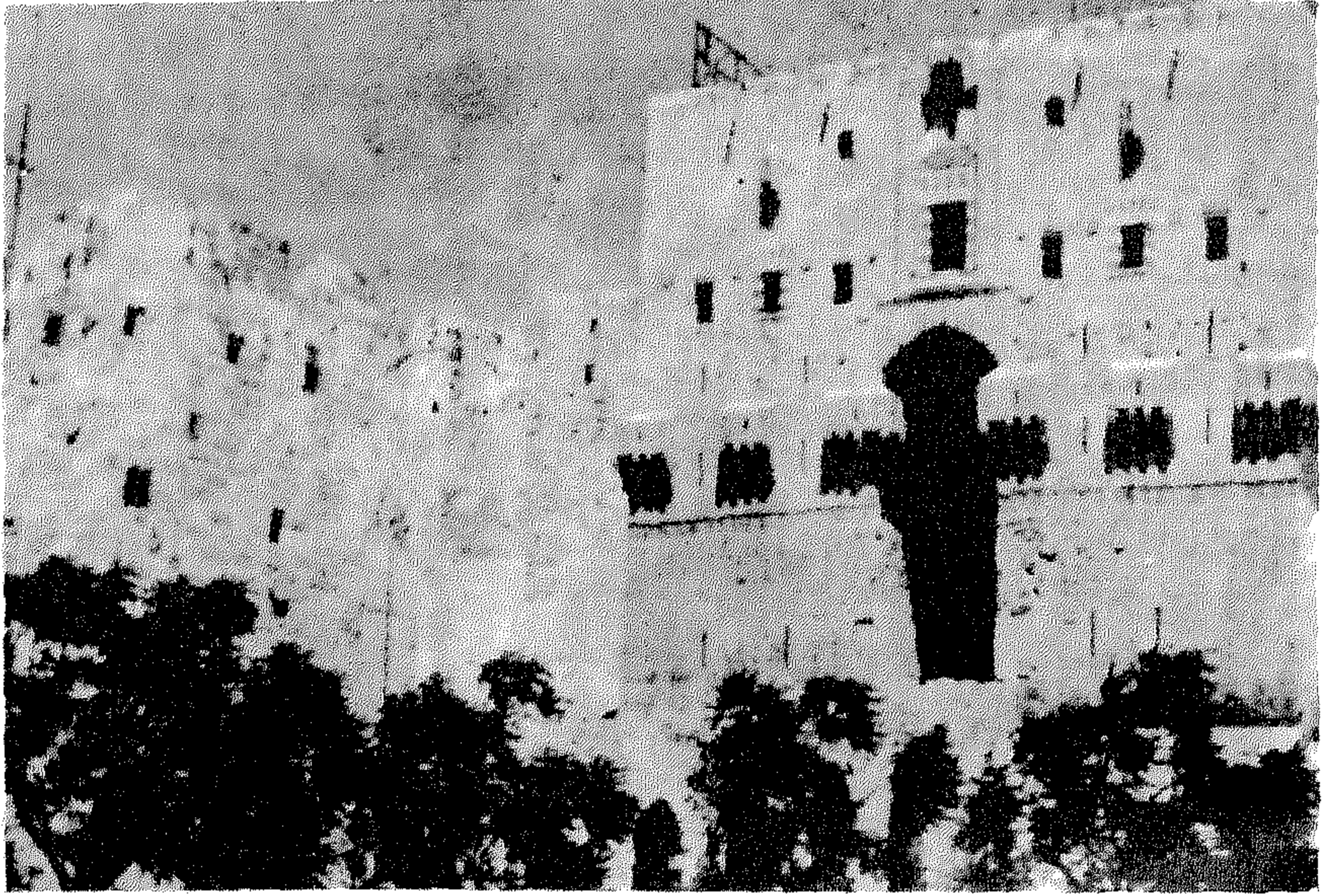
قلعة صلاح الدين



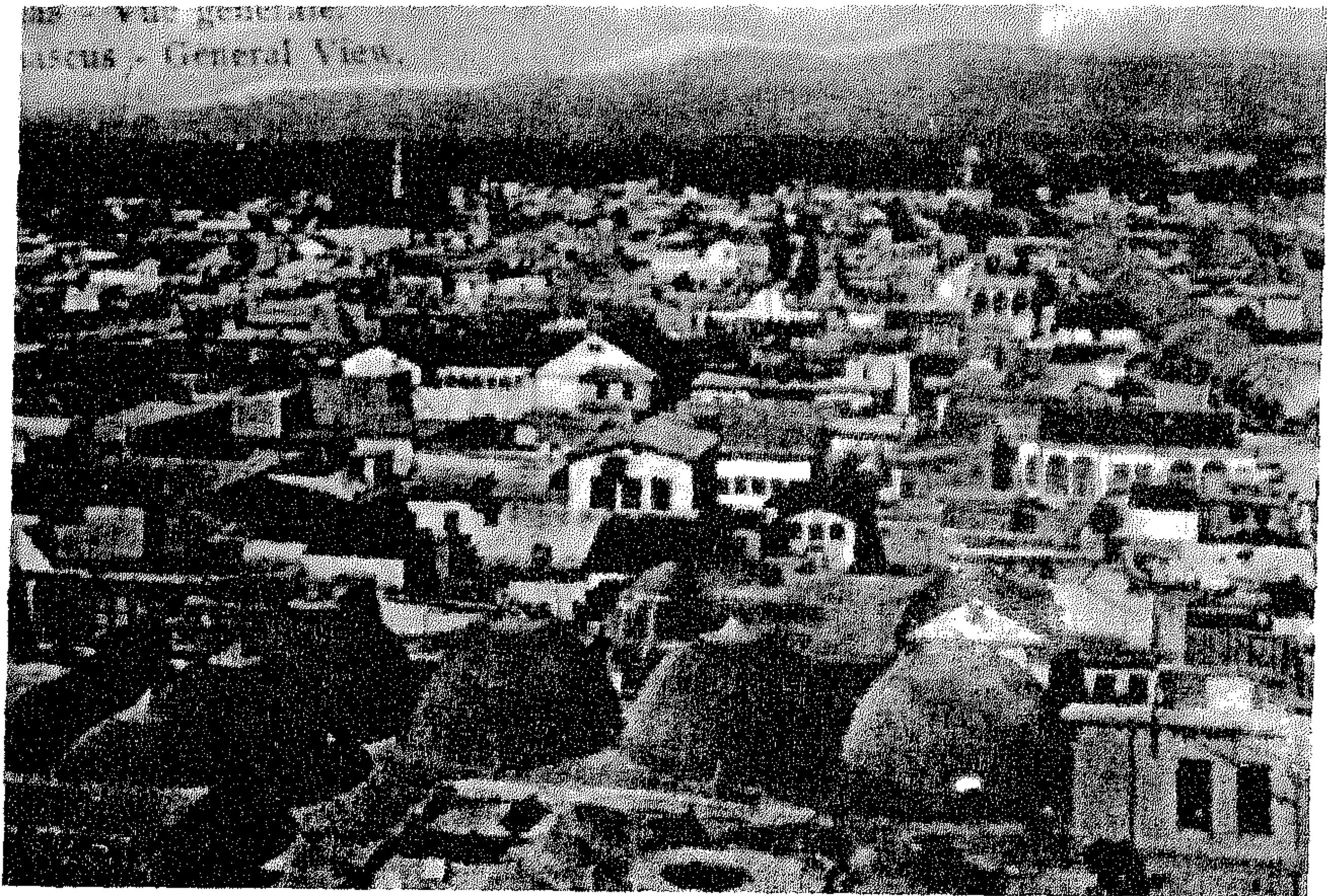
قلعة صلاح الدين الأيوبي



قلعة شيزر



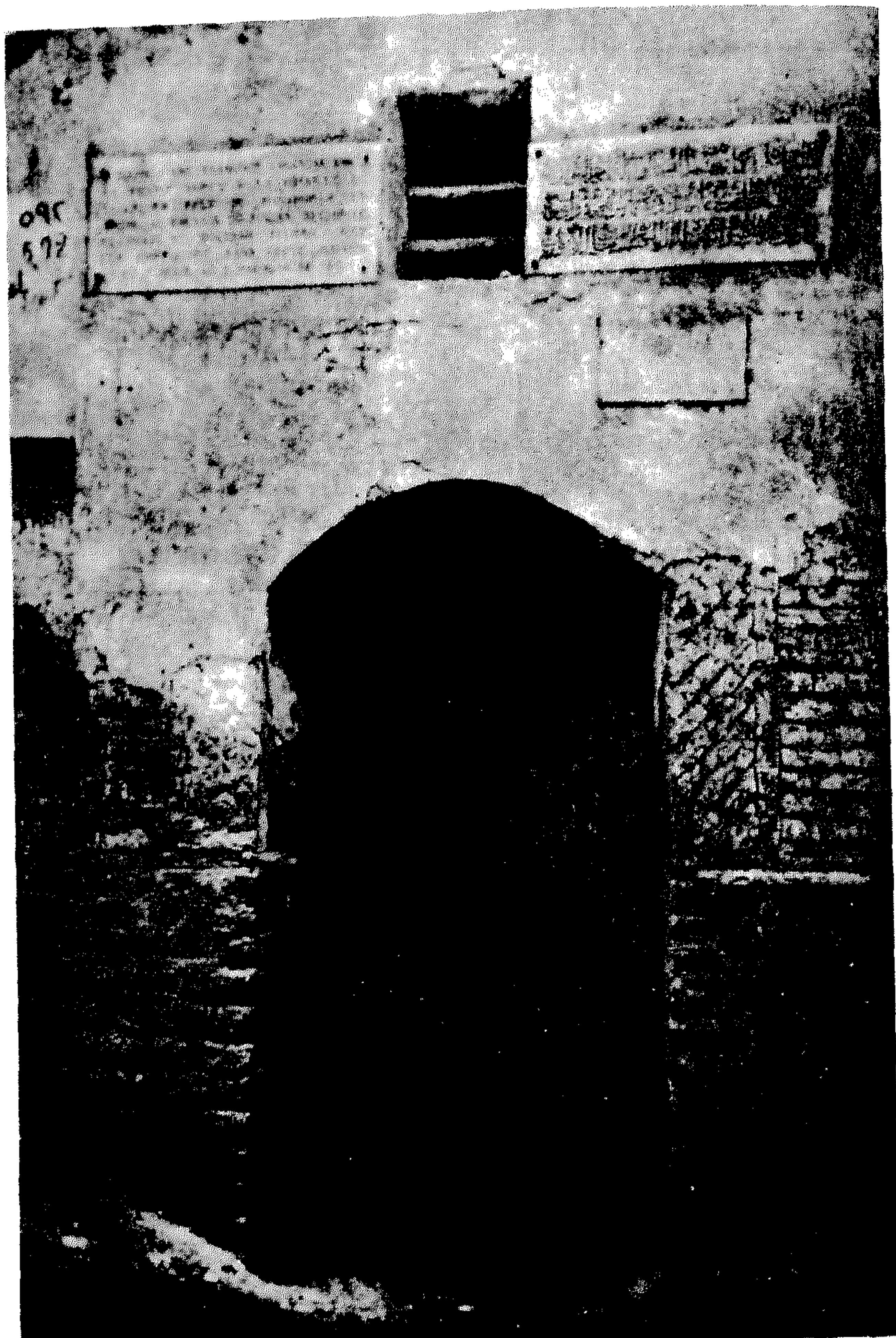
قلعة حلب الشهيرة



منظر عام لدمشق الفيحاء



لويس التاسع أسيراً بيد المسلمين في منصوره مصر



واجهة دار ابن لقمان في المنصورة حيث سجن لويس التاسع .

فهرس الاعلام

فهرس الاعلام

(أ)

- ابن بشير (محمد): ٥٤ .
 ابن بشكر (الوزير صفي الدين): ١٣٨ .
 ابن بشكوال: ٢٥ .
 ابن بطلان (يوجنا): ٢٣٨ .
 ابن بطوطة: ٣٤، ٣٥، ٢١٥، ٢٤٩، ٢٥٠ .
 ابن بلاشك (أم رودريك): ٧٠ .
 ابن ببي: ٢٣٢ .
 ابن البيطار: ٢٤ .
 ابن جيسر: ٢٥، ١٢٨، ١٣١، ١٥١، ١٥٣ .
 ١٥٤، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٨، ٢٠٢ .
 ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٢٩ .
 ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٤ .
 ٢٤٨ - ٢٥٠ .
 ابن جعفر (علي): ٦١ .
 ابن الجوزي: ١٤٠ .
 ابن الجيعان: ٢٥٠، ٢٥١ .
 ابن حاتم (الصميل): ٣٠ .
 ابن حبيب السلمي (عبد الملك): ٢٥، ٣٦ .
 ابن حجاج (ابراهيم): ٤٣ .
 ابن الحجاب (المستير): ١١٤ .
 ابن الحشاد (أبو زيد عبد الرحمن): ٩٤ .
 ابن حزم: ٢٥، ٣٦، ٨٩ .
 ابن حنبل (الامام): ٤٥ .
 ابن الحكم (عبدالله): ٦٢ .
 ابقراط: ٩٧ .
 ابن الآبار: ٢٥ .
 ابن ابي اصيبعة: ١١٧ .
 ابن ابي دينار: ١١٦ .
 ابن ابي عامر (المنصور): ٤٣ .
 ابن ابي هند (سعيد): ٤٥ .
 ابن الأثير: ١٨٢، ١٩٥، ٢٠٢، ٢٠٣ .
 ٢٣٢، ٢٣٩ .
 ابن أحمد (سعيد): ٦٤، ٦٥ .
 ابن ادريس: ٢٥ .
 ابن الأغلب (ابراهيم): ١١٤ .
 ابن الاغلب (عبدالله بن ابراهيم): ١١٤ .
 ابن الأغلب (محمد بن عبدالله): ١١٤ .
 ابن الياس (اسعد): ٢٣٦ .
 ابن اياس (أحمد): ٢٤ .
 ابن ياجه: ٢٤، ٢٥ .
 ابن الباجي (أحمد): ٦٤ .
 ابن البر: ١١٧ .
 ابن بسام: ٩٤ .
 ابن بشر (بلج): ٥٩ .
 ابن بشير (ابو عمر): ٤٢ .
 ابن بشير (سعيد بن محمد): ٤٢ .

- ابن الحكيم (عبد الرحمن): ٦٤، ٦٢ .
 ابن الخكم (محمد بن عبدالله): ٦٤ .
 ابن الحكيم (محمد بن عبد الرحمن): ٣٦ .
 ابن حمد يس: ١٤٨، ٢٥ .
 ابن حمود (ابو القاسم): ١٣١ .
 ابن حوقل: ٢٥، ٤٥، ٤٦، ٦٠، ١٥١،
 ١٥٣، ١٧٢، ١٧٣، ٢٠٨، ٢٠٩،
 ٢٤٣ .
 ابن حيان: ٢٥، ٧٨ - ٨٠ .
 ابن خاقان (الفتح): ٢٥ .
 ابن خراسان (محمد): ١١٧ .
 ابن الخطيب (لسان الدين): ٢١، ٢٢، ٢٥،
 ٣٥ .
 ابن خلدون: ٢٥، ٨٠ .
 ابن الخلعي (ابو الحسن): ٦٤ .
 ابن خليفة (علي): ٢٣٥ .
 ابن خير: ٦٢ .
 ابن داسة: ٤٤ .
 ابن دينار (عيسى): ٤٥ .
 ابن رشد: ٢٤، ٢٥، ٩٧، ١٤٠، ١٤٢،
 ١٥٤ .
 ابن الزبير: ٢٥ .
 ابن زرة: ١٣١ .
 ابن زهر: ٢٤ .
 ابن زيدون: ٢٤ .
 ابن سبعين (المكي المرسى الاندلسي): ٢٥،
 ١٤٠ .
 ابن سعيد: ٢٥ .
 ابن سلام (صعصعة): ٣٦ .
 ابن السمع: ٢٣ .
 ابن سمنة (مقاييل): ٩٥ .
 ابن سهل: ٢٥ .
 ابن سيدة: ٢٥ .
 ابن سينا: ١١٧، ١٥٥ .
 ابن شانجة (سانشو - غرسية): ٧٠ .
 ابن شداد: ١٧٦، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٢،
 ٢٣٢، ٢٥٦ - ٢٦١ .
 ابن شعيب (ابو حفص عمر): ٦٥ .
 ابن شيب (سلمة): ٤٥ .
 ابن الشيخ: ٣٦ .
 ابن صاعد (ابو القاسم): ٩٤ .
 ابن صاعد (ابو الوليد احمد): ٩٤ .
 ابن الصفاء: ٢٣ .
 ابن صفوان (بشر): ١١٤ .
 ابن طنيل: ٢٥ .
 ابن عباد: ٢٤، ١٣٦ .
 ابن عباد (المعتمد ملك اشبيلية): ٧١ .
 ابن عباس (خلف): ٢٤ .
 ابن عباس (فرغوس): ٤٥ .
 ابن عباس (علي): ٢٣٨ .
 ابن عبد البر: ٢٥ .
 ابن عبد ربه: ٢٤، ٤٧ .
 ابن عبد الرحمن (رئيس مالية
 صقلية): ١٤٣ .
 ابن عبد الظاهر (نحوي الدين): ٢٣٢، ٢٣٣،
 ٢٦٨، ٢٦٩ .
 ابن عبد العزيز (اشهب): ٦٣ .
 ابن عبد المؤمن (عبدالله بن محمد): ٤٤ .
 ابن عبد المؤمن (محمد بن عيسى): ١٢٥ .
 ابن عبد الواحد (محمد بن الزبير): ٥٦ .
 ابن عبدون (محمد عبد المجيد): ٢٤، ٩٠ .
 ابن العبري: ٢٣٢، ٢٣٣ .
 ابن عذاري: ١٩، ٨٠ .
 ابن عربي: ٢٥، ١٤٢ .

- ابن عساكر : ٢٣٢ .
 ابن عصفور : ٢٥ .
 ابن علقمة (القنيطور) : ٧٠ .
 ابن عمار : ٣٢ ، ٢٤ .
 ابن العميد القبطي : ٢٣٢ .
 ابن غالب (علي بن سعيد بن حزم) : ٤٤ .
 ابن الفرات : ٢٢ ، ٢٣٢ ، ٢٦١ ، ٢٦٨ .
 ابن الفرات (اسد) : ١١٥ .
 ابن الفرغ : ٧١ .
 ابن الفرضي : ٢٥ ، ٦٢ .
 ابن فضل الله (الدمشقي) : ١٥٤ .
 ابن القبطرنة (ابو بكر محمد) : ٩٠ .
 ابن قاسم (عبدالله محمد القلمي) : ٤٤ .
 ابن القاسم (عبد الرحمن) : ٦٣ .
 ابن القرطبي : ٩٤ .
 ابن قزمان : ٤٧ .
 ابن قيس (الغازي) : ٥٤ .
 ابن القوطية : ٢٥ ، ٢٩ ، ٤٢ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٥ .
 ابن كرايا (ابو سالم اليعقوبي الماطي) : ٢٣٣ .
 ابن لقمان : ٢٨٥ .
 ابن لهيعة (عبدالله) : ٦١ .
 ابن ماردة : ٨٠ .
 ابن مالك : ٢٥ ، ٤٤ .
 ابن المثنى (محمد) : ٤٥ .
 ابن مخلد (يقي) : ٢٥ ، ٦٣ .
 ابن مطرف (ابو عبدالله محمد) : ٤٥ .
 ابن مراجل : ٨٠ .
 ابن المقفع : ٤١ .
 ابن معاوية (عبد الرحمن) : ٣٦ .
 ابن المغيرة (محمد) : ٤٥ .
 ابن منقذ (اسامة) : ١٩٤ - ١٩٧ ، ٢٠٠ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٣٢ ، ٢٣٦ - ٢٣٨ .
 ابن منقذ (جمال الدين) : ١٣٨ .
 ابن المهندس (ابو بكر) : ٦٤ .
 ابن ميمون (موسى) : ٢٥ ، ٢٣٦ .
 ابن ناصح (عباس الجزيري) : ٤٣ ، ٥٥ .
 ابن النحاس (ابو محمد) : ٦٣ .
 ابن النديم : ٢٥ .
 ابن نصر (عدنان) : ٢٣٦ .
 ابن نظيف (محمد بن علي) : ١٩٨ ، ٢٣٢ .
 ابن هاني (محمد) : ٦٤ ، ٦٥ .
 ابن هذيل (هشام) : ٨١ .
 ابن واصل : ١٣٧ - ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٩٨ ، ٢٠٢ ، ٢٣٢ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
 ابن وافد : ٢٤ .
 ابن وضاح بن بزيع (ابو عبدالله محمد) : ٣٦ .
 ابن وهب (عبدالله) : ٦٣ .
 ابن وهب (محمد) : ٤٥ .
 ابن يوسف (ابو عبدالله محمد) : ٦١ .
 أبو اسحاق (ابراهيم بن موسى) : ٦٤ .
 ابو بكر (محمد بن اسحق) : ٥٣ .
 ابو الجواري (محمد) : ١١٥ .
 ابو الحجاج (السلطان يوسف) : ٣٥ .
 ابو الحسن (اسلم بن احمد السعيد) : ٤٧ .
 ابو حفص الاندلسي : ٨٠ .
 ابو حنيفة (الامام) : ٤١ ، ٤٥ ، ٢٣٣ .
 ابو حيان : ٢٥ .
 ابو الخصال (ابو عبدالله) : ٩٠ .
 ابو الخصال (ابو مروان) : ٩٠ .
 ابو خليل (شوقي) : ١٠١ ، ٢٧٣ .

- ابو سعيد (ابراهيم): ١١٧ .
- ابو شامة: ١٧٦، ١٩٨، ٢٣٢، ٢٣٩ .
- ابو العباس (احمد بن عبد السلام): ١١٧ .
- ابو عبدالله (محمد بن ايمن بن فرج): ٤٥ .
- ابو عبيدة: ٤١ .
- ابو العلاء: ١٤٢ .
- ابو عمر: ٤١ .
- ابو الفتح: ٢٣٨ .
- ابو الفداء: ١٣٦، ١٤٠ .
- ابو القاسم (يحيى بن علي بن ابراهيم): ٦٣ .
- ابو الوحش (ابراهيم): ٢٣٦ .
- ابو اليسر: ٣٦ .
- الاحدب (ابو القاسم): ٩٠ .
- احمد (د. عزيز): ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٢، ١٣٥ - ١٣٧، ١٥٧ .
- الاخلط: ٢٩ .
- الادريسي: ٢٥، ١٢١ - ١٢٣، ١٢٥ - ١٢٧، ١٥١ - ١٥٣، ٢١٣ .
- ادهمار (اسقف بوي): ١٧٤ .
- الاربلي (صلاح الدين): ١٤٠، ٢٢٩ .
- اردون الثالث: ٦٩ .
- اردون الرابع: ٧٠ .
- ارسطو: ٤٧، ٩٧، ١٥٤، ٢٣٨ .
- ارسلان (الامير شكيب): ٣٤، ٧٣، ٧٤، ٩٨، ٩٦ .
- ارسلان (قلج): ١٧٤، ١٧٥ .
- ارسلان (مسعود بن قلج): ١٧٢ .
- الارموي (الشيخ سراج الدين): ١٤٢ .
- ارناط (صاحب الكرك): ١٨٢ .
- الاسكندراني (عبد الواحد): ٦١ .
- اسماعيل (ابن الملك العادل): ١٨١ .
- اسماعيل الاول (السلطان): ٧٣، ٧٤ .
- الاسيزي (فرنسيس): ٨٨ .
- الاشبيلي (ابن معمر اللاهاني): ٤٢ .
- الاشبيلي (ابو العباس احمد): ٦٤ .
- الاشبيلي (جابر بن افلح): ٢٤ .
- الاشرف برساي: ٦٩، ١٨٥ .
- الاشرف خليل (بن قلاوون): ١٨٥، ٢١٢ .
- الاصبغ (بن عبد الرحمن الثالث): ٨١ .
- الاصبغ (عبدالله بن نبيل): ٧٠ .
- الاصفهاني (ابو الفرج): ٤٣، ٥٣، ٦١، ١٧٦، ٢٢٧، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥ .
- الاصبهاني (احمد بن محمد بن اشته): ٥٦ .
- الافريقي (عبد الحكيم بن عبد الواحد): ١٢٢ .
- افلاطون: ٤١، ٩٧ .
- اقليدس: ١٤٤، ٢٣٥ .
- الاكويني (توما): ٩٧ .
- الالبيري (عبد الملك بن حبيب): ٦٢ .
- الالبيري (محمد بن واصل الغافقي): ٦٣ .
- القارو: ٢١ .
- الفونسو الحكيم: ١٥٥ .
- الفونسو الخامس: ٦٩، ٩٨ .
- الفونسو الرابع: ٧٤ .
- الفونسو السادس (ادفونش): ٧١، ٧٢، ٩٤، ٩٥ .
- الفونسو العاشر: ٢١، ٢٤، ٣٤، ٨٨، ٩٧ .
- الاكري (الكونت توماس): ١٣٩ .
- الكسيوس (الامبراطور كوفين): ١٧٤، ١٨٤ .
- المورو (يوحنا مورويس): ١٤٣ .
- اماري (المستشرق): ١٢٤، ١٥٢، ١٥٤ .
- امبرواز: ١٩٥، ٢٣١، ٢٣٣ .

- املريك الاول (الملك) : ٢٣٨ ، ٢٣٠ .
الاموي (عبدالله بن ابراهيم) : ٥٦ .
اميخ (الامير) : ١٧٤ .
امية (ابن ابي الصلت) : ٢٣ .
الاندلسي (محمد بن خالد) : ٢٥ .
الانصاري (ابو محمد عبدالله) : ٥٦ .
الانصاري (محمد بن الفرج الطليطلي) : ٦٣ .
الانطاكي (تيودور) : ١٤٣ ، ٢٣٦ .
انوصان الرابع (البابا انوسنت) : ٧٢ ، ٢٢٣ .
انيجا (الاميرة) : ١٩ .
اوتو الأكبر : ٨٧ .
اوتو الثالث (ملك المانيا) : ٧١ .
اوجينوس البلرمي : ١٥٥ .
اوربان الثاني (البابا) : ١٧٠ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .
الاوزاعي (الامام) : ٣٥ ، ٣٦ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٢٠٨ .
اوغسطس (فيليب) : ٢٣١ .
ايساكوس (امبراطور الروم) : ٢٥٦ .
ايشنز (الأخ) : ٢٣٠ .
ايلة (الاميرة اخلونا) : ١٨ .
ايوب (نجم الدين) : ١٨٠ ، ١٨١ .
الايوبي (توران شاه) : ١٨٣ .
الايوبي (صلاح الدين) : ١٢٨ ، ١٧٦ ، ١٧٨ ، ١٨٠ - ١٨٥ ، ١٩٣ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢١٣ ، ٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٩ ، ٢٥٦ - ٢٦٤ ، ٢٧٦ ، ٢٨٢ .
- (ب)
- الباجي : ٢٥ .
بادينورن (اوليفر) : ٢٣١ .
بارتلمي سان هيلر : ٢٧٠ .
- باركر (أرنست) : ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٧ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ، ٢٧٣ .
باسيل الثاني (ملك بيزنطة) : ٧١ ، ٨١ .
الباكوي (عبد الرشيد بن صالح) : ١٥٢ .
بالانسيه (انجل غونز اليز) : ٩٦ .
بترارك : ١٤٢ .
بترو الغاشم : ٩٨ .
بدوي (أحمد أحمد) : ٢٣٥ ، ٢٣٦ .
برناد : ٢٣٨ .
برنار (رئيس اساقفة) : ٩٤ .
بروفنسال (ليفي) : ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٣١ ، ٣٧ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٣ ، ٩٨ .
بروكلمان (كارل) : ٢٩ ، ٣٠ .
البزاز (عبدالله الجهني) : ٥٦ .
البصرة (علي بن حمزة) : ١١٧ .
بطرة بن عمر : ٩٦ .
بطرس (القديس - الناسك) : ١٧٤ ، ١٧٥ .
بطرس المبجل (رئيس دير) : ٢٣ .
البطروجي : ٢٤ .
بطليموس : ١٢٦ .
البغدادي (ابو محمد العذري) : ٤٣ .
البغدادي (سعيد) : ٤٣ .
البكري (ابو عبيد) : ٢٥ ، ٣٤ .
بلدوين الابليني : ٢٣٠ .
بلدوين اف بوج : ٢٥٥ .
بلدوين البولوني : ١٧٤ ، ١٧٦ ، ٢٠٠ .
بلدوين الثالث : ٢٣٠ .
بلدوين الثاني : ٢٤٥ .
بلمظفر (نصر بن محمود) : ٢٣٥ .
البلوطي (المنذر بن سعيد) : ٨٠ .
البلوي (زهير ابو كنانة بن مالك) : ٣٦ .

البناني: ٢٤.

بندار (محمد بن بشار): ٤٥.

بندكت (رئيس اساقفة): ٢٥٥.

بنو عامر (الحجاب): ٩٠.

بودوان الرابع (بغدوين الابرص): ١٨١،

١٩٣، ٢٠٢، ٢٢٨.

بوري: ١١٤.

بوزورث: ٢٧١.

بوهيمند النورماني (ريموند): ١٣٢، ١٧٤،

١٧٨، ١٧٩، ١٨٢، ٢٢٨، ٢٦٧،

٢٦٩.

بيبرس (السلطان الظاهر): ١٤٤، ١٨٥،

٢٢٨، ٢٢٩، ٢٤٩، ٢٢٦، ٢٦٧.

بيزانو (ليوناردو): ١٥٥.

البيزوي (ستيفن): ٢٣٨.

بيلاجيوس (الكاردينال): ٢٣١.

(ت)

تاشفين: ١٧، ٩٥.

تاشفين (علي بن يوسف): ٥٥، ٩٠.

تاشفين (يوسف): ١٧، ٩٠، ٩٥.

تانكرد الانطاكي: ١٩٣.

تدمري (د. عمر): ٢٣٠، ٢٧٣.

الترك (د. عفيف): ٥.

تميم (الشيخ ابو الوفاء): ٢٣٨.

التميمي (عبد الملك بن زيادة

السعدي): ٥٦.

تعاسيف (علم الدين قيصر

الاسفوني): ١٤١.

تنكرد: ١٧٤.

تنكريد (الأمير): ١٣٥، ٢٢٧.

تومسون: ٢١٣.

تيودورا (الامبراطورة): ٨٠.

تيوفيل (تيوفلس): ٧٨، ٧٩، ٨٠.

(ث)

ثابت (الطبيب): ٢٣٦.

ثيودوروس: ١٤٠.

(ج)

جالينوس: ٩٧.

جروينباوم (جوستاف فون): ٢١، ٢٧١.

جرير: ٢٩.

جستيان الثاني (الامبراطور): ٧٧.

جكرمش (امير الموصل): ٢٥٥.

الجمالي (الوزير الافضل شاهنشاه بن

بدر): ١٧٥.

الجمحي (موسى بن ربيعة): ٣٦.

الجنزوري (د. علي عبد السميع): ٢٠٩،

٢٣٣.

جوانثيل: ١٩٢، ٢٠٣، ٢٢٩، ٢٣١،

٢٦٣، ٢٦٨، ٢٦٩.

جودفري (اف بوايون): ١٧٤، ١٧٦.

جوسلين الأول: ١٧٨، ٢٠٢، ٢٥٥، ٢٥٦.

الجيريوني (الاسقف جودمار): ٨٧.

جيوم (الفرد): ٢٧١.

(ح)

الحاكم بأمر الله: ٥٩.

حتي (د. فيليب): ٢١٤.

حسداي (بن شبروط اليهودي): ٢٢.

الحضرمي الحمصي (معاوية بن طليح): ٣٠،

٣٥.

- الحكم بن هشام : ٥٥ .
الحكم الثاني (المستنصر بالله بن عبد الرحمن الثالث) : ٣٧ ، ٤٣ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٨٠ ، ٨٧ ، ٨١ .
الحكم الربضي : ٣٠ .
الحلي (باسيل) : ٢٣٦ .
حلاق (د. حسان) : ١٠ ، ٢٥١ .
حمادة (د. محمد ماهر) : ٧٣ ، ٧٤ ، ٢٥٦ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
الحمداني (مصعب بن عمران) : ٣٥ .
الحميدي : ٢٥ ، ٣٠ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٣ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٥ ، ٧٩ .
حنبل (الامام) : ٤٥ ، ٢٣٣ .

(ذ)

- الدمشقي (ابن فضل الله) : ١٥٤ .
دنكري : ٢٢٧ .
الدواداري : ١٨٠ ، ٢٢٩ ، ٢٦٦ .
دوزي : ١٦ ، ١٧ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .
دوفتري (جاك) : ١٩٥ ، ١٩٦ .
الدون خايمه (دون جايم) : ٧٢ ، ٧٣ .
الدون خايمه (الثاني) : ٧٣ ، ٧٤ .
دون شبيب (بن عبد الرحمن) : ٩٦ .
دي برين (جان) : ١٨٥ .
دي شاتيو (رينو) : ١٨١ .
دي شارتر (فوشيه) : ١٧٥ ، ١٩١ ، ٢٣٠ .
دي غويه : ١٢٥ .

الذهبي : ٢٦٣ .

(ر)

- الرازي (ابو بكر) : ١٤٠ ، ١٥٥ .
الربيعي (ابو العلاء صاعد بن الحسن) : ٤٣ .
ربيع (الاسقف ابن سعيد ريكيذا موندوس) : ٨٣ .
ردميره الثاني (ملك ليون) : ٦٩ .
الرزوي (محمد) : ٢٥ .
الرشيد (خليفة الموحدين) : ١٤٠ .
رشيد الدين (المؤرخ) : ٢٣٢ .
الرقوطي (محمد) : ٢١ .
رنسيما (ستيفن) : ١٦٩ ، ١٧٥ ، ٢٠٨ ، ٢٦٥ ، ٢٦٩ .
روبرت (العالم ريشينيس) : ٢٣ .
روبرت (الامير ابن وليسم) : ١٧٤ .

(غ)

- الخشني (ابو عبدالله بن ثعلبة بن كليب) : ٢٥ ، ٤٥ .
الخضر (الفقيه صالح) : ٣٥ .
الخوارزمي (جلال الدين) : ١٣٧ ، ١٣٩ .
الخولاني (عبد الملك بن سليمان) : ٥٦ .

(د)

- داتودي (فراجا كابانا) : ٨٨ .
الداخل (عبيد الله بن قرلمان بن بدر) : ٤٢ .
دانتى : ٨٨ ، ١٤٢ ، ١٥٥ .
دانشمند : ١٧٥ .
دبور (كليام) : ٢٣٧ .
دحيم (عبد الرحمن بن ابراهيم) : ٣٦ .
دخوار (عبد الرحيم بن علي) : ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
دسداريوس (المهندس) : ٣٣ .
الدفاع (د. علي) : ٢٣ ، ٢٤ .

روجار (صاحب انطاكية): ٢٠٢.

روجر الاول (رجار بن تنغريد): ١٢١، ١٢٣.

روجر الثاني: ١٢٣ - ١٢٨، ١٣٥، ١٦٣.

رودريك (لذريق - رودريجو دياز): ١٦، ١٨، ٧٠، ٧١، ٩٥.

رومانين (بن قسطنطين): ٨٠.

ريبيرا (خليان): ٨٨.

ريتشارد (المؤرخ): ٢٣١.

ريتشارد قلب الاسد: ١٧٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٩٢، ٢٣٠.

ريتشارد العربي: ١٤٣.

ريجور (المؤرخ): ٢٣١.

الريحاني (امين): ٣٣.

ريمونت (كونت تولوز): ٢٤٥.

ريموند الرابع: ١٧٤، ١٧٦.

رينالد (سيد صيدا): ٢٣٠.

رينو الصيداني: ٢٢٩.

(ز)

زايدة المبلمة (ايزابيلا - زوجة الفونس السادس): ٩٥.

الزبيدي: ٢٥.

الزجاجي (عبد الرحمن بن اسحاق): ٤٤.

الزرقالي (الزرقيل): ٢٤.

زرقون (المغني): ٥٣.

زرياب (الموسيقي): ٤٦ - ٤٩.

زهر (ابو بكر محمد): ٢٢.

زهر (ابو العلاء): ٢٢.

زهر (ابو مروان عبد الملك بن محمد): ٢٢.

زهر (محمد بن مروان): ٢٢.

الزهرابي (ابو القاسم): ٢٤.

زيادة الله الأول: ١١٤.

(س)

سالم (د. السيد عبد العزيز): ٥، ١٧، ٣١ - ٣٤، ٦٩، ٧١، ٧٨، ٨١، ١٠١، ٢٧٣.

سانشو (ابارككا - ملك نبره): ٧١.

سانشو (الملك شانجه): ٢٢، ٦٩ - ٧١.

سانشويلو (شنجول - عبد الرحمن بن المنصور): ٧١.

ستفنسون: ١٨٢، ٢٦٥.

سفيان: ٤١.

سقراط: ٤١، ١٥٢.

سكوت (ميخائيل - ميشال): ٩٧، ١٤٠.

السلجوقي (السلطان محمود): ١٧٨.

سلفستروس الثاني (البابا): ٢٢، ٢٣.

سليمان: ١٧٧.

سليمان بن عبد الرحمن الثالث: ٨١.

سليمان بن عبد الرحمن الداخل: ٣٠، ٣٧.

سيدي محمد (بن عبد الرفيق الاندلسي): ٩٦.

سيف الدولة (علي بن عبد الله): ١٧٢.

سيف الدين (ابن السلطان الكامل): ٢٦٥.

سيف الدين الطنطاش (الامير): ٢٥٠.

سيف الدين غازي زنكي (بن عماد الدين): ١٧٩.

(ش)

شاخت: ٢٧١.

الشاطبي: ٢٥.

(ع)

- عاشور (د. سعيد): ١٩ - ٢١، ٣٣، ٤١،
٩٨، ١٣٧، ١٦٩، ١٧٤، ١٧٦،
١٩٢، ١٩٤، ٢٧٠.
عاشور (د. فايد): ٢١٦.
العامري (اسماعيل بن عبد الرحمن
القرشي): ٥٦.
العبادي (د. احمد مختار): ٥، ٢٢، ٣١،
٣٤ - ٣٨، ٦٠، ٧١، ١٢١، ١٢٤،
١٢٧، ١٥٥، ١٨٦، ٢٤٦، ٢٤٨.
عباس (د. احسان): ١٢٤، ١٢٨، ١٣٢.
عبدالله بن سهل: ٢١.
عبدالله بن عمر (ال خليفة الموحد): ٧٢.
عبدالله بن قاسم (اسقف اشبيلية): ٤٨.
عبدالله بن محمد: ١٧.
عبدالله بن موسى بن نصير: ١١٤.
عبد البديع (لطف): ١٩.
عبد البر (محمد): ٨٠.
عبدة (ابنة المنصور): ٧١.
عبد الجبار بن عبد الرحمن الثالث: ٨١.
عبد الرحمن الاول (بن معاوية بن هشام بن
عبد الملك): ١٧، ٢٩ - ٣٢، ٣٧،
٥٤.
عبد الرحمن بن الحكم: ٤٩، ٥٣، ٦١.
عبد الرحمن بن محمد: ٦٠.
عبد الرحمن بن المنصور (سانشويلو): ٧١.
عبد الرحمن الثاني (الوسط): ٤٢، ٤٣،
٤٦ - ٤٨، ٦٣، ٧٨، ٧٩.
عبد الرحمن الناصر (الثالث): ١٥، ١٧،
١٩، ٢٢، ٤٢، ٤٦، ٦١، ٦٩، ٨٠،
٨٧، ٩٦.

- الشافعي (الامام): ٦٢، ٦٣، ٢٣٣.
شارل (ملك صقلية): ٢٦٦.
شارل الثاني: ١٣٧.
شارلمان: ٧٧.
شانجه: انظر سانشو.
شبطون (ابو عبدالله زياد): ٥٤.
الشذوني (فرج بن كنانة): ٤٢.
شند (الكونت): ٩٤.
الشقندي: ٣٤.
شلبطور (بن عبد الرحمن): ٩٦.
شمس الدين (قاضي نابلس): ١٤١.
شميسان (د. حسن): ٢٣٥.
الشال (د. جمال الدين): ١٩، ٢٣، ٦٢،
٩٧، ١٢٦، ٢٣٢.
الشياني: ٥٣.
الشيخ (د. محمد محمد مرسى): ٢١١،
٢٣٩.

(ص)

- الصالح (الملك ابن قلاوون): ٢٦٨.
الصقلي (ابو بكر): ١١٧.
الصقلي (عبدالله): ١١٧.
الصقلي (محمد بن ابراهيم التيمي): ١١٧.
الصيدلاني (محمد بن عثمان بن
ثابت): ٤٤.

(ط)

- طارق بن زياد: ١٦.
الطازي (عبدالله محمد): ١١٧.
طريف بن مالك: ١٦.

عبد العزيز بن عبد الرحمن الناصر : ٨٠ .
عبد العزيز بن موسى بن نصير : ١٨ .
عبد المسيح : ١٢٩ .
عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر : ٨١ .
عبد الملك بن مروان : ٧٧ ، ١٧٧ .
عبد الملك بن المنصور (الحاجب بن ابي عامر) : ٧٠ ، ٨١ .
عبيد الله بن عبد الرحمن الناصر : ٨٠ .
عبيد الله بن قاسم : ٩٦ .
العتقي (محمد بن هارون عميرة) : ٦٣ .
عثمان بن ابي عبيدة : ١١٤ .
عثمان بن عفان (رضي الله عنه) : ١١٤ .
عجفاء (المغنية) : ٥٣ .
العدني (محمد بن يحيى) : ٤٥ .
العدوي (ثابت بن محمد الجرجاني) : ٤٤ .
العدوني الحجازي : ٤٣ .
العريني (د . السيد الباز) : ٦٥ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ٢٠٧ ، ١٨٢ .
العزيز : ٣٦٢ .
العطافي : ٢١٧ .
العكاوي (نقولا) : ٢٣٠ .
علم الدين (الشيخ ابو القاسم قيصر) : ١٣٨ .
علون (المغني) : ٥٣ .
علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) : ٥٥ .
عماد الدين زنكي (السلطان) : ١٧٨ ، ١٧٩ .
عمران (د . سعيد محمود) : ١٨٥ ، ٢٠٠ ، ٢٢٩ ، ٢٥٦ .
عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) : ١٧٧ .
العنان : ٧٤ .

الغرناطي (ابو حامد) : ٢٥ .
غروسيه : ١٧٥ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ٢٦٤ .
الغزال (يحيى بن الحكم) : ٦٥ ، ٧٩ ، ٨٠ .
الغزالي : ٥٥ .
غليوم الصوري (وليام) : ٢٣٠ ، ٢٣١ .
غليوم الطرابلسي : ٢٣١ .
غورو (الجنرال) : ١٨٥ .

(ف)

فخر الدين يوسف (بن حموية) : ١٣٧ - ١٣٩ .
الفرا : ٤١ .
الفراني (بن مسرة) : ٢٥ .
فرتون غرسييس (ملك بنبلونة) : ١٩ .
الفرزدق : ٢٩ .
فروخ (د . عمر) : ٢٣ .
فريدريك بربروسا : ١٧٠ ، ١٨٣ ، ٢٣١ .
فريدريك الثاني : ٤٧ ، ١٣٥ - ١٤٥ ، ١٥٤ ، ١٧٠ ، ١٨٥ ، ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٣٦ .
٢٦٣ - ٢٦٥ .
فلقندو : ١٣١ .
فلك بن فلك : ١٩٧ ، ٢٤٥ .
فوكاس (الامبراطور نقفور) : ٨١ .
فولكمار (القائد) : ١٧٤ .
فيونانتشي (ليوناردو) : ٢٣٣ .
فيتري (الكاردينال جيمس) : ٢٣١ .
فيليب اغسطس (الثاني) : ١٧٠ ، ١٨٣ ، ١٨٤ .

(ق)

القاسمي (خالد محمد) : ٧٨ .

(غ)

غريرت : انظر : البابا سلفستروس الثاني .

الكرمانسي (العالم): ٢٣.
الكرميوني (جيرار): ٨٧.
الكلبي (ابن ضرار): ٣٠.
الكلبي (المنصور الحسن): ١١٦.
كلوني (هوغوفون): ٩٤، ٣٣.
الكلاعي (سفر بن عبيد): ٣٢.
الكناني (د. مصطفى): ٢٢٢، ٢١٣، ٢١٢.
الكتربري (الاسقف انسلمو): ١٢١.
كندهرري: ٢٥٩، ٢٠٣.
الكندي: ٦٥.
كوراث الثالث (الامبراطور
الالمانى): ١٧٩.
كونراد (الملك الصقلي): ١٤٤.

(ل)

اللبودي (نجم الدين): ٢٣٥.
لاتيني (برونيتو): ١١٥.
اللخمي (زياد بن عبد الرحمن): ٥٤.
لذريق: انظر: رودريك.
لل (المبشر ريموند): ٢٣٣.
لوبون: ٢٧١، ٢٧٠.
لويس التاسع (ملك فرنسا ريد.
فرانس): ١٤١، ١٧٠، ١٨٥، ٢٠٣،
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٩ - ٢٣١، ٢٦٨.
لويس السابع (ملك فرنسا): ١٧٩، ٢٦٩،
٢٨٤، ٢٨٥.
الليث (الامام ابن سعد): ٦٢، ٦٣.
الليث (يحيى بن محمد): ٨٠.
الليثي (يحيى بن يحيى): ٤٥.
لين بول: ١٧٨.
ليو الثالث (الامبراطور البيزنطي): ٨٢،
٨٣.

القالي (ابو علي اسماعيل): ٢٥، ٤٤، ٦١،
٨٠.
قايتباي (السلطان): ٢٥٠.
القبري (مقدام بن معافى): ٨٨.
قدورة (د. زاهية): ٥.
القراطيس (ابو يزيد يوسف): ٦٣.
قراطوس الرومي: ٧٨ - ٨٠.
القزويني: ١٢١، ١٥٢.
قسطنطين (الامبراطور البيزنطي): ٨٣.
قسطنطين الرابع (أ.ب.): ٨٠.
قسطنطين السابع (أ.ب.): ٨٣.
القشيري (كلثوم بن عياض): ٥٩.
القليصادي (ابو الحسن علي): ٢٣.
القلقشندي: ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٣٢.
قلاوون (خليل): ٢٦٩.

قلاوون (المنصور): ١٨٥، ٢١٢، ٢٢٩،
٢٥٠، ٢٦٧ - ٢٦٩.
قمر (المغنية): ٤٣.
القمرري (ابو العباس): ٦٤.
قنسطانز الثاني (أ.ب.): ٧٧.
قوام (نصر): ٢٠٢، ٢١٧.

(ك)

كاغيوس (ملك الارمن): ٢٥٦.
الكامل (السلطان ناصر الدين محمد
الايوبي): ١٣٧ - ١٤١، ١٤٤، ١٨٥،
٢٢٩، ٢٣٠، ٢٦٣ - ٢٦٥.
كانتورويسز: ١٣٦، ١٤٥.
كتانيه: ١١٣.
كرد علي (محمد): ٢٣٥، ٢٣٩، ٢٤٤.
الكردي (الامير علاء الدين): ٢٥٠.
كركتته: ١١٣.

(م)

- المازني: ٢٥ .
 المالقي (محمد بن لب الكناني): ٢١ .
 مالك (الامام): ٤٥ ، ٥٤ ، ٥٥ ، ٦٢ ، ٦٣ ، ٢٣٣ .
 المأمون: ٦٥ .
 المأمون يحيى (بن اسماعيل ملك طليطة): ٧١ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ٩٤ .
 ماير عبد العزيز بن سهل: ٩٦ .
 متر (آدم): ٥٩ .
 المتنبي: ١١٧ .
 محمد (ﷺ): ٢٣١ ، ٢٥٨ ، ٢٦٨ ، ٢٧٠ .
 محمد (المهندس): ٩٨ .
 محمد الثالث (بن محمد الثاني سلطان غرناطة): ٧٢ .
 محمد الرابع (سلطان غرناطة): ٧٤ .
 محمد السادس (السلطان): ٦٠ .
 مديتشي: ٨٨ .
 المراكشي (عبد الرحمن): ٥٥ ، ٩٠ .
 مرتين بن عثمان: ٩٦ .
 مرغيت (ملكة صور): ٢٦٩ .
 المركيس (صاحب صور): ٢٦١ ، ٢٦٥ .
 مروان (ال خليفة): ٨٠ .
 المزني (ابو ابراهيم اسماعيل بن يحيى): ٤٥ .
 المستعلي (ال خليفة الفاطمي): ١٧٥ .
 المستنصر: ١٧ .
 مسلمة (المجريطي - المدريدي): ٢٣ ، ٢٤ .
 المسيح (عليه السلام): ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣ .
 المصري (ابراهيم بن غنائم): ٢٣٥ .
 المصري (نصر بن مرزوق): ٦٣ .
 المطوي (محمد العمروسي): ٢٧٣ .
 المظفر (ملك بطليوس): ٨٧ .
 المعافري (طالوت بن عبد الجبار): ٥٥ .
 المعافري (محمد بن شرحبيل): ٣٦ .
 معاوية بن ابي سفيان: ٥٥ ، ٧٧ ، ١١٤ .
 المعتمد (الملك): ٢٢ .
 المعظم (الامير الايوبي): ١٣٧ ، ١٣٩ .
 معين الدين (الأمير): ١٩٧ ، ٢٣٧ .
 معين الدين (صاحب دمشق): ١٨٠ .
 المغربي (ابن سعيد): ٢٥ ، ٦٠ .
 المغربي (ابو الحكم): ٢٣٦ .
 المقتدر (ملك سرقسطة): ٨٧ .
 المقتدر بالله (ال خليفة العباسي): ١٢٥ .
 المقدسي: ٣١ ، ٤١ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ١٢٣ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٩٥ ، ١٩٩ ، ٢٤٣ ، ٢٤٦ .
 المقرئ: ٣٤ ، ٦١ ، ٧٠ ، ٧٨ ، ٩٣ .
 المقرئزي: ١٣٧ - ١٣٩ ، ١٤١ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ، ٢٠٢ ، ٢١٦ ، ٢٢٨ .
 ٢٣٢ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ - ٢٦٦ .
 المكي (احمد بن محمد): ٥٦ .
 المكي (د. الطاهر احمد): ٣١ ، ١١٦ .
 مكياقيلي: ٨٨ .
 المنذر (بن عبد الرحمن الثالث - الناصر): ٨١ .
 المنصور: ٧١ .
 المنصور (ابو جعفر الخليفة العباسي): ٤١ ، ٧٧ ، ٨٠ ، ٢٤٧ .
 منفرد (بن فريدريك الثاني): ١٤٤ ، ١٤٥ .
 منقذ (آل): ٢٠٢ .
 المنقلة (يحيى): ٧٩ .
 مهذ الدين (عبد الرحيم بن علي): ٢٣٦ .

مهمندار (سرنرد) : ١٤٢ .

الموحدي المرتضى (ال خليفة) : ٧٢ .

مورينو (مارتينو ماريو) : ١١٣ - ١١٥ ،

١٢١ ، ١٢٤ ، ١٢٨ ، ١٣١ ، ١٣٦ ،

١٥٧ .

موسى بن نصير : ١٦ ، ٥٤ ، ١١٤ .

الموصللي (ابراهيم بن بكر) : ٤٣ .

الموصللي (اسحق) : ٤٦ .

الموصللي (محمد الازدي ابو الفتح) : ٤٣ .

ميخائيل السوري : ٢٥٦ .

ميقال بن عبد العزيز : ٩٦ .

(ن)

الناصر محمد (بن قلاوون) : ١٨٥ ، ٢٠٣ .

نافع بن ابي نعيم : ٥٤ ، ٦٣ .

النباهي : ٢٥ .

نجم الدين ايوب (السلطان الصالح) : ١٤١ ،

١٤٢ .

نجم الدين مالك (بن سالم) : ٢٠٣ .

النسطوري (يعقوب) : ٢٣٦ .

نسيم (د . جوزيف) : ١٦٩ ، ١٨٦ ، ٢٠٧ .

نفيس (احمد) : ٢٤ .

النقاش (د . زكي) : ١٩١ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،

٢٠٧ ، ٢١١ ، ٢١٤ ، ٢١٥ ، ٢٢١ ،

٢٢٢ ، ٢٣٠ .

نور الدين محمود زنكي (الملك

العادل) : ١٧٨ - ١٨١ ، ١٩٢ ، ٢٠٢ ،

٢١٦ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ، ٢٣٤ ، ٢٣٦ ،

٢٣٩ ، ٢٥٧ - ٢٥٩ ، ٢٦١ .

النورماندي (المؤرخ) : ٢٣٠ .

(هـ)

هارون الرشيد : ٤٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١١٤ .

هايتون (الأمير الارمني - هيثو

كوريكوس) : ٢٣٢ .

هرمانوس دلماتا : ٢٣ .

هشام بن الحكم : ٤٣ .

هشام الثاني : ١٧ .

هشام بن عبد الرحمن الداخل : ٣٧ ، ٥٣ ،

٥٤ .

هشام بن عبد الملك : ٢٩ ، ٣١ ، ٥٩ .

همفري الرابع : ٢٣٠ .

هنري (الملك) : ٢٦٩ .

هنري السادس (الامبراطور) : ١٣٥ ، ١٣٦ .

هوارى (ابو موسى) : ٥٤ .

هونكة (زيغريد) : ٢٠ ، ٢١ ، ٩٨ ، ١٢٥ .

الهوهنشتاوتن (اسرة) : ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ .

(و)

وايت : ٢٦٥ .

الوليد (قاضي المسيحيين) : ٤٨ .

الوليد بن عبد الملك : ١٦ ، ٢٩ .

وليم الاول (غليام بن روجر الثاني) : ١٢٧ ،

وليم التاسع : ٤٧ .

وليم الثاني (بن وليم الاول) : ١٢٨ ، ٢٩ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٥ .

وليم الصوري : انظر : غليوم .

(ي)

اليافعي (حسين) : ١٤١ .

ياقوت (ابو الدر) : ٢٠٢ ، ٢١٧ .

يزيد بن عبد الملك : ٨٣ .

١٣٦.

اليقوبي (الاسقف ميخائيل): ٢٣٦.

يوحنا : ٤٨ .

فهرس الأماكن (*)

(*) لم نثبت أسماء أماكن: الأندلس (إسبانيا)، صقلية، الشام، في هذا الفهرس نظر أكثر صفحات الكتاب.

فهرس الأماكن

(أ)

انجلترا (بريطانيا): ٩٩، ١٢٦، ١٨٤، ٢١٢،
٢٤٧.
أنطاكية: ٨١، ١٤٣، ١٤٤، ١٧٥، ١٧٧-١٧٩،
١٨٣، ١٩٧، ٢٠٨، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٧، ٢٢٢،
٢٢٨، ٢٣٣، ٢٣٦، ٢٣٨، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣،
٢٦٦.
انفه: ١٧٣.
آلأودر: ١٥.
أوروبا: ١٨، ١٠ - ٢٢، ٢٠ - ٢٤، ٣٣، ٨٧،
٨٩، ٩٧، ٩٩، ١٢٥، ١٤٥، ١٤٨، ١٦٩،
١٧٠، ١٧٣، ١٨١، ١٨٣، ١٨٦، ٢٠٨، ٢١١،
٢١٣، ٢٤٨، ٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧١.
أوغوسطه: ١١٣.
أيبيرية: ٨٨، ١٥.
أيطاليا: ٥٩، ٨٨، ٩٨، ٩٩، ١١٣، ١٢٢،
١٢٤ - ١٢٦، ١٣٧، ١٤٢، ١٥٥، ١٦٠،
١٧٤، ٢٠٨.
أيله (أيلات): ١٧٧، ١٧٢.

(ب)

باجه: ٢٩.
باري: ١٤٣.
باريس: ٩٧، ٢٠.
بارين: ١٩٥.
بالرمو: ١١٣، ١١٥ - ١١٧، ١٢١،
١٢٣، ١٢٤، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠، ١٣٢.

أبوليه (أبوليه): ١٣٦، ١٤٤.
أتراباني: ١١٣.
أثارب: ١٩٥.
أذانة: ١٧٢.
أراغون: ٧٢، ٤٨ - ٧٤، ١٤٢، ٢٢١.
الأردن: ٢٩، ٣٢، ١٧٢، ٢٠٨، ٢٥٨.
أرصوف: ٢٣٠.
أريحا: ٢١١.
أزمير: ٧٧، ١٧٥.
الاسكندرونة: ٢٠٩.
الاسكندرية: ٦٠، ٦١، ٦٥، ٦٩، ٨١،
١٢٨، ١٣٨.
آسية (آسية الصغرى): ٧٧، ٨٣، ١٢٦،
١٧٤، ١٧٥، ١٧٩.
أشبيلية: ١٨، ١٩، ٢٢، ٢٤، ٣٣، ٤٣،
٤٨، ٧١، ٧٣، ٩٣، ٩٦.
أطرابنش: ١٣٠، ١٣١.
أفريقية: ١٥، ٥٥، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٧٣،
٧٤، ٧٨، ٨٨، ١١٤، ١١٥، ١١٦،
١٢٥ - ١٢٧، ١٣٥، ١٦٩، ١٧٣.
أقليم الخروب: ٢١٤.
أكزيمينس: ٩٨.
ألمانيا: ١٥، ٩٩، ١٣٦.
أنتيله: ١٣٦.

- ١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٤٤ ، ١٤٩ ، ١٥١ - ١٥٥ .
- بالس : ٢٠٩
- بانياس : ١٧٢ ، ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ .
- بشينة : ٢٠٩ .
- بجاجة : ٦٠ .
- بخارى : ٢٠٩ .
- برانديزي : ١٤٣ .
- البرانس : ٣٣ .
- البرتغال : ١٥ .
- برجنديا : ٢١٢ .
- برشلونة : ٧٠ .
- برغش : ٩٨ .
- برقة : ١١٤ .
- برية : ٢٩ .
- بروقانس : ١٧٤ ، ٢١٢ .
- بسطة (الأندلس) : ٢٣ .
- البصرة : ٦١ .
- بطلوس : ٨٧ .
- بعلبك : ١٧٢ ، ٢٣٥ .
- بغداد : ١٧ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٨ ، ٤١ - ٤٦ ، ٤٨ ، ٥٦ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٧٧ ، ١٢٥ ، ١٧٥ ، ٢٤٧ ، ١٨٠ .
- البقاع : ١٧٢ ، ١٧٦ .
- بلاكتيا : ١٧٥ .
- بلش : ١٣٢ .
- بلنسية : ٧١ ، ٧٢ ، ٩٣ ، ٩٥ .
- البليار : ١١٤ .
- بنبلونة : ١٩ .
- البنديقية : ١٠ ، ٨٨ ، ٩٩ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ٢٢١ ، ٢١٦ .
- البوسفور : ١٧٤ .
- بوي : ١٧٤ .
- بياسه : ٢٢ .
- بيت لحم : ٢٠٨ .
- بيت المقدس (انظر القدس) .
- البيرة : ٢٩ ، ٢٦٤ .
- بيروت : ١٠ ، ٣٥ ، ٦٦ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٨ ، ٢١١ - ٢١٥ ، ٢١٧ ، ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥١ ، ٢٦١ ، ٢٦٧ ، ٢٧٧ .
- بيزا : ١٠ ، ١٧٠ ، ١٧٧ ، ٢١٦ ، ٢٢١ .
- بيزنطة : ٦٩ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ، ١٢٤ .
- بيسان : ٢٠٨ .
- بيش : ١٣٢ .
- (ت)**
- تاهرت (تيهت) : ٦١ .
- تبين : ١٩٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥ ، ٢٣٠ .
- تدمر : ٣١ .
- تدمير : ٢٩ .
- تراني : ١٤٣ .
- ترميني اميريه : ١١٣ .
- تكريت : ١٨٠ .
- تل باشر : ٢٠٢ ، ٢٥٥ .
- تنس : ٦١ .
- توسكانا : ٨٨ .
- تولوز : ١٧٤ ، ٢٤٥ .
- تونس : ٢٢ ، ١١٥ ، ١٢٤ ، ١٤٣ ، ١٧١ .
- (ث)**
- ثرمة : ١٢٩ .

(ج)

حصص: ٣٠، ١٧٢، ١٨٦، ١٩٦، ٢٠٨،
٢١٦، ٢٣٥، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٦٦.
حيفا: ١٨٢.
حوران: ٢٠٩.

(خ)

الخالعة: ١٥٣.
خراسان: ٦٠، ٦٤.
خيوس: ٧٧.

(د)

داريا: ١٩٩.
دفنش: ١١٣.
دمشق: ١٦، ٢٩، ٣١ - ٣٤، ٣٦، ٧٧،
١٧٢، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٦،
١٩٧، ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٢ - ٢١٤،
٢١٦ - ٢١٨، ٢٢٠، ٢٣٣ - ٢٣٦،
٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٨٣.
دمياط: ١٨٥، ٢١٣، ٢٣١.

(ر)

الراين: ١٧٤.
الرصافة: ٣٠.
رفع: ١٧٢.
الرملة: ١٧٢، ١٧٦، ١٨٥، ٢١٦، ٢٦٠،
٢٨٠.
الرها: ١٧٥، ١٧٧ - ١٧٩، ٢٥٥.
رودوس: ١٠، ٧٧.
روما: ٨٣، ١٥٥.
رومية: ٢٣، ١٤٥.
رئيس: ١٩١.

جاطو: ١٣٦.
جبل الحاج (طرابلس الشام): ٢٤٥.
جبله: ٢٥٠.
جبيل: ١٨٢، ٢١٣.
جرجنت: ١٣٦.
الجزيرة: ٤٥، ٥٥.
الجزيرة (الشام): ١٧٢، ١٨١.
جعير: ٢٠٢، ٢٥٥.
جليقية: ٧٠.
الجليل: ١٧٦.

جنوى: ١٠، ٩٩، ١٧٠، ١٧٧، ١٩٧،
٢١٢ - ٢١٤، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٢.
الجولان: ١٩٩.
جيان: ٩٦.
جيروفالكو: ١٣٦.
جيليه: ١١٣.

(ج)

الحجاز: ٤٥، ٤٦، ٥١، ٥٣، ٥٦، ٦٦،
٧٧، ١٧٧، ٢١٨.
الحدث: ١٧٢، ٢٠٩.
حران: ٢٣٥، ٢٥٥.
الحصن: ٢٨١.
حطين: ١٨٢.
حلب: ٣٥، ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٦،
١٩٥، ١٩٦، ٢١٣، ٢١٦، ٢٣٣، ٢٣٥،
٢٣٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤٨ - ٢٥٠،
٢٨٣.
حماه: ١٨٦، ١٩٦، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٣٥،
٢٦٦.

(ز)

صور: ١٧٦، ١٨٢، ١٨٣، ١٩٣، ١٩٥،
١٩٦، ٢٠٠، ٢١٠ - ٢١٤، ٢١٧،
٢١٩، ٢٢٢، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٩،
٢٦٠ - ٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٧.

الزبداني: ١٧٢.
الزهراء: ٦١.
الزلافة: ١٧.

(ض)

ضورليوم: ١٧٥.

(ط)

طارق (جبل): ١٥، ١٦.
طبرية: ١٧٦، ١٧٨، ١٨٢، ١٩٦، ١٩٧،
٢٢٠، ٢٣٧، ٢٤٥، ٢٤٩.
طرابلس الشام: ١٧٢، ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧،
١٨٣، ١٩٦، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٧،
٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٥،
٢٤٥، ٢٤٧، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧،
٢٧٣.
طرابلس الغرب: ٦٤، ١٢٤.
طرسوس: ١٧٢، ٢٠٩، ٢٤٣.
طرطوس: ١٧٦، ٢١٤.
طر كونة: ٧٠.
طليطلة: ١٩، ٢٤، ٣٧، ٤٨، ٥٥، ٦٥،
٧١، ٧٢، ٩١، ٩٣ - ٩٧، ١٥٤،
٢٤٩.

(ع)

العجم (بلاد): ١٣٨.
العراق: ٣٩، ٤١ - ٤٦، ٤٨، ٥٦، ٦٤،
٦٦، ٨٩، ١٢٣، ١٣٨، ٢١٦، ٢٢٢.
عركة: ١٧٢، ١٧٦.

(س)

سانت ياجو: ٩٩.
سبته: ٩٠.
سجلهاسة: ٦١.
سردينية: ٤٤، ١١٤، ٢١٢.
سرقسطة (سرقوسة - سيراكوزة): ٦٤، ٧١،
٨٧، ٩٣، ٩٩، ١١٣، ١١٥، ١١٦.
سروج: ٢٠٠.
سقبوية: ٩٨.
السودان: ١٢٦.
سوريا: ١٩٢، ٢٠٨، ٢٣٣.
سوسه: ١١٤.
السويداء: ٢١٧.
سيواس: ١٧١.

(ش)

شاتيون: ٢٤٧.
شارتر: ١٩١.
الشقيف: ٢٦٦.
شمبانيا: ٢١٢.
الشوبك: ١٨٢.
شيزر: ٢٠٢، ٢٠٨، ٢٣٨، ٢٦٦، ٢٨٢.

(ص)

صنعاء: ٣٥.

(ق)

القاهرة: ٢٢، ١٣٨، ٢٣٣، ٢٤٧.
قبادوقيا: ١٧١.
قبرص: ١٠، ٧٧، ١٨٥، ٢٦٦.
القدس (بيت المقدس): ٥٦، ٧٧، ٨١
١٣٧، ١٣٩ - ١٤١، ١٤٤، ١٧٢
١٧٥ - ١٧٧، ١٧٩ - ١٨٢، ١٨٤
١٨٦، ٢٠١، ٢٠٨، ٢١٣ - ٢١٦
٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٥، ٢٤٩
٢٥٨ - ٢٦٠، ٢٦٣ - ٢٦٨
٢٨٠.
قربليان: ٧٤.
قرطبة: ١٥، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٤، ٢٩، ٣٠
٣٢ - ٣٤، ٤٤ - ٤٦، ٤٨، ٥٦، ٦١
٦٢، ٦٤، ٦٥، ٦٩، ٧٠، ٧٢، ٨١
٨٧، ٩٠، ٩٥، ٩٦، ٩٩، ١٠١، ١٢٦
١٣٢، ٢٤٨.
القسطنطينية: ٣٧، ٧٧ - ٧٩، ٨١، ١٧٣
١٧٤، ١٨٤، ٢١٩.
قشتالة: ١٦، ٧٠ - ٧٣، ٩٨.
القصر: ٢٥٠.
قطالونيا: ٢١٢، ٢٢١.
قلقشندة: ٦٢.
قلورية: ١٣٢.
القليوبية: ٦٢.
قنسرين: ١٧٢، ٢٠٨، ٢١٠، ٢٤٣.
قونية: ١٤٢.
القيروان: ٢٢، ٦٣، ٧٧، ٢٤٨.
قيسارية (قيصرية): ١٧٥، ١٧٦، ٢٢٣.

عسقلان: ١٧٣، ١٧٦، ١٨٢، ١٨٤
٢٦٠ - ٢٦٢.

العقاب: ١٧.

العقبة: ١٧٧.

عكا: ١٧٣، ١٧٦، ١٨٢ - ١٨٥، ١٩٥ -

١٩٨، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٠، ٢١١، ٢١٤،

٢١٧ - ٢٢٠، ٢٢٣، ٢٢٣، ٢٢٩،

٢٣٧، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٦٠،

٢٦٢، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٨.

عكار: ٢١٤.

علقامو: ١١٣.

عين البقر: ٢٠٠.

عين زربة: ١٧٢، ٢٠٩.

(غ)

غرناطة: ١٧، ٢٤، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٦٠،

٧٢ - ٧٤، ٩٦، ١٠٧.

غزة: ١٨٢، ٢٦٦.

غوطة دمشق: ٢٠٨.

(ف)

الفاتيكان: ١٥٥.

فارس: ٨٩، ٢١٦.

الفرات: ١٧٢، ١٧٧، ٢٠٩، ٢٥٧.

فرنسا: ٨٨، ٩٤، ٩٩، ١٧٠، ١٧٥، ٢١٢،

٢٣٢، ٢٤٧.

الفسطاط: ٦٢، ٦٤، ١٥٢.

الفستول: ١٥.

فلسطين: ١٧٢، ١٧٣، ١٧٧، ١٨١، ١٨٥،

٢٠٨، ٢١١، ٢١٤، ٢٧٠، ٢٨٠.

فينا: ٢٣٣.

(ك)

- كابوا : ١٢١ .
كاس : ٢٥٠ .
كامد عرجوش : ١٧٢ .
كانوسا : ١٣٢ .
الكرك : ١٧٧ ، ١٨٢ ، ٢١٨ ، ٢٥٠ .
كريت : ٧٧ ، ٦٥ .
كريد : ٧٨ .
كليرمونت : ١٧٣ .
كندبرجلونة : ٧٣ .
الكنيسة : ١٧٢ .
كورة رية : ٣٢ .
كورة شدونة : ١٦ .
كورسيكا : ٢١٢ .
كوس : ٧٧ .
كولونيا (كولوني) : ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٣ ، ٩٤ .
الكويت : ٢٧١ .
- مازر (مزاره) : ١١٣ .
مالقة : ٣٤ ، ٣٥ .
مدريد (مجريط) : ٦٠ .
المدينة المنورة : ٣٦ ، ٤٥ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ ، ٦٢ .
مراكش : ١٧ ، ٩٠ ، ١٤٣ ، ١٧١ .
مرسالا (مرسى علي) : ١١٣ .
مرسية : ٢١ ، ٧٢ .
مرسيليا : ٢٢١ .
مرعش : ٨٢ ، ١٧٢ ، ١٧٥ ، ٢٠٩ .
المرقب : ٢٥٠ ، ٢٦٦ ، ٢٨١ .
مسينا : ١١٣ ، ١١٦ ، ١٢٩ .
مصر : ٢٩ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٩ ،
٦١ - ٦٦ ، ١٢٦ ، ١٣٧ ، ١٣٨ ، ١٤٠ -
١٤٢ ، ١٦٩ ، ١٧١ - ١٧٣ ، ١٧٥ ،
١٧٧ ، ١٨٠ ، ١٨٢ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ،
١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٧ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٥ ،
٢١٦ ، ٢١٨ ، ٢٢٢ ، ٢٣٠ ، ٢٣٣ ، ٢٣٥ ،
٢٥٠ ، ٢٦٥ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧١ ، ٢٨٤ .
المصيصة : ١٧٢ ، ٢٠٩ .
معان : ٢٠٩ .
المعتزية : ١٢٤ .
معرة النعمان (المعرة) : ١٧٦ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ،
٢١٠ .
المغرب : ١٧ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣٤ - ٣٧ ، ٤٥ ،
٥٥ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٨ ، ٨١ ،
٨٩ ، ٩٠ ، ٩٥ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٢٦ ،
١٣١ ، ٢٤٩ .
مكة : ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٦٣ ، ٦٤ ، ١٢٣ ،
٢٦٨ ، ٢٦٩ .
ملطية : ١٧١ ، ١٧٢ ، ٢٠٩ ، ٢٣٣ .
منبج : ٢٠٩ .
النصورة : ٢٨٤ ، ٢٨٥ .

(ل)

- لبنان (جبل لبنان) : ١١٤ ، ١٧٢ ، ١٩٨ ،
١٩٩ ، ٢٠٨ ، ٢١٤ ، ٢١٥ .
اللد : ١٧٦ .
اللاذقية : ١٧٣ ، ٢١١ ، ٢١٧ ، ٢٥٠ ، ٢٥١ .
لندن : ٢٠ ، ٢٣١ .
لوثرنجيا : ١٧٤ .
لوشيره (لوجاره) : ١٣٦ ، ١٣٧ ، ١٤٤ ،
١٤٥ .
ليون : ١٦ ، ٢٢ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٩٨ ، ٩٩ .

(م)

- ماردة : ٣٧ .

المنيطرة: ٢٣٦.

المهدية: ١٣٢، ١٢٨.

الموصل: ٤٣، ١٧٨، ١٨٠، ٢٥٥.

مونت كاسينو: ٣٣.

ميورقة: ٥٦.

نوطس: ١١٣.

نيقية: ١٧٤، ١٧٥.

(هـ)

الهارونية: ١٧٢.

هرقلة: ١٧٥.

الهند: ١٣٨.

هونين: ١٩٩، ٢٠٩.

(ن)

نابلس: ١٤١، ١٧٦، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٩،

٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢١٤.

نابولي: ١٢١، ١٣٦، ٢٢١.

ناربون: ٢٢١، ٢١٢.

نيره: ٧٠، ٧١.

نصيره: ١٣٦.

نكور: ٦١.

النوبة: ٦٢، ١٨١.

نورمبرج: ٩٩.

نورمنديا: ١٧٤.

نورويتش: ٢٤٧.

(و)

ونشستر: ٢٤٧.

وهران: ٦١.

(ي)

يافا: ١٣٩، ١٧٣، ١٨٢، ١٨٤، ٢١٣،

٢١٦، ٢٣٠، ٢٦٠ - ٢٦٢.

اليمن: ٣٥، ٦٠، ١٣٨، ١٨١.

**فهرس
السلالات والشموب
والقبائل**

فهرس السلالات والشعوب والقبائل

(أ)

- الأوروبيون: ٢٢٢.
أيتاد (قبيلة): ٢٢.
الإيبيريون: ١٥.
الايطاليون: ١٩١، ٢١٢، ٢١٦، ٢٢١، ٢٢٣.
الأيوبيون (بنو أيوب): ١٣٧، ١٣٩، ١٤١، ١٤٤، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٦٧.
الأتراك: ٤٢، ١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٥، ١٩١، ٢٢٨.
الأحر (بنو): ١٧، ٣٥.
الأخشيديون: ١٧١.
الأراجونيون: ٢١.
الأرمن: ١٧٢، ١٩١، ١٩٢، ٢٢١، ٢٣٢، ٢٥٦، ٢٥٧.
الاسبان: ١٨، ٢٠، ٢١، ٣١، ٤٨، ٥٩، ٩٥، ٩٧، ٢٢١.
الاسكندرانيون: ٦٠.
الاشيليون: ٢٢.
الأغالبة: ١١٥، ١١٦، ١٢٣، ١٧١.
الأفارقة: ١١٥.
الأقباط: ٦٢، ٢٢١.
الأكراد: ١٩١.
الألمان: ١٧٤، ١٩١، ٢٥٦.
الأمويون (بنو أمية): ٣٦، ٣٨، ٤٢، ٤٣، ٤٥، ٥٤، ٦١، ٧٧ - ٧٩.
الانجليز: ١٩١، ١٩٢، ٢٠٢، ٢٥٧.
الاندلسيون: ٢٠، ٣٢، ٣٧، ٤٣، ٤٦ - ٤٨، ٥٥، ٥٦، ٦٢، ٦٥، ٩٠، ٩٣، ١١٥.
البربر: ٣٧، ٥٩، ١١٤.
بروقانسيون: ١٧٤.
البشكنسي: ٨٨.
البلغار: ٢٠١.
البنادقة: ٢٢٢.
البيزنطيون: ٣٥، ٧٧، ٧٨، ٨٣، ١١٤، ١٦٩، ١٧١، ٢٢١، ٢٤٥.
التتار: ١٨٠.
التروبادور: ٤٧، ٨٨، ٨٩، ١٤٥.

(ب)

(ج)

الجرمان: ١٠٥، ١٥١.

(ج)

جناد (بنو): ١٣٢.

(خ)

الخراسانيون: ١١٥.

(د)

دانشمند (بنو): ١٧٥.

(ر)

الروم (الرومان): ١٥، ١٨، ٣٤، ٤١، ٦٢،
٨٠، ٨٢، ١١٤، ١٥١، ١٧٢، ١٧٣،
٢٢١، ٢٣٢، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٦.

(ز)

زهر (بنو): ٢٢.

(س)

السريان: ١٩٢، ٢٢١.
السلاجقة: ١٧١، ١٧٤، ١٧٥، ١٧٩، ٢٢١،
٢٣٢.

السودان: ١٢٧.
السوريون: ٢٢١، ٢٣٨.

(ش)

الشاميون: ٣٧، ٥٩، ٦١.

(ص)

الصقالبة (السلاف): ١٨، ٤٢، ٧٠.

الصقليون: ١٢٣، ١٣٢.
الصياقلة: ١٢١.
الصينيون: ٤١.

(ط)

الطولونيون: ١٧١.

(ع)

عامر (بنو): ٩٠.
العباسيون: ٤٢، ٤٥، ٥٤، ٧٧، ٧٨، ١٧١،
١٧٥.
العراقيون: ٦١.
العرب: ٨٠، ٩٣، ١١٤، ١١٥، ١٧١،
١٩١، ١٩٧، ٢٣٨، ٢٧٠، ٢٧١.
العموريون: ٧٨.

(غ)

الغرنيون: ١٧١.

(ف)

الفاطميون: ٤٢، ١١٦، ١٣٢، ١٧١، ١٧٥،
١٧٦، ٢١٢، ٢٤٥.
الفرس: ٤١، ٦٢، ١٦٩، ١٧١.
الفرنج (الافرنج): ٧٨، ٨٣، ٨٧، ٩٤،
١٢٤، ١٣٨ - ١٤٠، ١٤٢، ١٤٥،
١٨٠، ١٨٢، ١٩١ - ٢٠٣، ٢٠٧،
٢٠٩ - ٢١١، ٢١٥ - ٢٢٣، ٢٢٧ -
٢٣١، ٢٣٥ - ٢٣٧، ٢٤٤، ٢٤٥،
٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٥ - ٢٦٤،
٢٦٦ - ٢٦٩، ٢٧٩.

الفرنسيون: ١٧٤، ١٩٢، ١٩٥، ٢٢١.
الفينينقيون: ١٥.

(ق)

القبارصة: ٢٦٦.
القرطاجيون: ١٥.
القشتاليون: ٨٨، ٢١.
القوط: ١٦، ١٨، ١٩.

(ك)

الكلبيون: ١١٦، ١٢٣، ١٣٢.
الكلتيون: ١٥.

(ل)

اللومبارديون: ١٢٨.
الليونيون: ٨٨.

(م)

المدجنون: ٧٤.
المرابطون: ٥٥.
المسالمة: ١٨.
المستعربون: ١٨، ٢٠، ٤٧، ٩٥، ٩٧.
المصريون: ٣٧، ٥٩، ٦٠ - ٦٢.
المغاربة: ٢٠٠، ٢٠٢، ٢١٧، ٢٢٠، ٢٣٤.
المغول: ٢٣٢.

الماليك: ٦٩، ١٣٧، ١٨٥، ٢١٣، ٢٥٠.
٢٦٦.

الموارنة: ١٩٢، ٢٢١.
الموحدون: ١٢٧، ١٢٨، ١٣١، ١٤٠.
موزاراب (نصف عرب): ٩٣، ٩٦.
المولدون (الأفراخ): ١٨، ١٩٢، ٢٢٩.
٢٣٣.

(ن)

النورمان: ١١٦، ١١٧، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨.
١٣٢، ١٣٦، ١٤٣، ١٥١، ١٧٤.

(هـ)

الهنود: ٤١.

(و)

الوندال (القاندلس): ١٥.

(ي)

اليعاقبة: ٢٢١.
اليونانيون: ١٥، ٣٤، ٩٧، ٢٢٨.
اليهود (بنو اسرائيل): ١٥، ١٩ - ٢١، ٦٢،
٨٢، ٩٣، ٩٧، ١٢٧، ١٤٣، ١٧٢،
١٩١، ٢١٢، ٢٢٣.

فهرس
الملاح العامة

فهرس اللامع العامة

الأبراج ، الحصون ، القلاع

- برج بيش : ١٣٢ .
برج داوود : ٢٤٥ .
برج صور : ٢٤٤ ، ٢١٩ .
برج عكا : ٢٤٤ ، ٢٣٥ .
برج اللاذقية : ٢٥٠ .
حصن الأثارب : ١٩٥ .
حصن افينيون : ٢٤٧ .
حصن الأكراد : ٢٦٦ ، ٢٤٧ ، ١٧٦ .
حصن انتيله : ١٣٦ .
حصن بارين : ١٩٥ .
حصن برزويه : ٢٤٣ .
حصن بيروت : ٢٤٣ .
حصن تبين : ٢٢٠ .
حصن جاطو : ١٣٦ .
حصن الشجر : ٢٥٠ .
حصن صور : ٢٤٣ .
حصن القصير : ٢٥٠ .
حصن قنسرين : ٢٤٣ .
حصن الكرك : ٢٥٠ ، ٢١٨ ، ١٧٧ .
حصن المرقب : ٢٦٦ ، ٢٥٠ .
حصن هونين : ٢٠٩ .
قلعة أبو شامة : ١٤٦ .
- قلعة باري : ١٤٣ .
قلعة برانديزي : ١١٤ .
قلعة تبين : ٢٤٥ .
قلعة تراني : ١٤٣ .
قلعة تكرت : ١٨٠ .
قلعة جبر : ٢٠٢ .
قلعة جعبر : ٢٥٥ .
قلعة الحصن : ٢٨١ .
قلعة حلب : ٢٨٣ ، ٢٤٩ ، ٢٤٨ .
قلعة حماد : ١٣٢ .
قلعة حصص : ٢٤٣ .
قلعة دمشق : ٢٤٤ .
قلعة الروم : ٢٥٦ .
قلعة الشقيف : ٢٦٦ .
قلعة شيزر : ٢٨٢ .
قلعة الصافية : ٢٤٥ .
قلعة صيدا : ٢٧٨ .
قلعة صلاح الدين : ٢٨٢ .
قلعة صهيون : ٢٤٥ .
قلعة طبرية : ٢٤٥ .
قلعة طرابلس : ٢٧٨ ، ٢٤٥ .
قلعة المرقب : ٢٨١ .
قلعة مؤاب : ٢٤٥ .
قلعة هونين : ٢٤٥ .

الأنهار

- نهر ابره : ١٥ .
- نهر الأردن : ٢٠٨ .
- نهر انطاكية : ١٨٣ .
- نهر الاودر : ١٥ .
- نهر بردى : ٣٤ .
- نهر حدرة : ٣٤ .
- نهر الراين : ١٧٤ .
- نهر الفرات : ١٧٢ ، ٢٠٩ .
- نهر الفيستول : ١٥ .
- نهر العاصي : ١٧٥ ، ٢١٠ .
- نهر عباس : ١٥٢ .
- نهر الوادي الكبير : ٣٤ .

الأودية

- وادي الاسطيل : ٢٠٩ .
- وادي الحجارة : ٩٨ .
- وادي عباس : ١٥٢ .
- الوادي الكبير : ١٥ ، ٣٤ ، ١٠٥ .
- وادي نهر الأردن : ٢٠٨ .

البحار

- البحر الأسود : ٢١٢ .
- البوسفور : ١٧٤ .
- البحر التيريني : ١١٣ .
- بحر الروم : ١٧٢ ، ١٧٣ .
- البحر الصقلي : ١١٣ .
- بحيرة الغور : ٢٠٨ .
- البحر المتوسط : ١٧٧ ، ١٨٤ ، ١٨٥ ، ٢١٦ .
- البحر اليوني : ١١٣ .

قلعة يينة : ٢٤٥ .

قلعة يهودا : ٢٤٥ .

الأبواب

- باب ابن قرهب : ١٥١ .
- باب أبو الحسين : ١٥١ .
- بوابة اثينيون : ٢٤٧ .
- باب الابناء : ١٥١ .
- باب الأودان : ١٥١ .
- باب البحر : ١٥١ .
- باب الحديد : ١٥١ .
- باب روطه : ١٥١ .
- باب الرياض : ١٥١ .
- باب شاقرة : ١٠٦ .
- باب شتغاث : ١٥١ .
- باب المدور : ١٠٦ .
- بوابة النصر : ٢٤٧ .

الأديرة والكنائس

- دير سهاجون : ٩٤ .
- دير الفاروص : ٢٥٠ .
- دير القديس يوحنا (سان جيوفاني) : ١٢٤ ، ١٦٤ .
- كنيسة الانطاكي : ١٥٤ .
- كنيسة (كاتدرائية) : ١٣٢ ، ١٤٤ .
- كنيسة طليطلة : ٩٤ .
- كنيسة القديس بطرس : ١٧٥ .
- كنيسة القيامة : ١٨٣ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦٢ ، ٢٦٥ .
- كنيسة مونت كاسينو : ٣٣ .

الجبال

- جبل بشلير : ٣٤ .
- جبل الشارات : ٣٤ .
- جبل قاسيون : ٣٤ .

الجوامع والمساجد

- المسجد الأقصى : ١٢٣ ، ١٧٢ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ٢٦٤ ، ٢٦٥ .
- مسجد بلش : ٣٥ .
- مسجد بالرمو : ١٣٠ ، ١٤٤ ، ١٥١ - ١٥٣ .
- مسجد ثرمة : ١٢٩ .
- مسجد جنوى : ٢١٣ .
- مسجد حلب : ٢٤٨ .
- مسجد دمشق : ٢٤٦ .
- مسجد الزاهرة : ٤٣ .
- مسجد سروج : ٢٠٠ .
- مسجد صور : ٢٠٠ .
- مسجد طليطلة : ٩٤ .
- مسجد عكا : ٢٠٠ .
- مسجد عمر بن الخطاب : ١٧٧ .
- مسجد قرطبة : ٣٢ ، ٣٣ ، ٦٢ ، ٨١ ، ٩٥ ، ١٠٥ ، ١٣٢ ، ٢٤٨ .
- مسجد القيروان : ٢٤٨ .
- مسجد مالقة : ٣٥ .

القصور

- قصر الإمارة : ٣٢ .
- قصر الأمير جعفر : ١٦١ .
- قصر الانفانتادو : ٩٨ .
- قصر بالرمو : ١٢٣ .

قصر بطليوس : ٤٧ .

قصور بني حماد : ١٣٢ .

قصر جايار : ٢٤٧ .

قصر الجير الدا : ٣٣ .

قصر الحمراء : ٣٣ ، ١٠٧ .

قصر الحيرة : ٢٤٧ .

قصر دمشق : ٣١ ، ٣٢ .

قصر الرصافة : ٣١ .

قصر سعد : ١٢٩ .

قصر شاتيون : ٢٤٧ .

قصر طليطلة : ٩٣ .

قصر العزيزة : ١٣٢ ، ١٦٣ .

قصر الفوارة : ١٣٢ .

قصر القبة : ١٣٢ .

قصر القسطنطينية (قصر المرمر) : ٨٠ .

قصر كازادل كردون : ٩٨ .

قصر المدنيات (دار) : ٥٣ .

قصر المنار : ١٣٢ .

المدارس

- مدرسة اشيلية : ٣٣ .
- المدرسة الأشرفية : ٢٣٤ .
- المدرسة الأمينية : ٢٣٤ .
- المدرسة الأندلسية : ٦٢ .
- مدرسة بالرمو : ١٥٤ ، ١٥٥ .
- المدرسة (الشامية) البرانية : ٢٣٤ .
- المدرسة التقوية : ٢٣٤ .
- مدرسة الحنابلة : ٢٣٣ .
- مدرسة حلب : ٢٣٥ .
- المدرسة الحنفية : ٢٣٣ ، ٢٣٥ .
- المدرسة الدخوارية : ٢٣٤ .

- المدرسة العزيزية : ٢٣٤ .
المدرسة العمرية : ٢٣٤ .
مدارس قرطبة : ٦١ .
المدرسة القليجية : ٢٣٤ .
المدرسة المالكية : ٢٣٣ .
المدرسة النورية الكبرى : ٢٣٤ .
المدرسة الوجيحية : ٢٣٤ .
- المدرسة الشافعية : ٢٣٣ .
المدرسة الشريفة : ٢٣٤ .
المدرسة الصادرية : ٢٣٤ .
المدرسة الصلاحية : ٢٣٤ .
مدرسة طليطلة : ٩٧ ، ١٥٤ ، ١٥٥ .
المدرسة الظاهرية : ٢٣٥ .
المدرسة العادلية : ٢٣٤ .
المدرسة العذراوية : ٢٣٤ .

فهرس المصطلحات

- اتابكية : ١٧٨ .
 الاتيكيت : ٤٨ .
 الارابسك : ٢٤٦ ، ٢٤٥ ، ٣٢ .
 اردب : ٢٥١ ، ٢١٦ .
 ارغن : ١٩٣ .
 الاركان والعمد المستديرة : ٣٣ .
 الاستارية : ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ٢٢٣ ، ٢٢٧ ، ٢٦٦ .
 الأفنية : ٢٤٤ .
 الأقبية : ٣٣ .
 الأقواس الدائرة : ٣٣ .
 الأقواس المدببة : ٣٣ .
 اميراتوس : ١٤٦ .
 اميرال : ١٤٦ .
 الانرور : ٢٦٣ ، ٢٢٩ .
 الايوانات : ٢٤٤ .
 باروني : ٢٦٣ ، ٢٢٧ .
 بازارباشي : ٢٢٢ ، ٢٢١ .
 براكيس : ٢٢٧ .
 البربقان (البرنجان) : ٢٤٨ .
 برجاسي : ٢٢٨ .
 البرنس : ٢٦٣ ، ٢٢٨ .
 البوائك : ٣٢ .
 البورصة : ٢٢٣ .
 تركيبول : ١٩٢ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
 التوريقات : ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
 التوشيح : ٢٤٦ .
 الداوية : ١٧٧ ، ١٨٢ ، ١٩٢ ، ٢٢٣ .
 الديوان : ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ .
 الريابة : ١٩٣ .
 الزجل : ٨٨ .
 زربول : ٢٢٨ .
 زرياب : ٤٦ ، ٤٨ .
 السباط : ٣٢ .
 سرجنت : ٢٢٧ .
 السفاتج : ٢٢٣ .
 سقلاطون : ٢٢٨ .
 السنجال : ٢٢٩ .
 السند هند : ٢٢٩ .
 الشواني : ٢٦٧ .
 الشرفات (السقاطات) : ٢٤٦ .
 شهندر التجار : ٢٢١ ، ٢٢٢ .
 الصك : ٢٢٣ .
 الصنج (المعاير) : ٢٢٣ .
 الصنج المعشقة : ٢٤٦ .
 الطنافس : ٢٤٥ .
 العقود : ١٠٥ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
 العود : ٤٧ ، ١٩٣ .

- الغفارة : ٤٨ .
- فريري : ٢٢٧ .
- الفيكونت (البسكند) : ٢٢٨ .
- قسطلان : ٢٢٨ .
- قنطارية : ٢٢٨ .
- القيثارة : ٤٧ ، ١٩٣ .
- كليلة ودمنة : ٤١ .
- كنداسطيل : ٢٢٨ .
- كوابيل (مقرنصات) : ٢٤٨ .
- مارستان : ٢٣٥ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٤٤ .
- التراس : ٢٤٨ .
- المحاكم : ٢٢١ .
- المدام (الداما) : ٢٢٨ .
- المدخل ذو المرافق : ٢٤٧ .
- المرشان : ٢٢٨ .
- المزمار : ١٩٣ .
- مضراب العود : ٤٦ .
- المضلعات : ٢٤٦ .
- المقرنصات : ٢٤٦ ، ٢٤٨ .
- المكعبات : ٢٤٦ .
- الموشح : ٨٨ .
- النافورة : ٢٤٤ .
- نقيب أطباء : ٢٣٦ .
- الهارموني : ٤٧ .
- هزار أفسانة : ٤١ .

مصادر البحث

مصادر البحث^{١*}

المصادر الأولية

- ١ - ابن الأثير (أبو الحسن عز الدين علي بن أبي الكرم محمد المعروف بالجزري): الكامل في التاريخ، دار الطباعة المنيرية - القاهرة ١٣٥٦ هـ.
- ٢ - ابن الأثير: التاريخ الباهر في الدولة الأتابكية بالموصل، تحقيق: عبد القادر أحمد طليحات، دار الكتب الحديثة - القاهرة ١٩٦٣.
- ٣ - ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي المكنى بأبي عبد الله): رحلة ابن بطوطة المسماة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ج ٢، تقديم وتحقيق: د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٧٥.
- ٤ - ابن جبير. (محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي البلنسي المكنى بأبي الحسين): رحلة ابن جبير المسماة: تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار، تقديم: د. محمد مصطفى زيادة، دار الكتاب اللبناني - دار الكتاب المصري (بدون تاريخ) (النسخة الأولى تحقيق: وليم رايت - ليدن ١٩٠٧).
- ٥ - ابن الجيعان (القاضي بدر الدين أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاكر بن عبد الغني): القول المستطرف في سفر مولانا الملك الأشرف (رحلة قايتباي إلى بلاد الشام) تحقيق: د. عمر عبد السلام تدمري، مؤسسة جروس برس - طرابلس الشام ١٩٨٤.

(*) أثبتنا في مصادر البحث جميع المصادر والمراجع التي اعتمدنا عليها في إنجاز هذه الدراسة سواء التي وردت منها في الهوامش أو التي لم ترد وهي قليلة، لأن هذا الكتاب كان في الأصل مجموعة محاضرات جامعية، بدأنا بإعدادها وتطويرها منذ العام ١٩٨١ لغاية العام ١٩٨٦، بحيث أصبح بإمكاننا إصدارها في كتاب على هذا النحو.

- ٦ - ابن حوقل (أبو القاسم بن حوقل النصيبي): كتاب صورة الأرض، دار مكتبة الحياة - بيروت ١٩٧٩.
- ٧ - ابن الخطيب (لسان الدين): مشاهدات في المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) جمع وتحقيق: د. أحمد مختار العبادي، مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية ١٩٨٣.
- ٨ - ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد)، وفيات الأعيان وانباء ابناء الزمان، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة ١٩٤٨.
- ٩ - ابن شداد (القاضي بهاء الدين): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (كتاب سيرة صلاح الدين) مطبعة الآداب - مصر ١٣١٧ هـ - ونسخة مطبعة التمدن - مصر ١٩٠٣ م.
- ١٠ - ابن الفرات (ناصر الدين محمد): تاريخ ابن الفرات، ج ٢، ج ٤، ج ٧، تحقيق: د. اسد رستم، د. قسطنطين زريق، د. نجلاء عز الدين، المطبعة الأميركية - بيروت ١٩٤٢.
- ١١ - ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م.
- ١٢ - ابن واصل (جمال الدين محمد بن سالم بن واصل): مفرج الكروب في اخبار بني أيوب، ج ٤، تحقيق: د. جمال الدين الشيال، دار احياء التراث القديم - القاهرة ١٩٥٧، ونسخة مطبعة دار الكتب - القاهرة: ١٩٧٢، تحقيق: د. حسين محمد ربيع، مراجعة: د. سعيد عبد الفتاح عاشور.
- ١٣ - أبو شامة (شهاب الدين أبي محمد عبد الرحمن بن اسماعيل بن ابراهيم المقدسي الشافعي): كتاب الروضتين في اخبار الدولتين النورية والصلاحية، ج ١، ج ٢، تحقيق: د. محمد حلمي محمد أحمد، مراجعة: د. محمد مصطفى زيادة. لجنة التأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٦٢، ونسخة أبي السعود افندي محرر صحيفة وادي النيل المطبوعة في مصر ١٢٨٧ هـ.
- ١٤ - أبو المحاسن: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج ٦ - القاهرة (١٣ جزءاً صدرت بين ١٩٢٩ - ١٩٤٣).
- ١٥ - أسامة بن منقذ (مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكناني الشيزري): كتاب الاعتبار، تحرير وتحقيق: د. فيليب حتي، مطبعة جامعة برنستون - الولايات المتحدة الاميركية ١٩٣٠.

- ١٦ - الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، نشر: دوزي ودي غويه، ليدن ١٨٩٣.
- ١٧ - الأصفهاني (أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبي الفرج...) الفتح القسي في الفتح القدسي، تحقيق وشرح وتقديم: محمد محمود صبح، الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة (بدون تاريخ).
- ١٨ - جوانفيل، جان: مذكرات جوانفيل (Jean Sire de Joinville): القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، تعريب وتعليق: د. حسن حبشي، دار المعارف - مصر ١٩٦٨.
- ١٩ - الحميدي (أبو عبد الله الأزدي): جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس، نشر وتحقيق: إدارة إحياء التراث - الدار المصرية للتأليف والترجمة - القاهرة ١٩٦٦.
- ٢٠ - الدواداري (أبو بكر بن عبد الله بن ايوب الدواداري): كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٨، تحقيق: أولريخ هارمان (Ulrich Haarmann) المعهد الألماني للآثار - القاهرة ١٣٩١ هـ - ١٩٧١ م.
- ٢١ - القلقشندي (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله): صبح الأعشى في صناعة الانشا، ج ١٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر - القاهرة ١٣٣١ - ١٣٣٨ هـ، ونسخة دار الكتب المصرية ١٩١٤ - ١٩١٥ م.
- ٢٢ - المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البنا المعروف بالبشاري): أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، تحقيق: M.J. de Goeje طبعة دي غويه ليدن ١٩٠٦.
- ٢٣ - المقرئ (تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي): السلوك لمعرفة دول الملوك، ج ١-٢، نشر وتحقيق: د. محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر - الطبعة الأولى القاهرة ١٩٣٤، الطبعة الثانية ١٩٥٦ - ١٩٥٧ (ج ٣، تحقيق: د. سعيد عبد الفتاح عاشور، القاهرة ١٩٧٠ - ١٩٧٢).
- ٢٤ - مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر امرائها، تحقيق: ابراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨٠ م.

المراجع العربية والمعرية

- ٢٥ - د. احسان عباس: العرب في صقلية، دار الثقافة - بيروت ١٩٧٥.

- ٢٦ - أحمد أحمد بدوي: الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام، دار نهضة مصر، الفجالة - مصر ١٩٧٢.
- ٢٧ - د. أحمد مختار العبادي: العلاقات بين الشرق والغرب، مكتبة كريدية - بيروت ١٩٧٠.
- ٢٨ - د. أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٢.
- ٢٩ - آدم متر: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري، ج ٢، تعريب: محمد عبد الهادي أبو ريده، دار الكتاب العربي - بيروت (بدون تاريخ) الطبعة الخامسة.
- ٣٠ - أرنست باركر: الحروب الصليبية، تعريب: د. السيد الباز العريني، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٧.
- ٣١ - أمين الريحاني: نور الأندلس، دار الريحاني للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٦٩.
- ٣٢ - د. جمال الدين الشيال: التاريخ الإسلامي وأثره في الفكر التاريخي الأوروبي في عصر النهضة، دار الثقافة - بيروت ١٩٦٩.
- ٣٣ - د. جمال الدين الشيال، د. إبراهيم بيومي مدكور، د. سهر القلماوي وآخرون: أثر العرب والإسلام في النهضة الأوروبية. إشراف: مركز تبادل القيم الثقافية وبالتعاون مع اليونسكو، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر - القاهرة ١٩٧٠.
- ٣٤ - د. جوزف نسيم: دراسات في تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية ١٩٨٣.
- ٣٥ - جوستاف أ. فون جروينباوم: حضارة الإسلام، تعريب: عبد العزيز توفيق جاويد، مراجعة: عبد الحميد العبادي، مكتبة مصر ١٩٥٦.
- ٣٦ - جوستاف لوبون: حضارة العرب، تعريب: محمد عادل زعتر، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي - القاهرة ١٩٤٥.
- ٣٧ - د. حسن شمساني: مدارس دمشق في العصر الأيوبي، دار الآفاق الجديدة - بيروت ١٩٨٣.
- ٣٨ - خالد محمد القاسمي: العلاقات بين الشرق والغرب في عصر الدولة العباسية، مجلة تاريخ العرب والعالم - بيروت، العددان ٧٩ - ٨٠ أيار (مايو) - حزيران (يونيه) ١٩٨٥.

- ٣٩ - دوزي. ر: تاريخ مسلمي اسبانيا، ج ١، تعريب: د. حسن حبشي، مراجعة: د. جمال محرز، د. احمد مختار العبادي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، دار المعارف - القاهرة ١٩٦٣ تعريب لكتاب: R. Dozy; Histoire des Musulmans D'Espagne, 3 vols, éd. lévi - provençal - leyde 1932.
- ٤٠ - د. زكي النقاش: العلاقات الاجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والافرنج خلال الحروب الصليبية، دار الكتاب اللبناني - بيروت ١٩٥٨.
- ٤١ - زيغريد هونكه: أثر الحضارة العربية في أوروبا (شمس العرب تسطع على الغرب) تعريب: فاروق بيضون - كمال دسوقي، مراجعة وتعليق: مارون عيسى الخوري، دار الآفاق - بيروت ١٩٦٩، الطبعة الخامسة ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٤٢ - ستيفن رنسيان: تاريخ الحروب الصليبية، تعريب: د. السيد الباز العريني، دار الثقافة - بيروت.
- ٤٣ - د. سعيد عاشور: الحركة الصليبية، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٦٣.
- ٤٤ - د. سعيد عاشور: المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٣.
- ٤٥ - د. سعيد عاشور: مصر والشام في عصر الأيوبيين والمماليك، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٢.
- ٤٦ - د. سعيد عاشور: تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧٦.
- ٤٧ - د. سعيد عاشور: بحوث ودراسات في تاريخ العصور الوسطى، منشورات جامعة بيروت العربية - بيروت ١٩٧٧.
- ٤٨ - د. السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ٣٢٣ - ١٠٨١ م، دار النهضة العربية - القاهرة ١٩٦٥.
- ٤٩ - د. السيد الباز العريني: الشرق الأدنى في العصور الوسطى، ج ١ (الأيوبيون) دار النهضة العربية - بيروت ١٩٦٧.
- ٥٠ - د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، دار المعارف لبنان - بيروت ١٩٦١.
- ٥١ - د. السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ١، دار النهضة العربية - بيروت ١٩٧١.

- ٥٢ - د. السيد عبد العزيز سالم: تاريخ الاسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة - الاسكندرية، الطبعة الثالثة ١٩٨٢.
- ٥٣ - شكيب ارسلان (الأمير): الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ج ١، منشورات المكتبة التجارية - فاس، المطبعة الرحمانية - مصر، الطبعة الأولى ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٦ م.
- ٥٤ - د. الطاهر أحمد مكي: الفن العربي في اسبانيا وصقلية، دار المعارف - القاهرة ١٩٨٠.
- ٥٥ - د. عبد الرحمن بدوي: دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، وكالة المطبوعات، دار القلم - الكويت - بيروت، الطبعة الثالثة ١٩٧٩.
- ٥٦ - د. عبد القادر أحمد اليوسف: علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية صيدا - بيروت ١٩٦٩.
- ٥٧ - د. عزيز أحمد: تاريخ صقلية الإسلامية، تعريب: د. أمين توفيق الطيبي، الدار العربية للكتاب - طرابلس الغرب ١٩٨٠.
- ٥٨ - د. عليّة عبد السميع الجنزوري: الثغور البرية الإسلامية على حدود الدولة البيزنطية في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ١٩٧٩.
- ٥٩ - د. علي حبيبة: مع المسلمين في الأندلس، مكتبة الشباب - القاهرة ١٩٧٢.
- ٦٠ - د. علي الدفاع: تاريخ الرياضيات عند العرب والمسلمين، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.
- ٦١ - د. علي الدفاع: اعلام العرب والمسلمين في الطب، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.
- ٦٢ - د. عمر فروخ: عبقرية العرب في العلم والفلسفة، المكتبة العصرية - بيروت، الطبعة الرابعة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٦٣ - د. فايد حماد محمد عاشور: العلاقة بين البندقية والشرق الأدنى الإسلامي في العصر الأيوبي، دار المعارف - الاسكندرية ١٩٨٠.
- ٦٤ - د. فايد حماد محمد عاشور: جهاد المسلمين في الحروب الصليبية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨١.
- ٦٥ - فهمي توفيق مقبل: الفاطميون والصليبيون، الدار الجامعية - بيروت ١٩٨٠.
- ٦٦ - كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، تعريب: نبيه أمين فارس، منير

- البعلبكي، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة السابعة ١٩٧٧.
- ٦٧ - ليثي بروقنسال: الإسلام في المغرب والأندلس، تعريب: د. السيد عبد العزيز سالم، أ. محمد صلاح الدين حلمي، مراجعة: د. لطفي عبد البديع، مكتبة نهضة مصر - القاهرة ١٩٥٦. تعريب لكتاب: (Islam d'occident).
- ٦٨ - د. مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية، منشورات الجامعة اللبنانية - بيروت ١٩٦٨.
- ٦٩ - محمد العمروسي المطوي: الحروب الصليبية في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي - بيروت ١٩٨٢.
- ٧٠ - محمد كرد علي: خطط الشام، ج ٥، ج ٦ (طبعة جديدة) مكتبة النوري - دمشق ١٩٨٣.
- ٧١ - د. محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال أفريقيا، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.
- ٧٢ - د. محمد ماهر حمادة: وثائق الحروب الصليبية والغزو المغولي للعالم الإسلامي، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٨٢.
- ٧٣ - د. محمد محمد مرسى الشيخ: الإمارات العربية في بلاد الشام في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية ١٩٨٠.
- ٧٤ - د. محمود سعيد عمران: الحملة الصليبية الخامسة، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية ١٩٧٨.
- ٧٥ - د. محمود سعيد عمران: العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، مكتبة كريدية - بيروت ١٩٨١.
- ٧٦ - د. محمود سعيد عمران: القادة الصليبيون الأسرى في أيدي الحكام المسلمين ٤٩٣ - ٥٣١ هـ، - ١١٠٠ - ١١٣٧ م دار النهضة العربية - بيروت ١٩٨٥.
- ٧٧ - د. مصطفى حسن محمد الكفاني: العلاقات بين جنوه والشرق الأدنى الإسلامي ١١٧١ - ١٢٩١ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب - الإسكندرية ١٩٨١.
- ٧٨ - ميشيل أماري: المكتبة العربية الصقلية - نصوص في التاريخ والبلدان والتراجم والمراجع - ليبسك ١٨٥٧.
- ٧٩ - نفيس أحمد: الفكر الجغرافي في التراث الإسلامي، تعريب: فتحي عثمان، دار القلم، الكويت - الطبعة الثانية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م.

المصادر والمراجع الأجنبية

- Atiya, A.S. The Crusade in the later Middle Ages, London 1938. - ٨٠
- Atiya, A.S. Crusade Commerce and Culture, London 1962. - ٨١
- Cahen, C. la Syrie du Nord a l'Europe des Croisades, Paris 1940. - ٨٢
- Conder, C.R; The Latin kingdom of Jerusalem 1099 - 1211, London - ٨٣
1897.
- Delaville le roulx, G. les Hospitaliers en Terre Sainte et a Chypre. Paris - ٨٤
1904.
- Deschamps, P; la Defence du Royaume de Jerusalem 2 Vols, Paris - ٨٥
1939.
- Deschamps P; les Chateaux des Croises en Terre Sainte, 2 Vols, Paris - ٨٦
1939.
- Dozy R; Recherches sur l'Histoire et la litterature de l'Espagne pendant - ٨٧
le Moyen Age (2 vols) Leyde 1881.
- Dozy, R; Histoire des Musulmans d'Espagne, 3 vols. éd. - ٨٨
Lévi-Provençal, Leyde 1932.
- Faris, N.A; The Arab Heritage, Princeton 1944. - ٨٩
- Farmer, H. G; A History of Arabian Music to Th XIII Century, London - ٩٠
1929.
- Grousset, R; Histoire des Croisades et du Royaume France de Jeru- - ٩١
salem, 3 vols. Paris 1934.
- Kantorowicz, E; Frederick the Second 1194 - 1250 London 1931. - ٩٢
- Kohler, C; Melanges pour servir a l'Histoire de L'Orient latin et des - ٩٣
Croisades, Paris 1906.
- Lane-Poole, S; Saladin and the Fall of the kingdom of Jerusalem, New - ٩٤
York - London 1898 (S.E. Beirut 1964).
- Lévi-Provençal, L'Espagne Musulmane aux XE siecle, Paris 1932. - ٩٥
- Lévi-Provençal, Histoire de l'Espagne Musulmane, Paris 1950. - ٩٦
- Richard, Le Royaume latin de Jerusalem Paris, 1953. - ٩٧
- Runciman, S; History of the Crusades, 3 vols. Cambridge 1951-1954. - ٩٨
- Stevenson, W.G; The Crusades in the East, Cambridge 1907. (S.E. - ٩٩
Beirut) 1968.
- Thompson. J.W; Economic and Social History of the Middle Ages, - ١٠٠
2 vols, New York 1928 (S.E. London 1959).
- Wiet. G; L'Egypte Arabe-Histoire de la Nation Egyptienne, IV, Paris - ١٠١
1937.



هذا الكتاب

يعالج هذا الكتاب «العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى» من خلال ثلاثة معابر حضارية وهي: الاندلس، صقلية، الشام، حيث توفرت العلاقات الإسلامية - المسيحية، والعربية - الأوروبية. وهي علاقات حضارية من علمية وثقافية وتجارية واجتماعية وسياسية، ولم تكن العلاقات المتبادلة عسكرية فحسب، بل كان لها أيضاً الطابع الحضاري المميز.

هذه العلاقات الحضارية أدت إلى تمازج حضاري بين الشرق والغرب وبين الاسلام والمسيحية. والحقيقة فان الاسبان استطاعوا إخراج المسلمين من الاندلس، واستطاع الافرنج الصقالبة إخراج المسلمين من صقلية، كما استطاع المسلمون إخراج الافرنج من بلاد الشام، غير أن النتائج الحضارية استمرت ولقرون عديدة في المجتمعات الأوروبية والغربية على حد سواء. وقد استفادت دول أوروبا استفادة كبرى من الحضارة الإسلامية ومن علوم المسلمين وتراثهم، في وقت كانت فيه تعاني من وطأة التخلف العلمي والحضاري، كما كانت لا تزال تحيا حياة الركود والانحطاط.

صدر للمؤلف

- ١ - مقدمة في مناهج البحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات.
- ٢ - موقف الدولة العثمانية من الحركة الصهيونية ١٨٩٧ - ١٩٠٩.
- ٣ - دور اليهود والقوى الدولية في خلع السلطان عبد الحميد الثاني عن العرش ١٩٠٨ - ١٩٠٩.
- ٤ - موقف لبنان من القضية الفلسطينية ١٩١٨ - ١٩٥٢.
- ٥ - دراسات في تاريخ لبنان المعاصر ١٩١٣ - ١٩٤٣.
- ٦ - التيارات السياسية في لبنان ١٩٤٣ - ١٩٥٢.
- ٧ - مؤتمر الساحل والأقضية الأربعة ١٩٣٦.
- ٨ - أوقاف المسلمين في بيروت في العهد العثماني (مجموعة سجلات المحكمة الشرعية في بيروت).
- ٩ - المؤرخ العلامة محمد جميل بيهم ١٨٧٨ - ١٩٧٨.
- ١٠ - مذكرات سليم علي سلام ١٨٦٨ - ١٩٣٨.
- ١١ - الإدارة المحلية الإسلامية - المحتسب -.
- ١٢ - تعريب النقود والدواوين في العصر الأموي.
- ١٣ - العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى.
- ١٤ - له عدة مذكرات ومحاضرات مطبوعة لعدد من الموضوعات الجامعية، كما نشر العديد من الأبحاث والدراسات التاريخية في الدوريات اللبنانية والعربية.